

تَفْسِيرُ

بِشَيْخِ الْأَمِيرِ بْنِ تَمِيمٍ

الْمَدِينِيِّ فِي التَّفْسِيرِ

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

إِيَادُنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ لَقْسِي

رَاجَعَهُ

عُمَانُ بْنُ مُعَلَّمٍ مَحْبُودٍ

أَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

سَعْدُ بْنُ فَوَازِ الصَّمِيلِ

الْمَجْرَعُ السَّابِعُ

سُورَةُ الْفَاسِيَةِ - سُورَةُ النَّاسِ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير  
شيخ الإسلام ابن تيمية  
في الكلام الاصل في التسمية والتفسير

٧

# حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

## الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣٢هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢  
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تليفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨  
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:  
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تليفاكس:  
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

## سورة الغاشية

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿١﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٣﴾ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ ﴿٤﴾ عَيْنٍ ﴿٥﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿١﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٣﴾ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ ﴿٤﴾ عَيْنٍ ﴿٥﴾﴾ وهذا يكون يوم القيامة. وهذا هو الصواب من القولين بلا ريب) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام في تفسيره المطبوع:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ ﴿٥﴾﴾ .

فيها قولان:

«أحدهما» أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة، تصلى يوم القيامة ناراً حامية، ويعني بها عباد الكفار كالرهبان، وعباد اليهود، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

و«القول الثاني» أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذلل وتعمل وتنصب، قلت: هذا هو الحق لوجوه:

«أحدها» أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه، أي وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية، وعلى الأولى لا يتعلق إلا بقوله: ﴿تَصَلَّىٰ﴾ ويكون قوله: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ صفة للوجوه، قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه.

ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز، لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير، بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

«الوجه الثاني» أن الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة، فقال بعد ذلك: ﴿وَجْهٌ يُؤْمِدُّ نَاعِمَةً ﴿٨﴾ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية] ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا. إذ هذا ليس بمدح، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما، وحينئذ فيكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة.

«الثالث» أن نظير هذا التقسيم قوله: ﴿وَجْهٌ يُؤْمِدُّ نَاصِرَةً ﴿٧٧﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٧٨﴾ وَوَجْهٌ يُؤْمِدُّ بِأَسِرَةٍ ﴿٧٩﴾ تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاغِرَةٌ ﴿٨٠﴾﴾ [القيامة] وقوله: ﴿وَجْهٌ يُؤْمِدُّ مُسْفِرَةً ﴿٨٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٨٩﴾ وَوَجْهٌ يُؤْمِدُّ عَلَيَّا عَبْرَةٌ ﴿٩٠﴾ زَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴿٩١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٩٢﴾﴾ [عبس] وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

«الرابع» أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن وإنما في القرآن ذكر العلامة، كقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلَعَهُمُ بِسِيمَتِهِمْ﴾ [محمد: ٣٠] وقوله: ﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَأَيْنَتْنَا بَيْنَتِ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَأَيْنَتْنَا﴾ [الحج: ٧٢] وذلك لأن العمل والنصب ليس قائماً بالوجوه فقط، بخلاف السيماء والعلامة.

«الخامس» أن قوله: ﴿خَشِيعَةً ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصف مشترك بين عبّاد المؤمنين وعبّاد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أريد المختص لقليل خاشعة للأوثان مثلاً، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصاً بالكفار، ولا كونه مذموماً، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً، ولا عيب عليه، فحملة على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.



## سورة الفجر

﴿وَلَيْلِ عَشْرِ ٢﴾ .

(وعشر ذي الحجة: اسم لمجموع الليالي وأيامها؛ فإن يوم النحر من عشر ذي الحجة، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام العشر»<sup>(١)</sup>) وقال تعالى: ﴿وَلَيْلِ عَشْرِ ٢﴾ ويوم النحر داخل فيها، وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ ٢﴾ [الأعراف: ١٤٢] ويوم النحر هو آخر الأربعين<sup>(٢)</sup>. ولفظ العشر - وإن كان في الأصل اسماً للمؤنث لأنه بغير هاء -: فإنما دخل فيه اليوم لسببين:

أحدهما: أنهم في التاريخ إنما يؤخرون<sup>(٣)</sup> بالليالي؛ لأنها أول الشهر الهلالي، وتدخل الأيام تبعاً، ولهذا لو نذر اعتكاف عشر ذي الحجة لزمه اعتكاف يوم النحر.

والثاني: أنه قد يجيء هذا في صفة المذكر بغير هاء لقول النبي ﷺ: «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال»<sup>(٤)</sup>، وقوله: «من هذه الأيام العشر»<sup>(٥)</sup>.

﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ٦﴾ .

(وقوله: ﴿جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ٦﴾ دل على أنهم جابوا الصخر: أي قطعوه) ا.هـ<sup>(٦)</sup>.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ٧﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ٨﴾ .

(قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ٧﴾ وَأَمَّا إِذَا

(١) البخاري (٢٤/٢ - ٢٥).

(٢) روي هذا عن بعض السلف كما في ابن جرير (١٦٩/٣٠).

(٣) كذا في الأصل، والصواب: يؤرّخون. (٤) مسلم (١١٦٤).

(٥) شرح العمدة - الحج (١/٣٨٠ - ٣٨١). (٦) مجموع الفتاوى (١٧/٨).



مَا أَبْتَلْتُهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾ كَلَّا ﴿١﴾ يقول: ما كل من وسعت عليه أكرمه، ولا كل من قدرت عليه أكون قد أهنته، بل هذا ابتلاء ليشكر العبد على السراء، ويصبر على الضراء، فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيراً له، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (١) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾ كَلَّا ﴿٢﴾، بين سبحانه أنه ليس كل من ابتلاه في الدنيا يكون قد أهانه، بل هو يبتلي عبده بالسراء والضراء، فالمؤمن يكون صبوراً شكوراً، فيكون هذا وهذا خيراً له، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (٣) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا﴾، ولفظ: ﴿كَلَّا﴾ فيها زجر وتنبية: زجر عن مثل هذا القول، وتنبية على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله ﷻ مكرماً له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك؛ بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه. ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك. وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْتَلْتُهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾ كَلَّا ﴿٣﴾ أي ليس الأمر كذلك، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً، ولا [كل] من قدر عليه رزقه يكون

(١) مَرَّ تَخْرِيجِهِ. (٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٤٧ - ٤٤٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٧٤ - ٧٥)، والحديث مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٤) مجموع الفتاوى (١١/٣٠١).

مهاناً؛ بل قد يوسع عليه رزقه إملاءً واستدرجاً، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له، وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما له من ذنوب وخطايا، كما قال بعض السلف<sup>(١)</sup>: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»<sup>(٢)</sup> ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٠﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٥١﴾ كَلَّا ﴿٥٢﴾ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَنْكَرَ قَوْلَ الْمَبْتَلَى: رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَاللَّفْظَ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِثْلَ اللَّفْظِ الَّذِي أَنْكَرَهُ اللَّهُ مِنْ كَلَامِ الْمَبْتَلَى، لَكِنِ الْمَعْنَى مُخْتَلَفٌ. فَإِنَّ الْمَبْتَلَى اعْتَقَدَ أَنَّ هَذِهِ كِرَامَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَهِيَ النِّعْمَةُ الَّتِي يَقْصِدُ بِهَا [أَنْ] النِّعْمَ إِكْرَامَ لَهُ، وَالْإِنْعَامَ بِنِعْمِهِ لَا يَكُونُ سَبَباً لِعَذَابٍ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى ابْتَلَاهُ بِهَا ابْتِلَاءً، لِيَتَبَيَّنَ هَلْ يَطِيعُهُ فِيهَا أَمْ يَعْصِيهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِمَا سَيَكُونُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ، لَكِنِ الْعِلْمُ بِمَا سَيَكُونُ شَيْءٌ وَكَوْنُ الشَّيْءِ وَالْعِلْمُ بِهِ شَيْءٌ.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات، ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ ولهذا كانت خوارق العادات التي تسميها العامة «كرامة» ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقاً، بل في الحقيقة الكرامة هي: لزوم الاستقامة، وهي طاعة الله، وإنما هي مما يبتلي الله به عبده، فإن أطاعه بها رفعه، وإن عصاه بها خفضه، وإن كانت من آثار طاعة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلُوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِنَهُمْ مَّا عَدَّوْا ﴿١١﴾ لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن] ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٣﴾﴾

(إنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً صفاً)

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) وغيرهم، وقد صح من قول السلف.

(٢) مر تخريجه وفيه ضعف. (٣) مجموع الفتاوى (٥٣/١٦).

(٤) جامع الرسائل (٢/٣٥٢)، وانظر أيضاً المصدر نفسه (٢/٣٤٢).

صفاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿٢٢﴾ وزاد النبي ﷺ: وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عبادته فيغفر لمن يشاء من مذنبى الموحدين، ويعذب من يشاء، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨] ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (كذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿٢٢﴾ بمعنى أنه سيجيء؛ فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه، لأن ذلك فعل الربوبية فيستحسر العقل، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود، فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا معطلاً ولا مشبهاً، وارضى الله بما رضى به لنفسه، وقف عند خبره لنفسه مسلماً، مستسلماً، صدقاً، بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنفير) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطي: حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر وحضر إسحاق بن راهويه، فستل عن حديث النزول: صحيح هو؟ قال: نعم. فقال له بعض قواد عبد الله: يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ قال له إسحاق: أثبتته فوق حتى أصف لك النزول. فقال له الرجل: أثبتته فوق. قال له إسحاق: قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿٢٢﴾ فقال الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب، هذا يوم القيامة، فقال إسحاق: أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿١٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿١٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿١٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنِّي ﴿٢٠﴾.

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿١٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿١٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿١٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنِّي ﴿٢٠﴾، فخطبها بالرجوع إلى ربها، وبالمدخول في عبادته ودخول جنته وهذا تصريح بأنها مربوبة، والنفس هنا هي الروح التي تقبض فإنما تتنوع صفاتها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح - لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر - قال: «إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردّها حيث شاء -

(١) مجموع الفتاوى (٥/٦٠ - ٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٦٤)، وهو من كلام عمرو بن عثمان المكي.

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٣٧٥)، الاستقامة (١/٧٧ - ٧٨).

وفي رواية قبض أنفسنا حيث شاء<sup>(١)</sup>» ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

(ويقال النفوس ثلاثة أنواع:

وهي «النفس الأمارة بالسوء» التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

و«النفس اللوامة» وهي التي تذنب وتتوب، فعلها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر.

و«النفس المطمئنة» وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة.

فهذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (الأنفس ثلاث: أمارة، ومطمئنة، ولوامة فالأولون هم أهل [الأنفس الأمارة التي تأمرهم بالسوء. والأوسطون هم أهل] النفوس المطمئنة التي قيل فيها: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٧٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٨٠﴾».

[والآخرون هم] أهل النفوس اللوامة: التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه، وتتلوم تارة كذا، وتارة كذا، أو تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهؤلاء يرجى أن يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حَلُوطًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر - اللذين أمر المسلمون بالاعتداء بهما، كما قال ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»<sup>(٤)</sup> - أقرب عهداً

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٢٥).

(١) البخاري (٥٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٩/٢٩٤).

(٤) الترمذي (٣٦٦٣) وابن ماجه (٩٧) وأحمد (٥/٣٩٩) والحميدي (٤٤٩) والحديث حسن أو صحيح.

بالرسالة وأعظم إيماناً وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب وأثبت في الطمأنينة، لم تقع فتنة، إذ كانوا في [حكم] القسم الوسط.

ولما كان في آخر خلافة عثمان وفي خلافة علي [عليه السلام] كثر القسم الثالث، فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاية وبعض الرعايا، ثم كثر ذلك بعد، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى والعصبية في الطرفين، وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن معه الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق [من الأخرى] فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه، في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويثبتته على الهدى والتقوى ولا يتبع الهوى) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة البلد

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ .

(وكذلك روى الواقدي عن أبي برزة قال: في نزلت هذه الآية ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ أخرج عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام) ١.هـ<sup>(١)</sup>.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ .

(قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة، وهذه المكابدة تقتضي قوة صاحبها، وكثرة تصرفه واحتياله، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ فهذا الإنسان من جنس أولئك الأمم، ومن جنس الذين قال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة] له قوة يكابد بها الأمور، وكل أهلكه أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله؟ ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد، فيعلم ما فعل؟

والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء؛ بل بهما يحصل كل شيء، وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد؛ فإنه إذا كان قادراً أمكن الجزاء، وإذا كان عالمياً أمكن الجزاء فبالعدل يقدر ما عمل ومن لم يكن قادراً لم يمكنه الجزاء، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه، والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل إن جزاه بلا علم كان ظالماً معتدياً، فلا بد له من العلم بما فعل.

ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها، ليكون عملهم بعلم<sup>(٢)</sup> ذكر أنه خلق الإنسان في كبد

(٢) بياض في الأصل.

(١) الصارم المسلول (١٤٠).

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟. ولن لنفي المستقبل، يقول: أيحسب أن لن يقدر عليه في المستقبل أحد، ولهذا كان ذاك الخائف من ربه، الذي أمر أهله بإحراقه وذرايته يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة، فقال: «لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين»<sup>(١)</sup>.

وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها، كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال النبي ﷺ لما نزلت: «أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمُ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال: (هاتان أهون)<sup>(٢)</sup> وذلك لأنه تكلم في ذكر القدرة ونوع المقدور، كما يقول القائل: أين تهرب مني؟ أنا أقدر أن أمسكك.

وكذلك في العلم بالرؤية، كقوله هنا: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ وقوله تعالى في الذي ينهى عبداً إذا صلى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ [القمر] وأمثال ذلك) ١. هـ.<sup>(٣)</sup>

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً فعبّر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم إلا بهما) ١. هـ.<sup>(٤)</sup>

قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى:

﴿قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾﴾ الهداية محلها القلب، وهذه الأعضاء الثلاثة التي هي دائمة الحركة والكسب، إما للإنسان وإما عليه، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب،

(١) البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦). (٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٦/١٣ - ٣١٨). (٤) مجموع الفتاوى (٣٣٤/٧).

وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة، فإن السكون أغلب، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه، وهذه الثلاثة التي يروى عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال: من كان صمته فكراً، ونطقه ذكراً، ونظره عبرة<sup>(١)</sup> - وفي حديث عند ابن أبي حاتم<sup>(٢)</sup> في صفة النبي ﷺ أنه كان كثير الصمت، دائم الفكر، متواصل الأحزان فالصمت والفكر للسان والقلب، وأما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فإن ذلك منهى عنه ولم يكن من حاله، وإنما أراد به الاهتمام والتيقظ لما يستقبله من الأمور، وهذا مشترك بين القلب والعين.

وفيه أيضاً في الصحيحين<sup>(٣)</sup> حديث ابن عباس أنه كان إذا قام من الليل يصلي ينظر إلى السماء، ويقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران.

فيجمع بين الذكر والنظر والفكر، فالنظر أي نظر القلب ونظر العين والذكر أيضاً لا بد مع ذكر اللسان من ذكر القلب.

ولما كان النظر مبدأ والذكر منتهى؛ لأن النظر يتقدم الإدراك، والعلم والذكر يتأخر عن الإدراك والعلم، ولهذا كان المتكلمة في النظر المقتضى للعلم، وكان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر، وختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاهر.

وذكر سبحانه اللسان والشفيتين؛ لأنهما العضوان الناطقان، فأما الهواء والحلق والنطق واللهاوت والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك، فأما اللسان والشفتان فمنفصلة، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع: الباء، والفاء، والميم، والواو.

(١) كذا في الأصل دون جواب الشرط.

(٢) لا أدري هل يعني به هذا أم (أبي حاتم ابن حبان) والحديث المقصود في صفة النبي هو حديث هند بن أبي هالة المعروف والذي رواه الترمذي في شمائله، والطبراني وابن أبي عاصم في «الأحاديث المثاني» والبيهقي في سننه وشعبه وابن سعد في طبقاته.  
ولم أجده عند ابن أبي حاتم، وإنما وجدت عند أبي حاتم ابن حبان في الثقات (٢/١٤٥ - ١٤٧).

(٣) مرّ تخريجه.



فأما الباء والفاء فهما الحرفان السببيان، فإن الباء أبداً تفيد الإلصاق والسبب، وكذلك الفاء تفيد التعقيب والسبب، وبالأَسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض.

وأما الميم والواو فلهما الجمع والإحاطة، ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين في الأنواع الخمسة: ضميري الرفع والنصب المتصلين والمنفصلين، وضمير الخفض في مثل قوله: (أنتم) و(علمتم) و(إياكم) و(علمكم) و(ربكم) وضمير لجمع الغائبين في الأنواع الخمسة أيضاً والمضمر أيا كان، إما متكلم أو مخاطب أو غائب، واحد أو اثنان أو جمع، مرفوع أو منصوب، أو مجرور، فقد أحاطت بالجميع مطلقاً، أما الجمع المطلق فبنفسها، وأما الجمع المقدر باثنين فزيادة علم التثنية، وهو الألف في مثل أنتما وعلمتما، وكذلك الباقي.

ولهذا زيدت الواو في الجمع المطلق ف قيل عليهموا، وأنتموا، كما زيدت الألف في التثنية، ومن حذفها حذفها تخفيفاً، ولأن ترك العلامة علامة، فصارت الميم مشتركة، ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو.

وأما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا ونحوها، وأما المتصلة مثل إياكم وهم، فعلى اللغتين، فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل، والياء تمام المؤنث: صارت للمؤنث مطلقاً في جميع أحواله، لأنه تلو المذكر، والمفرد مذكرة ومؤنثة قبل المثني والمجموع فإن المفرد قبل المركب، ثم الألف صارت علم التثنية مطلقاً في المظهر والمضمر كما أن الواو علم لجمع المذكر، وجعل الياء علمي النصب والجر في المظهر من المثني والمجموع، لأن المظهر قبل المضمر وأقوى منه، فكانت أحق أن تكون فيه من الألف، فحين كان أقوى كانت الواو وحين ما كان أوسط كان الياء.

وأما الجموع الظاهرة فالواو هي علم الجمع المذكر الصحيح، كما أن الألف علم التثنية، ولهذا ينطق بها حيث لا إعراب، لكن في حال النصب والخفض قلبتا يائين لأجل الفرق؛ وذلك لأن الأسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب في جميع العربية، وذلك لأن الواو أقوى حروف العلة، والضممة بعضها، وهي أقوى الحركات، لما فيها من الجمع، وكونها آخرأ، فجعلت للجمع والألف أخف حروف العلة، فجعلت للثنتين لأن الياء كانت قد صارت للمؤنث في المفرد المرفوع الذي هو

الأصل في قولك<sup>(١)</sup>: وجاءت الميم في مثل اللهم إشعار بجميع الأسماء، وذلك حرف الشفة لما كان جامعاً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى متنهاها بمنزلة الخاتم الآخر، الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعاً لقوى الحروف فجعل جامعاً للأسماء مظهرها ومضمورها وجامعاً بين المفردات والجمال، فالواو والفاء عاطفان، والفاء رابطة جملة بجملة.

ولما كانت النون قريبة من الفيهة<sup>(٢)</sup> فهي أنفية جعلت لجمع المؤنث، لأنه دون جمع المذكر، وثنى العينين والشفيتين لأن العينين هما ريئة القلب، وليس من الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿وَنَقَلْبُ أَشَدَّتْهُمُ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات] ﴿نَقَلْبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ﴾ [النور: ٣٧] ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ولأن كليهما له النظر، فنظر القلب الظاهر بالعينين، والباطن به وحده، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه<sup>(٣)</sup>.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٦﴾﴾

(قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٦﴾﴾ قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر، وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال، وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة<sup>(٤)</sup>، أي فطرناه على ذلك، وعرفناه إياه، والجميع واحد، والنجدان الطريقان الواضحان، والنجد المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العالين، لكن الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم، ويعرفونه بعقولهم) ا.هـ<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: (وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٦﴾﴾ قال: الشقاوة والسعادة.

- (١) بياض الأصل.
- (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «الشفهية» لأنها مخرج الواو والفاء والباء والميم التي كان الحديث عنها أنفأ.
- (٣) مجموع الفتاوى (١٦/٢٢١ - ٢٢٥).
- (٤) الأقوال عن علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد عند ابن جرير (٣٠/١٩٩ - ٢٠٠).
- (٥) مجموع الفتاوى (١٠/٥٨٠ - ٥٨١).

وقد قال هو وجماهير السلف: ﴿وَهَدَيْتَهُ التَّجَلِّيْنَ﴾: أي الخير والشر، رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود، ثم قال: وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس في إحدى<sup>(١)</sup> وشقيق بن سلمة، وأبي صالح، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وشرحبيل بن سعيد، وابن سنان الرازي، والضحاك، وعطاء الخراساني، وعمرو بن قيس الملائي، نحو ذلك، وروى عن محمد بن كعب القرظي قال<sup>(٢)</sup>: الحق والباطل) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (قد قيل في قوله: ﴿وَهَدَيْتَهُ التَّجَلِّيْنَ﴾ أي بينا له طريق الخير والشر، وهو هدى البيان العام المشترك، وقيل: هدينا المؤمن لطريق الخير، والكافر لطريق الشر؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى، كما جعل أولئك البيان إلهاماً) ١. هـ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾.

(والرحمة ممدوحة: وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾) ١. هـ<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ فلا بد أن يصبر وأن يرحم، وهذا هو الشجاعة والكرم) ١. هـ<sup>(٦)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ وهذا أعلى من ذاك، وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره، وهذا ضد الذي خلق هلوياً إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة، ولا صبر عند المصيبة) ١. هـ<sup>(٧)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾، وفي الأثر، أفضل الإيمان: السماحة والصبر<sup>(٨)</sup>) ١. هـ<sup>(٩)</sup>.

- (١) بياض بالأصل وتقديره (الروائتين) وهذا الكلام عند ابن أبي حاتم وهذه طريقته.  
 (٢) هذا لعله عند ابن أبي حاتم ولم أجده لا في «الدر» ولا في «ابن كثير»، ونقل عنه القرطبي قولاً غير ذلك والله أعلم.  
 (٣) مجموع الفتاوى (١٦/١٤٣).  
 (٤) مجموع الفتاوى (١٥/٩٩).  
 (٥) مجموع الفتاوى (٦/١١٧).  
 (٦) مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٤).  
 (٧) مجموع الفتاوى (٧/٢٦٤).  
 (٨) مرّ تخريجه.  
 (٩) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٩١).

وقال رحمه الله: (وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَاصُوا بِالصَّبْرِ وَوَاصُوا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها، فإن القسمة أيضاً رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم، كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر: كأهل الضعف واللين، مثل كثير من النساء ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في صفة المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد، فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحم الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(١)</sup> وقال: «من لا يرحم لا يرحم»<sup>(٢)</sup>، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»<sup>(٣)</sup> والله أعلم، انتهى (١.هـ)<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري (١٢٨٤)، مسلم (٩٢٣). (٢) البخاري (٥٩٩٧)، مسلم (٢٣١٨).

(٣) أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) أحمد (١٦٠/٢) والحاكم (١٥٩/٤) والحديث صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى (٣٦/١١).

## سورة الشمس

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ١﴾ .

(وقال: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ١﴾ أي تبعها) ا. هـ (١).

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَّهَا ٥ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ .

(ومنه قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَّهَا ٥ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ على القول الصحيح إنها اسم موصول، والمعنى: وبانيها، وطاحيها، ومسويها [و] لما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ١﴾ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّنَهَا ٧﴾ [الشمس] - أخبر ب(مَنْ)، لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتركيز والتدسية قد ذهب في الدنيا.

فالقسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا بانيها، ولا مطحية إلا بطاحيها، ولا مسواة إلا بمسويها، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزمًا لذلك العمل.

ونحو ذلك هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٢﴾ [الليل] ا. هـ (٢).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨﴾ .

(وفي صحيح [مسلم] (٣) من حديث أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟، فقلت: بل شيء قضى عليهم [ومضى عليهم]، قال [فقال]: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٥٩٦ - ٥٩٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٧٠).

(٣) مسلم (٨/٤٨ - ٤٩ - النووي).

ذلك فرعاً شديداً. وقلت: كل شيء خَلَقُ الله، ومُلْكُ يده، فلا يُسألُ عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك. إن رجلين من مُزَيِّنَةِ أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشياء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به [نبيهم] وثبتت الحجة عليهم؟ قال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ ا. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ على قول الأكثرين، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها، والتقوية تقواها، فالإلهام عنده هو البيان بالأدلة السمعية والعقلية.

وأهل السنة يقولون: كلا النوعين من الله، هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص، وإن كان قد سماه إلهاماً كما سماه هدى، كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وكذلك قد قيل في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿٦﴾﴾ [البلد] أي بينا له طريق الخير والشر، وهو هدى البيان العام المشترك. وقيل: هدينا المؤمن لطريق الخير، والكافر لطريق الشر؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى، كما جعل أولئك البيان إلهاماً) ا. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة ملك، وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوى، والأمر لا بد أن يقترن به خير) ا. هـ<sup>(٣)</sup>.

### قال ابن القيم:

(قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً، فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره، ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد

(٢) مجموع الفتاوى (٩٨/١٥ - ٩٩).

(١) الاستقامة (١٧٢/١ - ١٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٢٩/١٧).

يكون مذموماً، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا يَبْرَأَنَّآ إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [القلم] وقال تعالى: ﴿يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤] فهذا اللوم غير محمود) ا. هـ<sup>(١)</sup>.

### سئل شيخ الإسلام:

(عن قوم قد خصوا بالسعادة، وقوم قد خصوا بالشقاوة، والسعيد لا يشقى والشقي لا يسعد، وفي الأعمال لا تراد لذاتها، بل لجلب السعادة، ودفع الشقاوة وقد سبقنا وجود الأعمال، فلا وجه لإتعايب النفس في عمل، ولا كفها عن ملذوذ، فإن المكتوب في القَدَمِ واقع لا محالة، بينوا ذلك؟؟)

فأجاب رحمته الله: الحمد لله.

هذه «المسألة» قد أجاب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير حديث، ففي الصحيحين عن عمران بن حصين قال: «قيل يا رسول الله! أَعْلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له» وفي رواية البخاري «قلت: يا رسول الله كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له» رواه مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أم فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ذلك ظلماً. قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال: يرحمك الله إنني لم أرد بما سألتك إلا لأجود<sup>(٢)</sup> عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله! رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بل شيء قضى عليهم، ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَتَقَرَّبْ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَالْهَمَّهَا بُجُورَهَا وَتَقَوَّاهَا ﴿٨﴾﴾».

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٩).

(٢) كذا في الأصل، وصوابها: «لأخزر» كما في الحديث، ومعناها: لأمتحن عقلك وفهمك.

وروى مسلم في صحيحه عن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: جاء سراقه بن مالك بن جعشم فقال: «يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت: عما قال؟ فقال: اعملوا فكل ميسر» وفي لفظ آخر «قال: رسول الله ﷺ كل عامل ميسر بعمله»<sup>(١)</sup> ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(١)</sup>.

(فإن التزكي هو التطهر والترك بترك السيئات الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(١)</sup> ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة. والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين - إزالة الشر، وزيادة الخير. وهذا هو العمل الصالح، وهو الإحسان) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(١)</sup> وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

(في «تزكية النفس» وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(١)</sup> وَذَكَرَ أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

قال سفيان بن عيينة وقتادة<sup>(٤)</sup> وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال أبو الفرج<sup>(٥)</sup> معنى زكاها: طهرها من الذنوب وأصلحها بالطاعة، وقيل: قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله، وهذا قول الفراء والزجاج وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس<sup>(٦)</sup> وهو منقطع و[ليس] هو مراد من الآية؛ بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنى.

أما «اللفظ» فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على (مَنْ) فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على (مَنْ) وهذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه، [وقد أفلح من خاف منه].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧٢/٨ - ٢٧٣).

(٤) ابن جرير (٢١١/٣٠).

(٦) ابن جرير (٢١١/٣٠).

(١) مسلم (٢٦٤٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٨).

(٥) زاد المسير (٩/١٤١).



وأما إذا كان المعنى: قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على (مَنْ) فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (مَنْ) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (مَنْ) لا ضمير الفاعل ولا المفعول. فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم! لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب. وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها. فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة؛ بل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٦) فالجملة صفة (مَنْ) لا صفة لها.

ولا قال أيضاً: قد أفلحت النفس التي زكاها؛ فإنه لو قيل ذلك وجعل في (زكاها) ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا: التقدير (قد أفلح من زكاها) هي النفس التي زكاها. وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على (مَنْ) وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل: (قد أفلح) ولم يقل أفلحت، قيل لهم: هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة وإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل [﴿وَمَنْ يَفْتَنَنَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَعَلَّ صَالِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، فإن قوله (منكن) دل على أن المراد النساء، فقبل تعمل. وكذا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ونحو ذلك.

وأما هنا فليس في لفظ (مَنْ) وما بعدها ما يدل به النفس المؤنثة [فإنه لم يقل: قد أفلحت، ولا قال: قد أفلح من النفوس مَنْ زكاها، وقد تقدمها قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨)، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٦) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٩) فتقدم ما يصح عود ضمير المؤنث إليه، ولم يتقدم دليل على عوده إلى غير ذلك]، فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإن مثل هذا مما يسان كلام الله ﷻ عنه، فلو قدر احتمال عود ضمير (زكاها) إلى نفس وإلى (مَنْ) مع أن لفظ (من) لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر، لعدم دلالة على التأنيث، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى ما

لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصاً من جهة المعنى؟! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور. ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا: أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيثها، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ (١) ﴿فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهى، ولا ترغيب ولا ترهيب. والقرآن إذا أمر أو نهى، لا يذكر مجرد «القدر» فلا يقول: من جعله الله مؤمناً؛ بل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) [المؤمنون] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٣) [الأعلى] إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلاً فكيف بكلام الله؟ ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد، والمدح والذم [والتخصيص<sup>(١)</sup> والترهيب]، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم: إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيتته، وأما في معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم. كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا﴾ الآية [النور: ٢١]، فهذا مناسب. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٤) وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى.

والمقصود «ذكر التزكية» قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا﴾ الآية [النور: ٣٠]. وقال: ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] وقال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٧] وقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ﴾ (٥) [عبس].

(وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع، وزكا المأل إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يُزال ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر [ومن لم يترك الشر لا يكون زاكياً البتة فإن الشر] يدنس النفس ويدسيثها قال الزجاج<sup>(٢)</sup>: (دساها) جعلها (ذليلة حقيرة)<sup>(٣)</sup> خسيصة وقال الفراء: دساها؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة: أي أخفاها بالفجور والمعصية، فالفاجر بارتكاب الفواحش دس نفسه؛ أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد

(١) لعلها: «التحضيض».

(٢) زاد المسير (٩/١٤٢).

(٣) في المطبوع في زاد المسير (قليلة) وفي (معاني القرآن) ما يوافق زاد المسير (٥/٣٣٢).

العرب تنزل الربى لشهر أنفسها، واللثام تنزل الأطراف والوديان) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ۝٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾. وضمير التأنيث في «جلاها» و«يغشاها» لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس، وأن الليل يغشاها، و«التجلية» الكشف والإظهار، و«الغشيان» التغطية واللبس، ومعلوم أن الليل والنهار ظرفا الزمان، والفعل إذا أضيف إلى الزمان فليل هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد، أو يبرد أو ينبت الأرض، ونحو ذلك، فالمقصود أن ذلك يكون فيه، لما يوصف الزمان بأنه عصيب، وشديد، ونحس، وبارد، وحر، ورطب ومكروه - والمراد وصف ما فيه، فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به - كل شيء بحسبه.

فالنهار يجلي الشمس، والليل يغشاها، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار، ومغيبها سبب الليل، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١﴾ فأضاف الضحى إليها، والضحى يعم النهار كله، كما قال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٧﴾ رَفَعَ سَعَتَهَا سَوْنَهَا ۝٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٩﴾ [النازعات] وقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ۝٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ فَأَلَمَّهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾.

فقد قيل: إن «ما» مصدرية، والتقدير: والسماء وبناء الله إياها، والأرض وطحو الله إياها، ونفس وتسوية الله إياها، لا بد من ذكر الفاعل في [الجملة]<sup>(٢)</sup>، لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافاً إلى الفعل فقط، فيقال «وبناها» لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿وَمَا طَحَّهَا﴾ فإن الفعل لا بد له من فاعل في الجملة، ومفعول أيضاً. فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول، لكن إذا كانت مصدرية كانت (ما) حرفاً ليس فيها ضمير، فيكون ضمير الفاعل في (بناها) عائداً على غير مذكور بل إلى معلوم، والتقدير: والسماء وما بناها الله وهذا خلاف الأصل. وخلاف الظاهر.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٢٥ - ٦٢٩)، والزيادات ما بين [ ] من نسخة طبعة مستقلة بها زيادات.

(٢) من إضافات (عبد الصمد).

والقول الثاني: أنها موصولة، والتقدير: الذي بناها، والذي طحاها، و(ما) فيها عموم وإجمال - يصلح لما لا يعلم، ولصفات من يعلم، كقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١] ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [٢] ﴿[الكافرون] وقوله: ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وهذا المعنى يجيء في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً، فإن القسم بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل، وأيضاً فالأقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة، وغير الفاعلة يقسم بنفس الفعل، كقوله: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ [١] ﴿فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا﴾ [٢] ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ [٣] ﴿[الصفات] وكقوله: ﴿وَالنَّزْعَتِ﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالْمُرْسَلَتِ﴾ [المرسلات: ١] ونحو ذلك.

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات، وتارة بربها وخالقها، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل] وتارة يقسم بها وبربها.

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله، وأقسم بمخلوق دون فعله، فأقسم بفاعله.

فإنه قال: ﴿وَأَشْمِينَ وَضَحْنَهَا﴾ [١] ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا﴾ [٢] ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ [٣] ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّهَا﴾ [٤] فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار، وآثارها وأفعالها، كما فرق بينهما في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] وقال: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فإن بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان.

وقال: ﴿وَأَشْمِينَ وَضَحْنَهَا﴾ [١] ولم يقل: (ونهارها) ولا (ضياءها) لأن (الضحى) يدل على النور والحرارة جميعاً، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد.

ثم أقسم بالسماء والأرض، وبالنفس، ولم يذكر معها فعلاً، فذكر فاعلها، فقال «وما بناها» «وما طحاها» و«نفس وما سواها» فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس لأنها تفعل البر والفجور، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته. لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [٧] ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [٨]

فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي [هو] <sup>(١)</sup> أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس، والقمر، والليل، والنهار، بطريق الأولى والأخرى.

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس، والقمر، والليل، والنهار.

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفوس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار.

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات، وبأعيانها، وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم.

وختم القَسَمَ بالنفس التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها.

وهو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور (و) <sup>(٢)</sup> بين انقسام الأفعال إلى الخير والشر، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب، سعيد وشقي، وهذا يتضمن الأمر والنهي، والوعد والوعيد، فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه، وعلى القدرية المشركية الذين يبطلون أمره ونهيه ووعده ووعيده، احتجاجاً بقضائه وقدره.

وقد قيل في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝٢﴾ إن الضمير عائد إلى (الله) أي (قد أفلح من زكاها الله، وقد خاب من دساها الله) وهذا مخالف للظاهر، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن، إذ كان الأحسن قد أفلحت من زكاها الله، وقد خابت من دساها، وهذا ضعيف.

وأيضاً فقوله: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ بيان للقدر، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة.

(١) من إضافات (عبد الصمد).

(٢) إضافة من صاحب المجموع، ولعل حذفها أنسب، لأن الكلام الأول لم يتم معناه.

ولهذا لم يذكر عن النبي ﷺ في إثبات القدر إلا هذه الآية دون الثانية، كما في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشياء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما سيتقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال. فقال: [أ] فلا يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزع من ذلك فزعاً شديداً وقلت: [كل شيء] خلق الله وملك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: يرحمك الله: إنني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك. فإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله؟ رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشياء قضي عليهم ومضى فيهم [من قدر قد سبق، أو فيما يتقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم].

فقال: (لا) بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله [سورة] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾<sup>(١)</sup> فبين النبي ﷺ أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾.

والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه، وهذا إنما تنكره غالبية القدرية، وأما [الذي]<sup>(٢)</sup> في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ، فإن القدرية المجوسية تنكره.

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة، ولهذا جعله النبي ﷺ مصدقاً له، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى - ولم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الإبليسية، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد كما تقوله القدرية المشركية - [ف]<sup>(٣)</sup> الإقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر، ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال، ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد وينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك.

(١) مرّ تخريجه.

(٢) بياض في الأصل وما بين [ ] من تقدير (عبد الصمد).

(٣) يقتضيها السياق (عبد الصمد).

الوجه الثاني: أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد، وأنه الملهم الفجور والتقوى، كان ذلك من جملة مصنوعاته، والشبهة التي عرضت للقدرية - التي سأل المزيان للنبي ﷺ - إنما هي في أعمال العباد التي عليها الثواب والعقاب خاصة، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده، وإنما أنكر من أنكر منهم إذا اشتبه أمر أفعال العباد.

وهؤلاء يقولون إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد والسعادة والشقاوة، فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون، لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه، بل يكون ضرراً عليه، مستقبح عندهم، وقد حكى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة، وقالوا: يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله، خلافاً للمعتزلة، لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك وأكثرهم لا يخالف في ذلك، وإنما يخالف فيه طائفة منهم.

فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها وتقواها كان ذلك من جملة مفعولاته، فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده، كما لا شبهة عندهم في تقديره لما يخلقه من الأعيان والصفات.

وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ آخر، ليس مأخذهم أمر الصفات.

الوجه الثالث: أنه قد كان ألهم الفجور والتقوى، وهو خالق فعل العبد، فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله، والإرادة مستلزمة لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول.

وإذا كان خلقه للشيء مستلزماً لعلمه به فذلك أصل القدر السابق وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه، وهذا بين في جميع الأشياء - في هذا وغيره.

فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم إن [لم]<sup>(١)</sup> يميز بين الفجور والتقوى

(١) لا يوجد في الأصل (لم) (عبد الصمد).

ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور. والذي يريد أن يفعله هذا تقوى، لم يصح منه إلهام الفجور والتقوى، فتظهر بهذا حسن ما ذكره النبي ﷺ من تصديق الآية لما أخبر به النبي ﷺ من القدر السابق.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) كما يدل على القدر فيدل على الشرع، فإنه لو قال (فألهمها أفعالها) كما يقول الناس (خالق أفعال العباد) لم يكن في ذلك تمييز بين الخير والشر، والمحجوب والمكروه، والمأمور به والمنهي عنه، بل كان فيه حجة للمشركين، - من المباحية والجبرية - الذين يدفعون الأمر والنهي، والحسن والقبح، فإنه خلق أفعال العباد، فلما قال: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) كان الكلام تفريقاً بين الحسن المأمور به والقبيح المنهي عنه، وأن الأفعال منقسمة إلى حسن وسيء، مع كونه تعالى خالق الصنفين.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع - يذكر المؤمن والكافر وأفعالهما الحسنة والسيئة (و) (١) وعده ووعيده، ويذكر أنه خالق الصنفين، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] ونحو ذلك.

وهذا الأصل ضلت فيه الجبرية والقدرية.

فإن القدرية المجوسية قالوا: إن الأفعال تنقسم إلى حسن وقبيح لصفات قائمة بها، والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه.

فقال الجبرية: بل العبد مجبور على فعله، والجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التي يخلقها الله وامتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب وإذا كان مجبوراً يمتنع أن يكون الفعل حسناً أو قبيحاً لمعنى يقوم به.

وهذه طريقة أبي عبد الله الرازي ونحوه من الجبرية النافين لانقسام في نفسه إلى حسن وقبيح، والأولى طريقة أبي الحسين البصري (٢) ونحوه من القدرية القائلين بأن

(١) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

(٢) هو محمد بن علي الطيب، أبو الحسين البصري، أحد أئمة المعتزلة ولد في البصرة، وسكن بغداد وتوفي بها عام (٤٣٦هـ) قال الخطيب البغدادي له تصانيف وشهرة. من كتبه: «المعتمد في أصول الفقه، وتصفح الأدلة، وغرر الأدلة، وشرح الأصول الخمسة كلها في الأصول وكتاب في الإمامة، وشرح أسماء الطبيعي».



فعل العبد لم يحدثه إلا هو، والعلم بذلك ضروري أو نظري، وأن الفعل ينقسم في نفسه إلى حسن وقيح، والعلم بذلك ضروري.

وأبو الحسين هو إمام المتأخرين من المعتزلة، وله من العقل والفضل ما ليس لأكثر نظرائه، لكن هو قليل المعرفة بالسنن، ومعاني القرآن، وطريقة السلف.

وهو وأبو عبد الله الرازي في هذا الباب في طرفي نقيض، ومع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر، فأبو الحسين يدعي أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري، والرازي يدعي [أن العلم]<sup>(١)</sup> بأن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده، ويمتنع عند عدمه ضروري كذلك، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري.

ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة، وليس الأمر كذلك، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ومصيب في ذلك، وإنما وقع غلظه في إنكاره ما مع الآخر من الحق، فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى.

ولهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة، كما ادعاه أبو الحسين من الضرورة؟ لا يقولون: ليس بفاعل حقيقة، أو ليس بفاعل، كما يقوله المائلون إلى الجبر مثل طائفة أبي عبد الله الرازي، يقولون مع ذلك: إن الله هو الخالق لهذا الفاعل ولفعله، وهو الذي جعله فاعلاً حقيقة، وهو خالق أفعال العباد، كما يقوله أهل الإثبات من الأشعرية - طائفة الرازي وغيرهم، لا كما يقوله القدرية - مثل أبي الحسين وطائفته: إن الله لم يخلق أفعال العباد.

ولهذا نص الأئمة - كالإمام أحمد ومن قبله من الأئمة كالأوزاعي وغيره - على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيًا وإثباتًا، فلا يقال: «إن الله جبر العباد» ولا يقال: «لم يجبرهم» فإن لفظ «الجبر» فيه اشتراك وإجمال، فإذا قيل (جبرهم) [أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم، وإذا قيل (لم يجبرهم)]<sup>(٢)</sup> أشعر بأنهم

(١) سقط من الأصل (عبد الصمد).

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل (عبد الصمد).

يفعلون ما يشاءون بغير اختياره، وكلاهما خطأ، وقد بسطنا القول في هذا في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا أن هذين الفريقين اعتقدوا تنافي القدر والشرع، كما اعتقد ذلك المجوس والمشركون، فقالوا: إذا كان خالقاً للفعل امتنع أن يكون الفعل في نفسه حسناً له ثواب، أو قبيحاً عليه عقاب، ثم قالت القدرية: لكن الفعل منقسم، فليس خالقاً للفعل، وقالت الجبرية: لكنه خالق، فليس الفعل منقسماً.

ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالانقسام من جهة أمر الشارع ونهيه فقط، ويقولون: له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه، وينهى عما يشاء [لا] (١) لأجل معنى فيه، ويقولون في خلقه وفي أمره جميعاً: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وأما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربة الشارع إذا عاين الجبر، ويقولون ما يقوله المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن أقر بالشرع، والأمر والنهي، والحسن والقبح دون القدر وخلق الأفعال - كما عليه المعتزلة - فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس، وللمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر.

ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الأفعال وعموم الربوبية، وأنكر المعروف والمنكر، والهدى والضلال، والحسنات والسيئات، ففيه شبه من المشركين والصابئة.

وكان الجهم بن صفوان ومن اتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند، كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس - الفرس - والمجوس أرجح من المشركين.

فإن من أنكر الأمر والنهي، أو لم يقر بذلك، فهو مشرك صريح كافر - أكفر من اليهود والنصارى والمجوس - كما يوجد ذلك في كثير من المتكلمة والمتصوفة - أهل الإباحة ونحوهم.

ولهذا لم يظهر هؤلاء ونحوهم في عصر الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بالنبوة،

(١) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

وإنما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر والنهي والثواب والعقاب، فهم أقرب إلى الكتاب والسنة والرسول والدين من هؤلاء المعطلة للأمر والنهي، فإن هؤلاء من شر الخلق.

وأما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه، لكن يقولون: هذا فيه جهل وظلم، فإنه بتناقضه يكون جهلاً وسفهاً، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلماً.

وهذا حال إبليس، فإنه قال: ﴿بِمَا آغَوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فأقر بأن الله أغواه، ثم جعل ذلك عنده داعياً<sup>(١)</sup> يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم.

وإبليس هو أول من عادى الله، وطغى<sup>(٢)</sup> في خلقه وأمره، وعارض النص بالقياس ولهذا يقول بعض السلف: أول من قاس إبليس، فإن الله أمره بالسجود لآدم، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه، وامتنع من السجود، فهو أول من عادى الله، وهو الجاهل الظالم الجاهل بما في أمر الله من الحكمة، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطل الحق وغمط الناس.

ثم قوله لربه: ﴿فِيمَا آغَوَيْتَنِي لِأَقْدُنَّ﴾ [الأعراف: ١٦] جعل فعل الله - الذي هو إغواؤه له - حجة له، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره، وزعم منه أنه قبيح، فأنا أفعل القبيح أيضاً، فقاس نفسه على ربه، ومثل نفسه بربه.

ولهذا كان مضاهياً للربوبية، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: «إن إبليس ينصب عرشه على البحر، ثم يبعث سراياه، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة، فيجيء الرجل فيقول: ما زلت به حتى فعل كذا، ثم يجيء الآخر فيقول: ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته فيلتزمه ويدنيه منه ويقول: أنت أنت<sup>(٣)</sup>».

(١) في الأصل (دينياً) هكذا قدرها (عبد الصمد) ولعل الأصل (دينياً) وفيها معنى سليم فكأنما جعل إبليس مقتضى الإغواء دينياً في رقبته.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «وطعن».

(٣) مرّ تخريجه.

والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه، وأحسنوا في هذا القصد، فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون - من إبليس وجنوده - علواً كبيراً، حكم، عدل، لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد، وخلقه لها، وشمول إرادته لكل شيء، فناظروا إبليس وحزبه في شيء، واستحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى.

وهذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق، وهو الكلام الذي ذمه السلف، فإن صاحبه يرد باطلاً بباطل وبدعة ببدعة.

فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات فقرروا أن الله خالق كل شيء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، فضاق ذرعهم وعلمهم، واعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم ننكر محبة الله، ورضاه، وما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة، وننكر حكمته، ورحمته - فيجوز عليه كل فعل، لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الأفعال، وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد والوعيد رأساً، ومال هؤلاء إلى الإرجاء، كما مال الأولون إلى الوعيد، فقالت الوعيدية: كل فاسق خالد في النار، لا يخرج منها أبداً، وقالت الخوارج: هو كافر، وغالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة، ومن صرح بالكفر أنكروا الوعيد في الآخرة رأساً، كما يفعل طوائف من الاتحادية، والمتفلسفة، والقرامطة، والباطنية، وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكفر بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية.

وأما مقتصدو المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأن من أهل القبلة من يدخل النار، فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة، وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً أنا آخرهم»<sup>(١)</sup>.

لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة - علمها وعملها، فكلامهم في أصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية وغيرهم، فإن كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصر جداً، وكذلك هم مقصرون

(١) ذكره ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/١٤٣) والحديث لا يصح.

في تعظيم الطاعات والمعاصي. ولكن هم في أصول الدين أصلح من أولئك، فإنهم يؤمنون من صفات الله وقدرته وخلقه بما لا يؤمن به أولئك، وهذا الصنف أعلى.

فلهذا كانت المرجئة في الجملة خيراً من القدرية، حتى إن الإرجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم، بخلاف الاعتزال، فإنه ليس فيه أحد من فقهاء السلف وأئمتهم.

### فصل

فإذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق<sup>(١)</sup>، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد، وتارة بتظلم الرب، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها.

فقوله تعالى: ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ إيثبات للقدر بقوله: ﴿فَالْهَمَّهَا﴾، وإثبات لفعل العبد. بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والتمتية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقيح، والأمر والنهي، بقوله: ﴿فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وقوله بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ۗ﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۗ﴾ إيثبات لفعل العبد، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد - وهم المكذبون بالحق.

وأما المظلّمون<sup>(٢)</sup> للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ﴾ والتسوية: التعديل. فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها.

وذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله وطغى، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فإن الله ينتقم منه، ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتَسْفِيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً.

(١) في الأصل (الغلو) وقدرها عبد الصمد (الخلق) ويقصد به خلق أفعال العباد. والأصل فيه معنى صحيح أيضاً.

(٢) أي الذين ينسبونهم إلى الظلم أو يشتكون منه.

«فإن العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً»<sup>(١)</sup>.

ولهذا لما سأل عمران بن حصين أبا الأسود الدؤلي عن ذلك ليحزر عقله «هل يكون ذلك ظلماً؟ فذكر أن ذلك ليس منه ظلماً، وخاف من قوله: ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] وذكر حديث النبي ﷺ، واستشهاده بهذه الآية.

وقد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل إما أن يكونوا مكذبين لما أخبر به الرب من خلقه أو أمره، وإما أن يكونوا مظلمين له في حكمه، وهو سبحانه الصادق العدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام] فإن الكلام إما إنشاء وإما إخبار، فالإخبار صدق، لا كذب - والإنشاء - أمر التكوين، وأمر التشريع - عدل، لا ظلم، والقدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه وشرعه من أمر الدين، والإبليسية جعلوه ظالماً في مجموعهما، أو في كل منهما.

وقد ظهر بذلك أن المفترقين المختلفين من الأمة إنما ذلك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه وأخذهم باطلاً يخالفه، واشتراكهم في باطل يخالف ما جاء به الرسول، وهو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ قَضَّيْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسول نسوا حظاً مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء، واختلفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول، فأمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء.

وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة، وهذا شأن عامة الافتراق

(١) مرّ تخريجه.

والاختلاف في هذه الأمة وغيرها، وهذا من ذلك فإنهم اشتركوا [في<sup>(١)</sup>] أن كون الرب خالقاً لفعل العبد ينافي كون فعله منقسماً إلى حسن وقبيح، وهذه المقدمة اشتركوا فيها جدلاً من غير أن تكون حقاً في نفسها أو عليها حجة مستقيمة.

وهي إحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقبيح، فإنه اعتقد في «محصوله» وغيره على أن العبد مجبور على فعله، والمجبور لا يكون فعله قبيحاً، فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحاً.

وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسول - الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فإنهم نفوا قبح الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بإثبات القدر.

لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الأحكام إذا أقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل وجه، ولهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشرعية كالمشركين، وإن كان فيهم جزء من باطل المشركين.

لكن يوجد في المتكلمين والمتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حيثئذ بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب - إما قولاً، وإما حالاً وعملاً، وأكثر ما يقع ذلك في الأفعال التي توافق أهواءهم - يطلبون بذلك إسقاط اللوم والعقاب عنهم، ولا يزيدهم ذلك إلا ذماً وعقاباً - كالمستجير من الرمضاء بالنار -.

فإن هذا القول لا يطرد العمل به لأحد إذ لا غنى لبني آدم - بعضهم من بعض - من إرادة شيء والأمر به، وبغض شيء والنهي عنه، فمن طلب أن يسوي بين المحبوب والمكروه، والمرضي والمسخوط، والعدل والظلم، والعلم والجهل، والضلال والهدى، والرشد والغى، فإنه لا يستمر على ذلك أبداً، بل إذا حصل له ما يكرهه ويؤذيه فر إلى دفع ذلك، وعقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدي في ذلك.

فهم<sup>(٢)</sup> من أظلم الخلق في تفريقهم بين القبيح من الظلم والفواحش منهم ومن غيرهم، وممن يهوونه ومن لا يهوونه، واحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصومهم.

(١) ما بين [ ] من تقدير صاحب المجموع والكلام يستقيم بدونها.

(٢) في الأصل (فهو) (عبد الصمد).

وتجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر، فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله، وينسى نعمة الله عليه في إلهامه تقواه، وهذا من أظلم الخلق، كما قال أبو الفرج بن الجوزي: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري - أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل العدل ضد ذلك، إذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وأنه هو الذي كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ فَرِحُوا﴾ [آل عمران].

فاتبعوا أباهم حيث أذنب: ﴿فَلَمَّا قَسَتْ أَوْدَانُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ ذُنُوبًا كَانَتْ هِيَ الْقَوْلُ الْغَافِلِينَ﴾ [البقرة]. ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ويقول أحدهم «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي» كما قال النبي ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب [إلا أنت]»<sup>(١)</sup> وكما في الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه»<sup>(٢)</sup> ويقولون بموجب قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]»<sup>(٣)</sup>.

### قال ابن القيم رحمه الله<sup>(٤)</sup>:

ذكر سبحانه في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة، فقال شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية:

(١) مرّ تخريجه . (٢) سبق تخريجه .

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٢٢٦ - ٢٤٨).

(٤) وهو كلام لابن القيم لم ينقله صاحب (دقائق التفسير) ونقله صاحب (المجموع) وتفسيرات ابن تيمية لعبد الصمد ذكر ذلك ابن القيم في كتاب (التيبان في أقسام القرآن) وقد جمعت بفضل الله جميع أقوال شيخ الإسلام عند ابن القيم في مجلد وسيطع قريباً إن شاء الله .



هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط وغيرهم.

ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود، والشعراء، وغيرهما، فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها، وفي عاد - مع الشرك - التجبر، والتكبر، والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض، والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال، فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنوبهم - مع الشرك - عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً.

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون<sup>(١)</sup>.

## سورة الليل

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾﴾ .

(وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر وأجاب النبي ﷺ عن السؤال الوارد عليه، وهو ترك العمل لأجله، فأجاب ﷺ عن ذلك، ففي الصحيحين<sup>(١)</sup> عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد - أو قال - ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة» قال فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة - ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾﴾ إلى آخر الآيات، وفي رواية: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» قالوا يا رسول الله فقيم العمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا: اعملوا فكل ميسر لما خلق له - ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ الآية<sup>(٢)</sup> ١. هـ<sup>(٣)</sup> .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾﴾ .

(قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾﴾ أي الهدى إلينا هذا أصح الأقوال في

الآيتين) ١. هـ<sup>(٤)</sup> .

(١) البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧). (٢) البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥٢/٢ - ١٥٣). (٤) مجموع الفتاوى (٢٣٠/١٧ - ٢٣١).

## قال ابن القيم:

(سمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمته الله يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾ قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَفْتُنَىٰ﴾ [الليل] إلا معنى الوجوب، أي علينا بيان الهدى من الضلال. ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في «الحجر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث<sup>(١)</sup> ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

## وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(وأما آية الليل - قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ﴾ - فابن عطية مثلها بهذه الآية، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال: ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك، كما قال: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، ثم كل أحد يتكسب ما قدر له. وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان كذلك لم يوجد كافر.

(قلت): وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي - وذكره عن الزجاج<sup>(٣)</sup>. قال الزجاج: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال.

وهذا التفسير ثابت عن قتادة<sup>(٤)</sup>، رواه عبد بن حميد. حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ﴾، علينا بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. وكذلك رواه ابن أبي حاتم في تفسير سعيد، عن قتادة<sup>(٥)</sup> في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ﴾، يقول: على الله البيان - بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

(١) الآيات الثلاثة هي: آية النحل: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾، وآية الحجر ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ...﴾ والآية الثالثة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ...﴾.

(٢) مدارج السالكين (١٧/١ - ١٨). (٣) زاد المسير (١٥١/٩).

(٤) زاد المسير (١٤٩/٩). (٥) ابن جرير (٣٢٦/٣٠).

لكن قتادة ذكر أنه البيان الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، فتبين به حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

وأما الثعلبي، والواحدي<sup>(١)</sup>، والبغوي<sup>(٢)</sup>، وغيرهم، فذكروا القولين وزادوا أقوالاً آخر. فقالوا واللفظ للبغوي:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، يعني البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة. وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه.

وقال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد.

قال: وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، كقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]<sup>(٣)</sup>.

(قلت): هذا القول هو من الأقوال المحدثة التي لم تعرف عن السلف، وكذلك ما أشبهه. فإنهم قالوا: معناه بيدك الخير والشر، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول «والخير بيدك، والشر ليس إليك».

والله تعالى خالق كل شيء - لا يكون في ملكه إلا ما يشاء - والقدر حق. لكن فهم القرآن، ووضع كل شيء موضعه، وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر، هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقد ذكر المهدي الأقوال الثلاثة، فقال: إن علينا للهدى والضلال. فحذف<sup>(٤)</sup> قتادة المعنى: إن علينا بيان الحلال والحرام.

وقيل: المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى.

قلت: هذا هو قول الفراء، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول.

فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله. ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم. والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين.

(١) الواحدي (٤/٥٠٥).

(٢) البغوي (٤/٤٦٣).

(٣) كذا في الأصل.

(٤) إلى هنا انتهى قول البغوي (٤/٤٦٣).

وأما الثاني، فقد يقول طائفة: ليس على الله شيء - لا بيان هذا، ولا هذا. فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه، كما قال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول: إن عليه إرسال الرسل، وإن ذلك واجب عليه، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا.

وهذا يتعلق بأصل آخر، وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبه مشيئته وحكمته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده. وبسط هذا كله موضع آخر. ودلالة الآيات على هذا فيها نظر.

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً، وأنه أرشد بها إلى الطريق المستقيم، وهي الطريق القصد، وهي الهدى إنما تدل عليه - وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه.

لكن نشأت الشبهة من كونه قال «علينا» بحرف الاستعلاء، ولم يقل «إلينا» والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال «هذه الطريق إلى فلان»، وللمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول «طريقنا على فلان».

وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء. وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء.

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدَمَاً فَمَلَقِيهِ ۗ ﴾ [الانشقاق] وقال: ﴿ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۗ ﴾ [الغاشية]، أي إلينا مرجعهم، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ ﴾ [١٦] وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۗ ﴾ [١٦] ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ ۗ

[الأنعام] وقال: ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزَّرْنَا بِرِزْقٍ ۗ وَنَزَّرْنَا تُرْجَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿وإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نُوَفِّيكَ ۗ فَإِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس].

فأي سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه، لا بد له من لقاء الله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١].

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى، وهو الصراط المستقيم، هو الذي يسعد أصحابه، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته فيكون الله وليهم دون الشيطان. وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله. فلهذا قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾، ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴿النحل: ٩﴾﴾، ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر]. فالهدى، وقصد السبيل والصراط المستقيم، إنما يدل على عبادته وطاعته - لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان.

فالكلام تضمن معنى «الدلالة» إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم. بل المقصود ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله - ما الذي يدل على ذلك؟ فكأنه قيل: الصراط المستقيم يدل على الله - على عبادته وطاعته.

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون: «هذه الطريق على فلان» إذا كانت تدل عليه، وكان هو الغاية المقصود بها، وهذا غير كونها «عليه» بمعنى أن صاحبها يمر عليه. وقد قيل:

فهنَّ المنايا أي واد سلكته  
عليها طريقي أو عليَّ طريقها

وهو كما قال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله.

فالمقصود بالسبيل هو: الذي يدل ويوقع عليه، كما يقال: إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود، ونحو ذلك، وكما يقال «على الخبير سقطت». فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها، ويرمي نفسه عليها.

وأيضاً، فسالك طريق الله متوكل عليه. فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه.

فإذا قيل «عليه الطريق المستقيم» تضمن أن سالكه عليه يتوكل، وعليه تدل الطريق، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط، لا يعدل عن ذلك، إلى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف الاستعلاء دون حرف الغاية.

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم. فعليه الصراط المستقيم، وهو على صراط مستقيم - ﷺ عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والله أعلم) ا.هـ (١).

﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾

(وقوله: ﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ لا يخلو إما أن يكون المراد بالصُّلِّي نوعاً من التعذيب؛ كما قيل: إن الذي تصليه النار هو الذي تحيط به، وأهل القبلة لا تحرق النار منهم مواضع السجود، أو تكون ناراً مخصوصة) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ لا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر. فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة! أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» (٣). فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية) ا.هـ (٤).

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

(ومعصية من كذب وتولى، قال تعالى: ﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا) ا.هـ (٥).

- (١) مجموع الفتاوى (٢٠٩/١٥ - ٢١٦). (٢) منهاج السنة (٢٩٨/٥). (٣) مسلم (٢٩٩). (٤) مجموع الفتاوى (١٩٤/١٦ - ١٩٥). (٥) مجموع الفتاوى (٥٩/٧).

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾ ﴾ .

(وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، أعانه بنفسه وماله لله، فقال الله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾ ﴾ . ١. هـ<sup>(١)</sup> .

### وقال رحمه الله ردأ على الرافضة:

(قال الرافي: «وأما قوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٧﴾ ﴾، فإن المراد به أبو الدحداح حيث اشترى نخلة لشخص لأجل جاره، وقد عرض النبي ﷺ على صاحب النخلة نخلة في الجنة، فسمع أبو الدحداح، فاشتراها ببستان له ووهبها الجار، فجعل النبي ﷺ له بستاناً عوضها في الجنة» .

والجواب: أن يُقال: لا يجوز أن تكون هذه الآية مختصة بأبي الدحداح دون أبي بكر، باتفاق أهل العلم بالقرآن وتفسيره وأسباب نزوله، وذلك أن هذه السورة مكية باتفاق العلماء. وقصة أبي الدحداح كانت بالمدينة باتفاق العلماء، فإنه من الأنصار، والأنصار إنما صحبوه بالمدينة، ولم تكن البساتين - وهي الحدائق التي تسمى بالحيطان - إلا بالمدينة، فمن الممتنع أن تكون الآية لم تنزل إلا بعد قصة أبي الدحداح، بل إن كان قد قال بعض العلماء: إنها نزلت فيه، فمعناه أنه ممن دخل في الآية، وممن شمله حكمها وعمومها، فإن كثيراً ما يقول بعض الصحابة والتابعين: «نزلت هذه الآية في كذا» ويكون المراد بذلك أنها دلّت على هذا الحكم وتناولته، وأريد بها هذا الحكم.

ومنهم من يقول: بل قد تنزل الآية مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

فعلى قول هؤلاء يمكن أنها نزلت مرة ثانية في قصة أبي الدحداح، وإلا فلا خلاف بين أهل العلم أنها نزلت بمكة قبل أن يسلم أبو الدحداح، وقبل أن يهاجر النبي ﷺ.



وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في قصة أبي بكر. فذكر ابن جرير في تفسيره بإسناده عن عبد الله بن الزبير وغيره أنها نزلت في أبي بكر<sup>(١)</sup>.

وكذلك ذكره ابن أبي حاتم - والثعلبي - أنها نزلت في أبي بكر عن عبد الله وعن سعيد بن المسيب<sup>(٢)</sup>.

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: أعتق أبو بكر سبعة كلهم يعذب في الله: بلالاً، وعامر بن فهيرة، والنهدية، وابنتها، وزنيرة، وأم عميس، وأمة بني المؤمل. قال سفيان: فأما زنيرة فكانت رومية، وكانت لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقالوا: أعمتها اللات والعزى. قال: فهي كافرة باللات والعزى، فرد الله إليها بصرها. وأما بلال فاشتراه وهو مدفون في الحجارة، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. قال: وفيه نزلت: ﴿وَسَيَجْزِيهَا آلَاتَقَى﴾ إلى آخر السورة.

وأسلم وله أربعون ألفاً، فأنفقها في سبيل الله. ويدل على أنها نزلت في أبي بكر وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿وَسَيَجْزِيهَا آلَاتَقَى﴾، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلا بد أن يكون أتقى الأمة داخلاً في هذه الآية، وهو أكرمكم عند الله، ولم يقل أحد، إن أبا الدحداح ونحوه أفضل وأكرم من السابقين الأولين من المهاجرين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم. بل الأمة كلهم - سنيهم وغير سنيهم - متفقون على أن هؤلاء وأمثالهم من المهاجرين أفضل من أبي الدحداح، فلا بد أن يكون الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، فيهم.

وهذا القائل قد ادعى أنها نزلت في أبي الدحداح، فإذا كان القائل قائلين: قائلاً يقول: نزلت فيه، وقائلاً يقول: نزلت في أبي بكر، وكان هذا القائل هو الذي يدل القرآن على قوله. وإن قُدِّرَ عموم الآية لهما، فأبو بكر أحق بالدخول فيها من أبي الدحداح.

(٢) الدر المنثور (٦/٣٥٩).

(١) الطبري (٣٠/٢٢٨).

وكيف لا يكون كذلك، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال قط كمال أبي بكر»<sup>(١)</sup>! فقد نفى عن جميع مال الأمة أن ينفعه كنعف مال أبي بكر، فكيف تكون تلك الأموال المفضولة دخلت في الآية، والمال الذي هو أنفع الأموال له لم يدخل فيها؟!.

**الوجه الثاني:** أنه إذا كان الأتقى هو الذي يؤتي ماله يتزكى، وأكرم الخلق أتقاهم، كان هذا أفضل الناس. والقولان المشهوران في هذه الآية: قول أهل السنة أن أفضل الخلق أبو بكر، وقول الشيعة عليّ، فلم يجز أن يكون الأتقى الذي هو أكرم الخلق على الله واحداً غيرهما، وليس منهما واحد يدخل في الأتقى، وإذا ثبت أنه لا بد من دخول أحدهما في «الأتقى» وجب أن يكون أبو بكر داخلاً في الآية، ويكون أولى بذلك من عليّ لأسباب:

**أحدها:** أنه قال: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾. وقد ثبت في النقل المتواتر - في الصحاح وغيرها - أن أبا بكر أنفق ماله، وأنه مقدّم في ذلك على جميع الصحابة. كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقه، فقعده على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنه ليس من الناس أحدٌ أمّنٌ عليّ [في] نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدّوا عني كل خوخة في هذا المسجد إلا خوخة أبي بكر»<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: «إن أمّنّ الناس في صحبته وماله أبو بكر»<sup>(٣)</sup>. وفي البخاري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ مرتين فما أودى بعدها»<sup>(٤)</sup>.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟<sup>(٥)</sup>.

- |                 |                 |
|-----------------|-----------------|
| (١) مرّ تخريجه. | (٢) مرّ تخريجه. |
| (٣) مرّ تخريجه. | (٤) مرّ تخريجه. |
| (٥) مرّ تخريجه. |                 |

وعن عمر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي. فقال النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وجاء أبو بكر بماله كله. فقال له النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً» رواه أبو داود والترمذي وصححه<sup>(١)</sup>.

فهذه النصوص الصحيحة المتواترة الصريحة تدل على أنه كان من أعظم الناس إنفاقاً لماله فيما يرضي الله ورسوله.

وأما عليّ فكان النبي ﷺ يمونه لما أخذه من أبي طالب لمجاعة حصلت بمكة، وما زال عليّ فقيراً حتى تزوج بفاطمة وهو فقير. وهذا مشهور معروف عند أهل السنة والشيعه، وكان في عيال النبي ﷺ، لم يكن له ما ينفقه، ولو كان له مال لأنفقه، لكنه كان منفقاً عليه لا منفقاً.

السبب الثاني: قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ وهذه لأبي بكر دون عليّ، لأن أبا بكر كان للنبي ﷺ عنده نعمة الإيمان أن هداه الله به، وتلك النعمة لا يجزي بها الخلق، بل أجر الرسول فيها على الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [ص]، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

وأما النعمة التي يُجزي بها الخلق فهي نعمة الدنيا، وأبو بكر لم تكن للنبي ﷺ عنده نعمة الدنيا، بل نعمة الدين، بخلاف عليّ، فإنه كان للنبي ﷺ عنده نعمة دنيا يمكن أن تُجزي.

الثالث: أن الصديق لم يكن بينه وبين النبي ﷺ سبب يواليه لأجله، ويخرج ماله، إلا الإيمان، ولم ينصره كما نصره أبو طالب لأجل القرابة، وكان عمله كاملاً في إخلاصه لله تعالى، كما قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٢٥﴾ و﴿لَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾.

وكذلك خديجة كانت زوجته، والزوجة قد تنفق مالها على زوجها، وإن كان دون النبي ﷺ.

وعليّ لو قدر أنه أنفق لكان قد أنفق على قريبه، وهذه أسباب قد يُضاف الفعل إليها، بخلاف إنفاق أبي بكر، فإنه لم يكن له سبب إلا الإيمان بالله وحده، فكان من أحقّ المتّقين بتحقيق قوله: ﴿إِلَّا أَنْعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١٥)، وقوله: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا أَنْعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) استثناء منقطع، والمعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده نعمة يكافئه بذلك، فإن هذا من باب العدل الواجب للناس بعضهم على بعض، بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة، وهو واجب لكل أحدٍ على أحد، فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تُجزى لم يحتج إلى هذه المعاوضة، فيكون عطاؤه خالصاً لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه بها، فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة على ذلك.

وهذا الذي ما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى إذا أعطى ماله يتزكى في معاملته للناس دائماً يكافئهم ويعاوضهم ويجازيهم، فحين إعطائه ماله يتزكى، لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.

وفيه أيضاً ما يبين أن الفضل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجب من المعاوضات، كما قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فمن عليه ديون من أثمان وقرض وغير ذلك، فلا يقَدِّم الصدقة على قضاء هذه الواجبات، ولو فعل ذلك: فهل تردّ صدقته؟ على قولين معروفين للفقهاء، فهذه الآية يحتج بها من تردّ<sup>(١)</sup> صدقته؛ لأن الله تعالى إنما أثنى على من آتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فإذا كان عنده نعمة تجزى، فعليه أن يجزي بها قبل أن يؤتي ماله يتزكى، فإذا آتى ماله يتزكى قبل أن يجزي بها لم يكن ممدوحاً، فيكون عمله مردوداً، لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»<sup>(٢)</sup>.

الرابع: أن هذه الآية إذا قدر أنه دخل فيها من دخل من الصحابة، فأبو بكر أحقّ الأمة بالدخول فيها، فيكون هو الأتقى من هذه الأمة، فيكون أفضلهم. وذلك لأن الله تعالى وصف الأتقى بصفات أبو بكر أكمل فيها من جميع الأمة، وهو قوله:

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «من يرُدُّ صدقته» أو «من يقول: تُردُّ صدقته».

(٢) مرّ تخريجه.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾.

أما إيتاء المال فقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أن إنفاق أبي بكر أفضل من إنفاق غيره، وأن معاونته له بنفسه وماله أكمل من معاونته غيره.

وأما ابتغاء النعمة التي تجزى، فأبو بكر لم يطلب من النبي ﷺ مالاً قط، ولا حاجة دنيوية، وأنه كان يطلب منه العلم، لقوله الذي ثبت في الصحيحين أنه قال للنبي ﷺ: «علمني دعاء أدعو به في صلاتي». فقال: قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم<sup>(١)</sup>.

ولا أعطاه النبي ﷺ مالاً يخصه به قط، بل إن حضر غنيمة كان كآحاد الغانمين، وأخذ النبي ﷺ ماله كله، وأما غيره من المنفقين - من الأنصار وبني هاشم - فقد كان النبي ﷺ يعطيهم ما لا يعطي غيرهم، فقد أعطى بني هاشم وبني المطلب من الخمس ما لم يعط غيرهم، واستعمل عمر وأعطاه عمالة. وأما أبو بكر فلم يعطه شيئاً، فكان أبعد الناس من النعمة التي تُجزى، وأولاهم بالنعمة التي لا تجزى.

وأما إخلاصه في ابتغاء وجه ربه الأعلى، فهو أكمل الأمة في ذلك. فعلم أنه أكمل من تناولته الآية في الصفات المذكورة.

كما أنه أكمل من تناوله قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسْبَى﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأمثال ذلك من الآيات التي فيها مدح المؤمنين من هذه الأمة، فأبو بكر أكمل الأمة في الصفات التي يمدح الله بها المؤمنين، فهو أولاهم بالدخول فيها، وأكمل من دخل فيها، فعلم أنه أفضل الأمة) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (ومما يبين الحب لله والحب لغير الله أن أبا بكر ﷺ كان يحب

(١) البخاري (١/١٦٦)، مسلم (٤/٢٠٧٨).

(٢) منهاج السنة (٨/٤٩٣ - ٥٠٤).

النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا آلَتَنِي﴾ (٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْنَاءَ وَجْهِ رِيءِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾. وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله. وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ﷺ ولا غيره؛ بل آمن به؛ وأحبه وكلاه وأعانه بنفسه وماله متقرباً بذلك إلى الله، وطالبا الأجر من الله) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وإنما كان كذلك لأنه أتقاهم [وأكرمهم]، وأكرم الخلق على الله تعالى أتقاهم بالكتاب والسنة. وإنما كان أتقاهم لأن الله تعالى قال: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا آلَتَنِي﴾ (٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْنَاءَ وَجْهِ رِيءِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾، وأئمة التفسير يقولون: إنه أبو بكر.

ونحن نبين صحة قولهم بالدليل فنقول: الأتقى قد يكون نوعاً، وقد يكون شخصاً. وإذا كان نوعاً فهو يجمع أشخاصاً. فإن قيل: إنهم ليس فيهم شخص هو أتقى، كان هذا باطلاً، لأنه لا شك أن بعض الناس أتقى من بعض، مع أن هذا خلاف قول أهل السنة والشيعة، فإن هؤلاء يقولون: إن أتقى الخلق بعد رسول الله ﷺ من هذه الأمة هو أبو بكر، وهؤلاء يقولون: هو علي. وقد قال بعض الناس: هو عمر. ويحكى عن بعض الناس غير ذلك. ومن توقف أو شك لم يقل: إنهم مستوون في التقوى. فإذا قال: إنهم متساوون في الفضل، فقد خالف إجماع الطوائف. فتعين أن يكون هذا أتقى.

وإن كان الأتقى شخصاً، فإما أن يكون أبا بكر أو علياً. فإنه إذا كان اسم جنس يتناول من دخل فيه، وهو النوع، وهو القسم الأول، أو معيناً غيرهما. وهذا القسم منتف باتفاق أهل السنة والشيعة، وكونه علياً باطل أيضاً لأنه قال: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْنَاءَ وَجْهِ رِيءِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾. وهذا الوصف منتف في علي لوجوه:

أحدها: أن هذه السورة مكية بالاتفاق، وكان علي فقيراً بمكة في عيال النبي ﷺ،

ولم يكن له مال ينفق منه، بل كان النبي ﷺ قد ضمّه إلى عياله لما أصابت أهل مكة سنة.

الثاني: أنه قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾. وعلي كان للنبي ﷺ عنده نعمة تجزى، وهو إحسانه إليه لما ضمه إلى عياله. بخلاف أبي بكر؛ فإنه لم يكن له عنده نعمة دنيوية، لكن كان له عنده نعمة الدين، وتلك لا تجزى؛ فإن أجر النبي ﷺ فيها على الله، لا يقدر أحد يجزيه فنعمة النبي ﷺ عند أبي بكر دينية لا تجزى. ونعمته عند علي دنيوية تجزى، ودينية.

وهذا الأتقى ليس لأحد عنده نعمة تُجْزَى، وهذا الوصف لأبي بكر ثابت دون علي.

فإن قيل: المراد به أنفق ماله لوجه الله، لا جزاء لمن أنعم عليه. وإذا قدر أن شخصاً أعطى من أحسن إليه أجراً، وأعطى شيئاً آخر لوجه الله، كان هذا مما ليس لأحد عنده من نعمة تجزى.

قيل: هب أن الأمر كذلك، لكن علي لو أنفق لم ينفق إلا فيما يأمره به النبي ﷺ، والنبي له عنده نعمة تجزى، فلا يخلص إنفاقه عن المجازاة، كما يخلص إنفاق أبي بكر.

وعلي أتقى من غيره، لكن أبا بكر أكمل في وصف التقوى، مع أن لفظ الآية أنه ليس عنده قط لمخلوق نعمة تجزى. وهذا وصف من يجازي الناس على إحسانهم إليه، فلا يبقى لمخلوق عليه منة. وهذا الوصف منطبق على أبي بكر انطباقاً لا يساويه فيه أحد من المهاجرين؛ فإنه لم يكن في المهاجرين: - عمر وعثمان وعلي وغيرهم - رجل أكثر إحساناً إلى الناس، قبل الإسلام وبعده، بنفسه وماله من أبي بكر. كان مؤلفاً محبباً يعاون الناس على مصالحهم، كما قال فيه ابن الدُّعْنَةَ سيد القارة لما أراد أن يخرج من مكة: «مثلك يا أبا بكر لا يُخْرَج ولا يُخْرَج؛ فإنك تحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»<sup>(١)</sup>.

وفي صلح الحديبية لما قال لعروة بن مسعود: «امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال لأبي بكر: لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك»<sup>(١)</sup>.

وما عُرف قط أن أحداً كانت له يد على أبي بكر في الدنيا، لا قبل الإسلام ولا بعده، فهو أحق الصحابة<sup>(٢)</sup>: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ فكان أحق الناس بالدخول في الآية.

وأما عليّ رضي الله عنه فكان للنبي صلى الله عليه وسلم نعمة ذنيوية. وفي المسند لأحمد أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه. ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً<sup>(٣)</sup>.

وفي المسند والترمذي وأبي داود حديث عمر، قال عمر: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» فقلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسبقك إلى شيء أبداً»<sup>(٤)</sup>.

فأبو بكر رضي الله عنه جاء بماله كله، ومع هذا فلم يكن يأكل من أحد: لا صدقة ولا صلة ولا نذراً، بل كان يتجر ويأكل من كسبه، ولما ولي الناس واشتغل عن التجارة بعمل المسلمين أكل من مال الله ورسوله الذي جعله الله له، لم يأكل من مال مخلوق.

وأبو بكر لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يعطيه شيئاً من الدنيا يخصه به، بل كان في المغازي كواحد من الناس، بل يأخذ من ماله ما ينفقه على المسلمين. وقد استعمله النبي صلى الله عليه وسلم وما عرف أنه أعطاه عمالة، وقد أعطى عمر عمالة وأعطى علياً من الفيء، وكان يعطي المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأهل نجد، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يعطيهم، كما فعل في غنائم حنين وغيرها، ويقول: «إني لأعطي رجلاً وأدع رجلاً،

(١) البخاري (٣/١٩٣ - ١٩٨).

(٢) الحديث في المسند (١/١٨٠) وهو ضعيف لانقطاعه بين أبي بكر وابن أبي مليكة.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) لعل «ب» سقطت.



والذي أَدع أحب إليّ من الذي أعطي. أعطى رجالاً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل رجالاً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»<sup>(١)</sup>

ولما بلغه عن الأنصار كلام سألهم عنه، فقالوا: يا رسول الله أما ذوو الرأي منا فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله، فوالله لما تنقلبون به خير مما يتقلبون به» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. قال: «فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض» قالوا: سنصبر»<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَلَىٰ ﴿٧﴾ الَّذِي يُوَقِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُ مِنِّي نِعْمَةٌ تَجْزَىٰ ﴿٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿١٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿١١﴾﴾ استثناء منقطع. والمعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده يد يكافئه بذلك؛ فإن هذا من العدل الواجب للناس بعضهم على بعض، بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة. وهذا واجب لكل أحد على كل أحد، فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعادلة، فيكون عطاؤه خالصاً لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه لها، فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة له على ذلك. وهذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى، فإنه في معاملته للناس يكافئهم دائماً ويعاونهم ويجازيهم، فحين أعطاه الله ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.

وفيه أيضاً ما يبين أن التفضيل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجبات من المعاوضات. كما قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ومن تكون عليه ديون وفروض وغير ذلك أداها، ولا يقدم الصدقة على قضاء هذه الواجبات، ولو فعل ذلك: فهل ترد صدقته؟ على قولين معروفين للفقهاء.

وهذه الآية يحتج بها من تُرد<sup>(٣)</sup> صدقته، لأن الله إنما أثنى على من آتى

(١) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٢) البخاري (٩٤/٤)، ومسلم (٧٣٣/٢ - ٧٣٤).

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «من يرد» كما في نسخة أشار إليها المحقق.

ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فإذا كان عنده نعمة تجزى فعليه أن يجزيها قبل أن يوتي ماله يتزكى، فأما إذا أتى ماله يتزكى قبل أن يجزيها لم يكن ممدوحاً، فيكون عمله مردوداً، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»<sup>(١)</sup>.

الثالث: أنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»<sup>(٢)</sup>، وقال: «إن أمنّ الناس علينا في صحبتته وذات يده أبو بكر»<sup>(٣)</sup>، بخلاف عليّ ؓ فإنه لم يذكر عنه النبي ﷺ شيئاً من إنفاق المال، وقد عرف أن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين في الله في أول الإسلام، وفعل ذلك ابتغاء لوجه ربه الأعلى، لم يفعل ذلك كما فعله أبو طالب، الذي أعان النبي ﷺ لأجل نسبه وقرابته، لا لأجل الله تعالى ولا تقرباً إليه.

وإن كان «الأنقى» اسم جنس، فلا ريب أنه يجب أن يدخل فيه أنقى الأمة، والصحابة خير القرون، فأتقاهم أنقى الأمة، وأتقى الأمة [إما] أبو بكر وإما عليّ وإما غيرهما. والثالث منتفٍ بالإجماع، وعليّ إن قيل: إنه يدخل في هذا النوع، لكونه بعد أن صار له مال أتى ماله يتزكى، فيقال: أبو بكر فعل ذلك في أول الإسلام وقت الحاجة إليه، فيكون أكمل في الوصف، الذي يكون صاحبه هو الأنقى.

وأيضاً فالنبي ﷺ إنما كان يقدم الصديق في المواضع التي لا تحتل المشاركة، كاستخلافه في الصلاة والحج، ومصاحبته وحده في سفر الهجرة، ومخاطبته وتمكينه من الخطاب، والحكم والإفتاء بحضرته ورضاه بذلك، إلى غير ذلك من الخصائص التي يطول وصفها.

ومن كان أكمل في هذا الوصف، كان أكرم عند الله، فيكون أحب إليه. فقد ثبت بالدلائل الكثيرة أن أبا بكر هو أكرم الصحابة في الصديقية. وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون، ومن كان أكمل في ذلك كان أفضل.

وأيضاً فقد ثبت في النقل الصحيح عن عليّ أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

أبو بكر وعمر» واستفاض ذلك وتواتر عنه، وتوعد بجلد المفتري من يفضله عليه، وروي عنه أنه سمع ذلك من النبي ﷺ، ولا ريب أن علياً لا يقطع بذلك إلا عن علم. وأيضاً فإن الصحابة أجمعوا على تقديم عثمان الذي عمر أفضل منه وأبو بكر أفضل منهما. وهذه المسألة مبسوسة في غير هذا الموضع، وتقدم بعض ذلك، ولكن ذكر هذا لنبين أن حديث الطير من الموضوعات) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة الضحى

﴿ وَالضُّحَى ﴾

(الضحى يعم النهار كله، كما قال: ﴿أرَأَيْتَ أَنتَ بَنَّاها ﴿٧﴾ رَفَعَ سَنَكها فَسَوَّها ﴿٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلها وَأَخْرَجَ ضُحها ﴿٩﴾﴾ [النازعات]، وقال: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿١﴾ وَاللَّيْلَ إِذا سَجى ﴿٢﴾ ١. هـ<sup>(١)</sup>.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾

(والخطاب في هذه السور له<sup>(٢)</sup>، كقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ﴿٣﴾ ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾

(قال ابن عطية في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ﴿٧﴾، وجده [فأغاثه] إنعامه بالنبوة والرسالة على غير الطريق التي هو عليها في نبوته، هذا قول الحسن والضحاك<sup>(٤)</sup> ١. هـ<sup>(٥)</sup>.

قال رحمه الله: (قال البغوي: وأهل [الأصول] على أن الأنبياء كانوا مؤمنين قبل الوحي، [وكان] [النبي] ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم تبين له شرائع دينه<sup>(٦)</sup>، قلت: قوله [هذا] يناقض ما ذكره<sup>(٧)</sup> في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ﴿٧﴾ [قال]: ومعنى الآية: وجدك ضالًّا عما أنت عليه اليوم فهداك لتوحيد، [فجعل التوحيد مما كان ضالًّا عنه فهدها إليه] ١. هـ<sup>(٨)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٧/١٦).

(٢) أي خطاب خاص للرسول وليس خطاب عام.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨٤/١٦).

(٤) قول الحسن والضحاك ذكرها البغوي (٤/٤٩٩)، وزاد المسير (٩/١٥٨).

(٥) تفسير آيات أشكلت (١/٢٠٩).

(٦) البغوي (٤/١٣٢).

(٧) أي البغوي نفسه (٤/٤٩٩).

(٨) تفسير آيات أشكلت (١/١٨١ - ١٨٢).

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ .

(وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

﴿١١﴾﴾ هذا متناول لجميع الأمة) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة الشرح

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾ .

(قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾ قال لا أذكر إلا ذكرت معي. وهذا كالتشهد والخطب والأذان، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلا يصح الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (جاء مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي ولا تتم لأمتك خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي»<sup>(٢)</sup>) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ فَارְغَبْ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ فَارְغَبْ﴾ ﴿٨﴾ أي أرغب إلى الله لا إلى غيره) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ فَارְغَبْ﴾ ﴿٨﴾ فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده) ا.هـ<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: (بل قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ فَارְغَبْ﴾ ﴿٨﴾ ولم يقل: ارغب إلى الأنبياء والملائكة) ا.هـ<sup>(٦)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ فَارְغَبْ﴾ ﴿٨﴾ فأمر بالرغبة

(١) مجموع الفتاوى (١٩/١٠٣ - ١٠٤) وهذا مروى عن مجاهد ثابت أما عن ابن عباس فلم أجده والله أعلم.

(٢) رواه الطبري (٣٠/٢٣٥) وعزاه صاحب الدر (٦/٣٦٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهم ورواه ابن حبان (٣٣٨٢ - الإحسان) وأبو يعلى (١٣٨٣) وحسنه صاحب مجمع الزوائد (٨/٢٥٤) ولكن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الاستقامة (٢/٢١).

(٤) مجموع الفتاوى (١/١٨١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٧/١٢٥).

إليه. ولم يأمر الله قط مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً، وإن كان قد أباح في موضع من المواضع ذلك، لكنه لم يأمر به، بل الأفضل للعبد أن لا يسأل قط إلا الله (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال: ﴿إِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ ۖ ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ﴿٨﴾﴾ فالرغبة تتضمن التوكل وقد أمر أن لا يتوكل إلا عليه، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل] فالتوكل على الله وحده والرغبة إليه وحده والرهبة منه وحده، ليس لمخلوق لا للملائكة ولا الأنبياء في هذا حق، كما ليس لهم حق في العبادة. ولا يجوز أن نعبد إلا الله وحده، ولا نخشى ولا نتقي إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ ﴿٢﴾﴾ [الأفال] (١) هـ. (٢).

﴿إِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ ۖ ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ﴿٨﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ ۖ ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ﴿٨﴾﴾ قيل: إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة وإلى ربك فارغب. وهذا أشهر القولين. وخرج شريح القاضي على قوم من الحاكة يوم عيد وهم يلعبون فقال: ما لكم تلعبون؟ قالوا: إنا تفرغنا، قال: أو بهذا أمر الفارغ؟ وتلا قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ ۖ ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ﴿٨﴾﴾.

ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ ۖ ﴿١﴾ فُرُؤًا لَّيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٢﴾﴾ [المزمل] إلى قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۖ ﴿١﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۖ ﴿٧﴾﴾ [المزمل] أي ذهاباً ومجيئاً، وبالليل تكون فارغاً. وناشئة الليل في أصح القولين: إنما تكون بعد النوم يقال: نشأ إذا قام بعد النوم، فإذا قام بعد النوم، كانت مواطأة قلبه للسان أشد لعدم ما يشغل القلب، وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله (أقوم).

وقد قيل: ﴿إِذَا فَرَعْتَ﴾ من الصلاة ﴿فَأَنْصَبْ﴾ في الدعاء، ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ﴿٨﴾﴾ وهذا القول سواء كان صحيحاً أو لم يكن، فإنه يمنع الدعاء في آخر الصلاة، لا سيما والنبى ﷺ هو المأمور بهذا، فلا بد أن يمثل ما أمره الله به.

ودعاؤه في الصلاة المنقول عنه في الصحاح وغيرها إنما كان قبل الخروج من الصلاة، وقد قال لأصحابه في الحديث الصحيح «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع. يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن مسعود الصحيح لما ذكر التشهد قال: «ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه»<sup>(٢)</sup> وقد روت عائشة وغيرها دعاءه في صلاته بالليل، وأنه كان قبل الخروج من الصلاة.

فقول من قال: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، يشبه قول من قال في حديث ابن مسعود لما ذكر التشهد فإذا فعلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد. وهذه الزيادة سواء كانت من كلام النبي ﷺ، أو من كلام من أدرجها في حديث ابن مسعود، كما يقول من ذكره من أئمة الحديث. ففيها أن قائل ذلك جعل ذلك قضاء للصلاة، فهكذا جعله هذا المفسر فراغاً من الصلاة، مع أن تفسير قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي فرغت من الصلاة قول ضعيف فإن قوله: إذا فرغت مطلق ولأن الفارغ إن أريد به الفارغ من العبادة، فالدعاء أيضاً عبادة، وإن أريد به الفراغ من أشغال الدنيا بالصلاة، فليس كذلك.

يوضح ذلك أنه لا نزاع بين المسلمين أن الصلاة يدعى فيها، كما كان النبي ﷺ يدعو فيها فقد ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد» وأنه كان يقول: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت»<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

(٢) البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٣) مّرّ تخريجه.



وثبت عنه في الصحيح أنه كان يدعو إذا رفع رأسه من الركوع، وثبت عنه الدعاء في الركوع والسجود، سواء كان في النفل أو في الفرض وتواتر عنه الدعاء آخر الصلاة، وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» فإذا كان الدعاء مشروعاً في الصلاة لا سيما في آخرها، فكيف يقول: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء والذي فرغ منه هو نظير الذي أمر به، فهو في الصلاة كان ناصباً في الدعاء لا فارغاً ثم إنه لم يقل مسلم إن الدعاء بعد الخروج من الصلاة يكون أوكد وأقوى منه في الصلاة ثم لو كان قوله: ﴿فَأَنْصَبْ﴾ في الدعاء لم يحتج إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ فإنه قد علم أن الدعاء إنما يكون لله.

فعلم أنه أمره بشيئين: أن يجتهد في العبادة عند فراغه من أشغاله، وأن تكون رغبته إلى ربه لا إلى غيره كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، موافق لقوله فانصب وقوله: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ موافق لقوله: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ومثله قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠] وقول شعيب رضي الله عنه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] ومنه الذي يروى عند دخول المسجد: «اللهم اجعلني من أوجه من توجه إليك، وأقرب من تقرب إليك وأفضل من سألك ورجب إليك» والأثر الآخر (وإليك الرغبة والعمل) وذلك أن دعاء الله المذكور في القرآن نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة ورغبة، فقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [٧] ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [٨] يجمع نوعي دعاء الله قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ونظائره كثيرة) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة التين

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ ﴿.

(وأغرب من ذلك قول بعض جهال المفسرين: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ ﴿ إنهم الأربعة؛ فإن هذا مخالف للعقل والنقل، لكن الله أقسم بالأماكن الثلاثة التي أنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن وظهر منها موسى وعيسى ومحمد كما قال في التوراة: جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران.

فالتين والزيتون: الأرض التي بعث فيها المسيح وكثيراً ما تسمى الأرض بما ينبت فيها فيقال: فلان خرج إلى الكرم وإلى الزيتون وإلى الرمان ونحو ذلك ويراد الأرض التي فيها ذلك فإن الأرض تتناول ذلك فعبر عنها ببعضها.

وطور سينين حيث كلم الله موسى وهذا البلد الأمين مكة أم القرى التي بعث بها محمد ﷺ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقوله: «ستشرق الشمس على الأرض ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل»، يناسب قوله في التوراة: (جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا: هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد ﷺ، وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ ﴿.

فبلد التين والزيتون هي الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وكان بها أنبياء بني إسرائيل وأسري بمحمد ﷺ إليها وظهرت بها نبوته، وطور سينين المكان الذي

كلم الله فيه موسى بن عمران، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التي بعث الله منه محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية: «جاء الله من طور سينا» وبعضهم يقول: «تجلى من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران».

قال كثير من العلماء واللفظ لأبي محمد بن قتيبة: ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض؛ لأن مجيء الله من طور سينا: إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى (ناصره) وباسمها يسمى من اتبعه نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد ﷺ وجبال فاران هي جبال مكة، قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة فإن ادعوا أنها غير مكة فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم.

قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن (هاجر) و(إسماعيل) فاران؟

وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبى الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح أوليس (استعلن) و(علن) وهما بمعنى واحد؟ وهو ما ظهر وانكشف.

فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟

وقال ابن زفر: (ساعير) جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح، قلت: وبجانب بيت لحم القرية التي ولد فيها المسيح قرية تسمى إلى اليوم ساعير ولها جبل تسمى ساعير.

وفي التوراة: أن نسل العيص كانوا سكاناً بساعير وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم.



فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيه ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل وأقسم بطور سينين وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة وأقسم بالبلد الأمين وهي مكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم خلقاً وأمرأً قدراً وشرعاً فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٥﴾﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرِ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة].

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلداً آمناً واستجاب الله دعاء إبراهيم وذكر ذلك في غير موضع وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿لِيَأْتِيَنَّكَ فَرِيشٌ ﴿١﴾﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُحِجُّ إِلَيْهِ تُمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].



قال رحمه الله:

## فصل

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملاً وتارة يذكره مفصلاً كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٨﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون] ثم ذكر المعادين الأصغر والأكبر فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون].

ومن الناس من يقول: لم دخلت لام التوكيد في الموت وهو مشاهد ولم تدخل في البعث وهو غيب فيحتاج إلى التوكيد؟ وذلك - والله أعلم - أن المقصود بذكر الموت والبعث هو الإخبار بالجزاء والمعاد وأول ذلك هو الموت فنبه على الإيمان بالمعاد واستعداد لما بعد الموت.

وهو إنما قال (تبعثون) فقط ولم يقل (تجازون) لكن قد علم أن البعث للجزاء.

وأيضاً ففيه تنبيه على قهر الإنسان وإذلاله. يقول: بعد هذا كله إنك تموت فترد إلى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

وهذا الرد هو بالموت، فإنه يصير في أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين]. وقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٨﴾﴾ [المطففين: 18]. وفي قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ قولان: قيل: الهرم وقيل: العذاب بعد الموت، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً، فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين. والناس نوعان: فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين، والمؤمن في عليين.

وأما القول الأول ففيه نظر فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم وكثير من المؤمنين يهرم وإن كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالاً من الكافر فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف.

ولهذا قال بعضهم إن الاستثناء منقطع على هذا القول وهو أيضاً ضعيف فإن المنقطع لا يكون في الموجب ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء شاء أنه منقطع، وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول، والمؤمنون بعض نوع الإنسان.

وقد فسر ذلك بعضهم على القول الأول بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمل إذا عجز. قال إبراهيم النخعي<sup>(١)</sup> إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل، وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَيْرٌ مِّمَّنْ﴾ وقال ابن قتيبة<sup>(٢)</sup> المعنى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في وقت القوة والقدرة فإنهم في حال الكبر غير منقوصين وإن عجزوا عن الطاعات فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك.

فيقال: وهذا أيضاً ثابت في حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»<sup>(٣)</sup>.

وفسره بعضهم بما روي عن ابن عباس أنه قال: من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر. فيقال: هذا مخصوص بقارئ القرآن والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها»<sup>(٤)</sup>.

وأيضاً فيقال: هرم الحيوان ليس مخصوصاً بالإنسان بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم.

وأيضاً: فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا رداً إلى أسفل سافلين؛ فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف

(١) ابن جرير (٢٤٧/٣٠). (٢) كما في القرطين (٢١٤/٢) لابن قتيبة.

(٣) البخاري (٢٩٩٦) وهو من أفراد البخاري.

(٤) سبق تخريجه.



كقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] وقوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] فهو يعيده إلى حال الضعف، ومعلوم أن الطفل ليس هو في أسفل سافلين، فالشيخ كذلك وأولى.

وإنما في أسفل سافلين من يكون في سجين لا في عليين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومما يبين ذلك قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ﴾ (٧) فإنه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء ولو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين والجزاء. بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين ويهين الكافرين.

وأيضاً فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين.

وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالإقسام فإن إقسام الله هو على أبناء الغيب.

وفي نفس المُقسم به وهو إرسال هؤلاء الرسل تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت لأن الرسل أخبروا به.

وهو يتضمن أيضاً الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار، فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا وهو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي، كمن رد في الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه.

وقوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ﴾ (٧) أي الجزاء يتناول جزاءه على الأعمال في الدنيا، والبرزخ، والآخرة إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله ونهيه ووعدته ووعيده مبشرين لأهل الإيمان منذرين لأهل الكفر وقد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحاً كان له أجر غير ممنون وإلا كان في أسفل سافلين.

فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم والإقسام بمواضع محنهم<sup>(١)</sup> تعظيم لهم، فإن موضع الإنسان إذا عظم لأجله كان هو أحق بالتعظيم ولهذا يقال في المكاتبات (إلى المجلس، والمقر ونحو ذلك السامي والعالي) ويذكر بخضوع له وتعظيم والمراد صاحبه.

فلما قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۗ﴾ دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين.

وفي قوله: ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ قولان: قيل: هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد وعكرمة ومقاتل، ولم يذكر البغوي غيره. قال عكرمة يقول: فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك. وعن مقاتل: فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء، وزعم أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة.

والثاني أنه خطاب للرسول وهذا أظهر؛ فإن الإنسان إنما ذكر مخبراً عنه لم يخاطب، والرسول هو الذي أنزل عليه القرآن والخطاب في هذه السورة له كقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى] وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الإنشراح] وقوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

والإنسان إذا خوطب قيل له: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار] ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

وأيضاً فتقدير أن يكون خطاباً للإنسان يجب أن يكون خطاباً للجنس، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة المكذب بالدين.

وأيضاً فإن قوله: ﴿يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ أي يجعلك كاذباً هذا هو المعروف من لغة العرب فإن استعمال (كذب غيره) أي نسه إلى الكذب وجعله كاذباً مشهور، والقرآن مملوء من هذا، وحيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسول أو التكذيب بالحق ونحو ذلك فهذا مراده.

(١) كذا في الأصل، ولم يتضح لي معناه هنا.

لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال: ﴿يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾ فذكر المكذب بالدين فذكر المكذب والمكذب به جميعاً وهذا قليل جاء نظيره في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩] فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما إما المكذب كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء] وإما المكذب به كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ [الفرقان: ١١] وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل.

ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان وفسر معنى قوله ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾: فما يجعلك مكذباً.

وعبارة آخرين: فما يجعلك كذاباً. قال ابن عطية: وقال جمهور من المفسرين: المخاطب الإنسان الكافر أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل؟<sup>(١)</sup> قلت: وكلا القولين غير معروف في لغة العرب أن يقول (كذبك أي جعلك مكذباً) بل (كذبك: جعلك كذاباً).

وإذا قيل (جعلك كذاباً) أي كاذباً فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم وهذا يقول: جعلك كاذباً بالدين فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد وهذا ضد الذي ينكر.

ذاك جعله مكذباً بالدين وهذا جعله كاذباً بالدين، والأول فاسد من جهة العربية والثاني فاسد من جهة المعنى؛ فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر والكافر كذب به لم يكذب هو به.

وأيضاً فلا نعرف في المخبر أن يقول (كذبت به) بل يقال (كذبتة).

وأيضاً فالمعروف في (كذبه) أي نسبه إلى الكذب لا أنه جعل الكذب فيه فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة بل المعروف خلافه وهو لم يقل (فما يكذبك) ولا قال (فما كذبك).

ولهذا كان علماء العربية على القول الأول<sup>(٢)</sup> قال ابن عطية: واختلف في

(١) المحرر الوجيز (١٦/٣٣٢).

(٢) هكذا في الأصل والصواب ينبغي أن يكون على القول الثاني (عبد الصمد).

المخاطب بقوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ فقال قتادة والفراء والأخفش: هو محمد ﷺ قال الله له: «فما الذي يكذبك فيما تُخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبرة»<sup>(١)</sup> التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت؟

قال: ويحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه ودينه<sup>(٢)</sup>.

قلت: وعلى أن المخاطب محمد ﷺ في المعنى قولان أحدهما قول قتادة<sup>(٣)</sup> قال: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ أي استيقن فقد جاءك البيان من الله وهكذا روى عنه ابن أبي حاتم بإسناد ثابت.

وكذلك ذكره المهدي: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ أي استيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين فالخطاب للنبي ﷺ وقال: معناه عن قتادة. قال: وقيل المعنى: فما يكذبك أيها الشاك يعني الكافر في قدرة الله؟ أي شيء يحملك على ذلك بعدما تبين لك من قدرته؟ قال وقال الفراء<sup>(٤)</sup>: فما يكذبك بالشواب والعقاب؟ وهو اختيار الطبري<sup>(٥)</sup>.

قلت: هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما روى الناس ومنهم ابن أبي حاتم عن الثوري عن منصور قال قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ عني به النبي ﷺ؟ قال: معاذ الله؟ عني به الإنسان<sup>(٦)</sup>.

وقد أحسن مجاهد في تنزيه النبي ﷺ أن يقال له: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أي استيقن ولا تكذب فإنه لو قيل له (لا تكذب) لكان ذلك من جنس أمره بالإيمان والتقوى ونهيه عما نهى الله عنه وأما إذا قيل: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ فهو لم يكذب بالدين بل هو الذي أخبر بالدين وصدق به فهو ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] فكيف يقال له: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾؟ فهذا القول فاسد لفظاً ومعنى. واللفظ الذي

(١) في ابن عطية (العبر).

(٢) ابن عطية (١٦/٣٣٢).

(٣) لم أجده لا عند ابن كثير ولا عند صاحب الدر؛ ولكن ذكره القرطبي وذكر ابن جرير بقول: وقيل (٢٠/١١٦).

(٤) معاني القرآن للفراء (٣/٢٧٧).

(٥) ابن جرير (٣٠/٢٤٥).

(٦) ابن كثير (٤/٥٢٧) نقلاً عن ابن أبي حاتم والطبري (٣٠/٢٤٩).

رأيته منقولاً بالإسناد عن قتادة ليس صريحاً فيه بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان فإنه قال: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْأَيْنِ ۖ﴾ قال: استيقن فقد جاءك البيان، وكل إنسان مخاطب بهذا فإذا كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح.

لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول ﷺ وعلى هذا فهذا المعنى باطل فلا يقال للرسول (فأي شيء يجعلك مكذباً بالدين؟) وإن ارتأت به النفس لأن هذا فيه دلائل تدل على فساده ولهذا استعاذ منه مجاهد.

والصواب ما قاله الفراء والأخفش وغيرهما وهو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، وغيره من العلماء كما تقدم.

وكذلك ذكره أبو الفرج بن الجوزي عن الفراء فقال: إنه خطاب للنبي ﷺ والمعنى: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له أنا خلقنا الإنسان على ما وصفنا قاله الفراء<sup>(١)</sup>.

قال: وأما (الدين) فهو الجزاء قلت: وكذلك قال غير واحد كما روى ابن أبي حاتم عن النضر بن عربي<sup>(٢)</sup>: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْأَيْنِ ۖ﴾ أي بالحساب. ومن تفسير العوفي عن ابن عباس<sup>(٣)</sup>: أي بحكم الله قلت: قال (بحكم الله) لقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝﴾ وهو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين والمكذب به.

وعلى هذا قوله ﴿فَمَا﴾ وصف للأشخاص ولم يقل (فمن) لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان وهو المقصود كقوله: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] وقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾ [الكافرون] وقوله: ﴿وَقَفَّسْ وَمَا سَوَّاهَا ۝﴾ [الشمس] كأنه قيل: فما المكذب بالدين بعد هذا؟ أي من هذه صفته ونعته هو جاهل ظالم لنفسه والله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم.

وقوله «بعد» قد قيل إنه «بعد ما ذكر من دلائل الدين» وقد يقال: لم يذكر إلا الإخبار به وأن الناس نوعان: في أسفل سافلين ونوع لهم أجر غير ممنون.

(١) زاد المسير (١٧٤/٩).

(٢) لم ينقله ابن كثير ولا صاحب الدر عن ابن أبي حاتم وهو عند ابن جرير (٢٤٩/٣٠).

(٣) ابن جرير (٢٥٠/٣٠).

فقد ذكر البشارة والندارة والرسول بعثوا مبشرين ومنذرين فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين وأنت قد بلغت ما وجب عليك تبليغه.

وقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ ليس نفيًا للتكذيب فقد وقع بل قد يقال: إنه تعجب منه كما قال: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذًا كُنَّا تُرْبًا أَهْنَا لَمَفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقد يقال: إن هذا تحقير لشأنه وتصغير لقدره لجهله وظلمه كما يقال (من فلان؟) و(من يقول هذا إلا جاهل؟) لكنه ذكره بصيغة (ما) فإنها تدل على صفته وهي المقصودة إذ لا غرض في عينه كأنه قيل (فأي صنف وأي جاهل يكذبك بعد بالدين؟ فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين) وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين والمؤمن به والأمر في ذلك له تعالى.

والقرآن لا تنقضي عجائبه، والله سبحانه بين مراده بياناً أحكمه لكن الاشتباه يقع على من لم يرسخ في علم الدلائل الدالة فإن هذه السورة وغيرها فيها عجائب لا تنقضي.

منها أن قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّينِ﴾ ذكر فيه الرسول المكذب والدين المكذب به جميعاً، فإن السورة تضمنت الأمرين تضمنت الأقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم وما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان وهم قد أخبروا بالمعاد المذكور في هذه السورة.

وقد أقسم الله عليه كما يقسم عليه في غير موضع وكما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣].

فلما تضمنت هذا وهذا ذكر نوعي التكذيب فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّينِ﴾ والله سبحانه أعلم.

وأيضاً فإنه لا ذنب له في ذلك والقرآن مراده أن يبين أن هذا الرد جزاء على ذنوبه ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] كما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

لكن هنا ذكر الخسر فقط فوصف المُسْتَشْتَيْنَ بأنهم تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

مع الإيمان والصلاح وهناك ذكر أسفل سافلين وهو العذاب والمؤمن المصلح لا يعذب وإن كان قد ضيع أموراً خسرها لو حفظها لكان رابحاً غير خاسر، ويسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملاً مفصلاً.

وتارة يذكر إحياءه كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ [البقرة] وهو كقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَلَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن خلق الحياة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة والنعمة والحكمة<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٢٧٨ - ٢٩٢).

## سورة العلق

### وقال في نزول العلق:

(بل قد ثبت في الصحيح أن أول ما أنزل عليه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق] ثم أنزل عليه بعد ذلك: ﴿يَتْلُوهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر] فهذا الخطاب إرسال له إلى الناس والإرسال بعد الإنباء فإن الخطاب الأول ليس فيه إرسال وآخر سورة اقرأ: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] فأول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود، والصلاة مؤلفة من أقوال وأعمال، فأفضل أقوالها القراءة وأفضل أعمالها السجود، والقراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع له) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحيح<sup>(٢)</sup> عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّبَ إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ثم يرجع فيتزود لذلك، حتى فجأه الوحي وهو بغار حراء فاتاه الملك فقال له: اقرأ فقال لست بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ثم قال: اقرأ فقال لست بقارئ قال: مرتين أو ثلاثاً ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ اقرأ ﴿وَرَبَّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» الحديث بطوله) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وأول ما أنزله الله من القرآن: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وختمها بقوله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ فافتتحها بالأمر بالقراءة وختمها بالأمر بالسجود وكل

(١) مجموع الفتاوى (٦٠٥/٧).

(٢) البخاري (٣/١ - ٤)، ومسلم (٩٧/١٠ - ٩٨ - النووي).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥١/٢ - ١٥٢) (٣/٣٨٨) الرد على المنطقيين (٤٩٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٧٩٦/٢ - ٧٩٧).



منهما يكون عبادة مستقلة فالقراءة في نفسها عبادة مطلقاً إلا في مواضع والسجود عبادة بسبب السهو والتلاوة وسجود الشكر وعند الآيات على قول، فالتلاوة الخاصة بسبب السجود) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل على الرسول ﷺ فإن أوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق] فأطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم، والخلق يتضمن فعله، والتعليم يتضمن قوله) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾. فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان وأنه المعلم للمعلم عموماً وخصوصاً للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

### وقال في عموم السورة:

(حيث افتتحها بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ وختمها بقوله: ﴿وَأَسْجُدْ ② وَأَقْرَبْ ③﴾ [العلق] فوضعت الصلاة على ذلك أولها والقراءة وآخرها السجود) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال له الملك ﷺ: ﴿أَقْرَأْ﴾ قال صلوات الله عليه وسلامه: «فقلت لست بقارئ» ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة ولهذا لما صلاها النبي ﷺ نهاه عنها من نهاه من المشركين كأبي جهل قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى ② أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ③ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ④ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑤ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑥ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَنْفَعَنَّ بِالْأَصِيَّةِ ⑦ نَاصِبًا ⑧ كَذِبًا خَائِبًا ⑨ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑩ سَدَّخَ الرَّايَةَ ⑪ كَلَّا لَا تَطَعَهُ ⑫ وَأَسْجُدْ ⑬ وَأَقْرَبْ ⑭﴾ [العلق] ا.هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط تحت الطبع.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢٩/١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨/٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٩٤/١٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٦/١٤).

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑤ .

(ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ①) ذكر فيها النوعين فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عموماً ثم خصوصاً فخص الإنسان بالخلق بعد ما عمَّ غيره ثم قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑤ فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم، وذكر القلم لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى.

فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث: اللفظي والعلمي والرسمي بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي وأن الله سبحانه هو معطيها؛ فهو خالق الخلق وخالق الإنسان وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ①) إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فبين سبحانه في أول ما أنزله أنه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى كما قال موسى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ثم ذكر أنه علّم فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات.

والعلم له «ثلاث مراتب» علم بالجنان وعبارة باللسان وخط بالبنان، ولهذا قيل: إن لكل شيء أربع وجودات: وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي. وجود في الأعيان ووجود في الأذهان واللسان والبنان، لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء، وأما الذهني الجناني فهو العلم الذي في القلوب والعبارة عن ذلك هو اللساني وكتابة ذلك هو الرسمي البناني وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة

واللفظ وذلك يستلزم تعليم العلم فقال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث وأطلق التعليم ثم خص فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥)، فذكر في هذه السورة التي ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنها أول ما أنزل عليه من القرآن أنه سبحانه موجد الموجودات الأربعة فذكر الوجود العيني وهو الوجود الحقيقي الثابت في نفسه فعم بالخلق وخص الإنسان فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ثم ذكر الموجودات الثلاثة المطابقة لهذا فعم وخص فقال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) فذكر العلم عموماً وخص الإنسان بالتعليم وذكر أنه علم بالقلم وذلك هو الخط والخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق المعنى الذي في القلب فإن الخط لا يدل بنفسه على المعنى وإنما يدل على العبارة الدالة على المعنى.

ولهذا من لم يعرف لغة صاحب الخط فإنه إذا قرأ خطأ بالعربي واللسان فارسي وهو لا يعرف معنى اللغة الفارسية لم يعرف المعنى فإن الخط إنما يدل بواسطة اللفظ) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (لكل شيء أربع مراتب وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البنان ولهذا أول ما نزل ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) فذكر الجميع بوجودها العيني عموماً ثم خصوصاً ثم قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم التعليم للفظ فإن الخط يطابق وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث الرسمي واللفظي والعلم بخلاف ما لو أطلق التعليم وذكر تعليم العلم فقط لم يكن مستوعباً للمراتب) هـ. ١ (٣).

وقال رحمه الله: (بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢)

(١) مجموع الفتاوى (١١١/١٢ - ١١٢). (٢) الصفدية (٢/٢٧٨).

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/٢٦)، ولعل هذا مختصراً من العبارة في مجموع الفتاوى (١١١/١٢ - ١١٢).

أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴿ فذكر الخلق عموماً وخصوصاً ثم ذكر التعليم عموماً وخصوصاً فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق العلم والعلم هو المطابق للمعلوم.

ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق فظن أن قوله: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الواقعة] كقوله: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط: إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال أو كإثبات القرآن في زبر الأولين قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ «الزبر» و«الكتب» يقال: زبرت الكتاب إذا كتبتة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل، ولكن ذكره كما أن محمداً نفسه ليس عندهم ولكن ذكره فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بيناً وهذا مبسوط في موضعه) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (والله تعالى هو الخالق للأمر الموجودة في الأعيان، والمعلم للصور الذهنية المطابقة لما في الأعيان ولهذا كان أول ما أنزل على رسوله: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ بين في أول ما أنزل أنه خالق الأعيان عموماً وخصوصاً. فكما أنه خالق الموجودات العينية فهو المعلم للماهيات الذهنية) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (فأول ما أنزل الله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ فذكر أنه الأكرم وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الإحسان، ومن كرمه أنه علم بالقلم عَلَّمَ

الإنسان ما لم يعلم فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه وأن يكتب ذلك بالقلم فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعاني والعلوم، فإذا كان قد علمه هذه العلوم فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به، وبيان ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ ومعلوم أن من رأى العلقه قطعة من دم فقيل له هذه العلقه يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا لكان يتعجب من هذا غاية التعجب وينكره أعظم الإنكار، ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقه إلى أن يصير إنساناً عالمًا قادراً كاتباً أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به وما أخبر به، فمن قدر على أن ينقله من الصغر إلى أن يجعله عالمًا قارئاً كاتباً كان أن يقدر على جعله عالمًا بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى، وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق بقدرته على الابتداء وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد فقال تعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَيُفَاقِقُونَ ۝٢ كَرِهُوا أَنْ يُنذَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرْنَ فنادوا ولات حين مناص ۝٣ وَيَجِبُونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ۝٤ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ۝٥ اجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَاِحَدًا ۝٦ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ ۝٧﴾ [ص]. فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى: ﴿اَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ اَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صٰدِقَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۝١﴾ [يونس: ٢] وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل إليهم رجل منهم وقوله: ﴿اَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ اَنْذِرَ النَّاسَ﴾ دل على أنه منذر لجنس الناس وأنه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم وإن كان أول ما أرسل إليهم وبلسانهم وقال تعالى: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلِ عَجِبُوا اَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا نَشْءٌ عَجِيْبٌ ۝٢ اِذْ اٰتٰنَا وَاَنْتَ اَنْتَ رَبُّنَا الَّذِيْ اَخْلَقْتَ جَدِيْدًا ۝٣ اَوْ اٰتٰنَا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ وَاَوْلٰئِكَ الْاَغْلٰلُ فِىْ اَعْنَاقِهِمْ وَاَوْلٰئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ۝٤﴾ [ق]. وقال تعالى: ﴿وَ اِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْمُهُمْ اِذْ اٰتٰنَا وَاَنْتَ اَنْتَ الَّذِيْ اَخْلَقْتَ جَدِيْدًا ۝١ اَوْ اٰتٰنَا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ وَاَوْلٰئِكَ الْاَغْلٰلُ فِىْ اَعْنَاقِهِمْ وَاَوْلٰئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ۝٢﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿بَلِ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُوْنَ ۝١ وَاِذَا ذُكِّرُوْا لَا يَذْكُرُوْنَ ۝٢ وَاِذَا رَاُوْا اٰيٰةً يَسْتَسْخَرُوْنَ ۝٣﴾ [الصافات] فالرسول كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الأنبياء وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَآءُكُمْ الَّذِيْنَ يَشْهَدُوْنَ اَنَّ اِلٰهَ حَرَمٌ هٰذَا فَاِنْ شَهِدُوْا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَالَّذِيْنَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام] وأما حكمته في إرسال بشر فقد ذكر أنه من جنسهم وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك وأنه لو نزل ملكاً لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة آدميين كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي وكما أتى مرة في صورة أعرابي ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤٦﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمشُورُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٤٥﴾ [الإسراء] ا. هـ. (١).

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل الله من القرآن: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وذكر فيها أنه سبحانه معطي الوجودين فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾﴾ فهذا الوجود العيني ثم قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني وذكر التعليم بالقلم لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى فدل بذكره آخر المراتب على أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق) ا. هـ. (٢).

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾.

(وأما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨] فيقال: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

وهذا أيضاً مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى وقوله في الذبيحة ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] كقوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَمُرْسَهَاتُ﴾ [هود: ٤١] فقوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هو قراءة بسم الله في أول السور.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين أن هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور أن يقرأ بسم الله وأنها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها، وهنا يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة] كما كتب سليمان وكما جاءت به

السنة المتواترة وأجمع المسلمون فينطق بنفس الاسم الذي هو اسم مسمى، لا يقول بالله الرحمن الرحيم كما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَّمَّ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨] فإنه يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ونحو ذلك وهنا قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: اقرأ اسم ربك وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَّمَّ رَبِّكَ﴾ يقتضي أن يذكره بلسانه.

وأما قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٤١] فقد يتناول ذكر القلب، وقوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ هو كقول الأكل: باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ﷺ: «ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله» (١) هـ.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥).

(ولعل هذا أيضاً هو الذي قصده في حكاية ابن عطاء إن كان لها أصل فإنه قد ذكر ابن قتيبة في المعارف: (أن الله لما أهبط آدم أنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين صحيفة) (٢).

فيكون ناقلها قصد أن آدم اختص من بين الملائكة بأن علّم الكتابة بهذه الحروف كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) هـ (٣).

﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ (٧).

قال في بيان غلط بعض الصوفية في تفسيرهم للآية بما ليس بصحيح: ﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ (٧) أي إن رأى ربه استغنى. والمعنى: إنه ليطنغي أن رأى نفسه استغنى (١) هـ (٤).

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (٧) ﴿سَدِّعُ الزَّيْبَانَةَ﴾ (٨).

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق! فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب! فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢١٠ - ٢١١).

(٢) المعارف (١٨) بلفظ فيه بعض الخلاف، وابن عطاء الروذباري المتوفي سنة ٣٧٩ هـ ابن أخت أبي علي الروذباري.

(٣) الاستقامة (١/٢٠٣ - ٢٠٤). (٤) مجموع الفتاوى (١٠/٥٦٠).

إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

ولهذا قال ﷺ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَلَ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أُتِيَ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿لَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١٦﴾﴾ ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْنُ نَادِيَهُ ﴿٧﴾ سَنَعُ الزَّيْنَةَ ﴿٨﴾﴾ قال غير واحد من الصحابة والتابعين كأبي هريرة وعبد الله بن الحارث وعطاء: هم الملائكة. وقال قتادة: الزبانية في كلام العرب الشُّرَط. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم. قال أهل اللغة كابن قتيبة وغيره: هو مأخوذ من الزَّيْن وهو الدفع كأنهم يدفعون أهل النار إليها. قال ابن دريد: الزَّيْن الدفع يقال «ناقة زبون» إذا زَيَّنْت حالبها ودفعته برجلها و«تزابن القوم» تدارءوا، واشتقاق الزبانية من الزين<sup>(٢)</sup> ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿أَرَيْتَ الَّذِي يَبْغَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَعْنُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَعُ الزَّيْنَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾.

(ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: «هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم قال: واللات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأن على رقبتَه» فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه فقيل له: مالك؟ قال: «إن بيني وبينه لخذقاً من نار وهولاً وأجنحة» فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وأنزل الله تعالى<sup>(٤)</sup>: ﴿أَرَيْتَ الَّذِي يَبْغَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَعْنُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَعُ الزَّيْنَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾ ا.هـ<sup>(٥)</sup>.

﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ والمراد القرب من الداعي في سجوده كما قال:

- (١) مجموع الفتاوى (٦٧/٢٨)، والحديث مرّ تخريجه.
- (٢) زاد المسير (١٧٩/٩).
- (٣) الرد على المنطقيين (٤٩٨).
- (٤) مسلم (٢٧٩٧) وهو من أفراد مسلم.
- (٥) الجواب الصحيح (٦/٢٧٧ - ٢٧٨).



«وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء فقمنا أن يستجاب لكم» فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قرب العبد من ربه وهو ساجد، وقد أمر المصلي أن يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى)<sup>(١)</sup> رواه أهل السنن (١.١ هـ)<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١.١ هـ)<sup>(٤)</sup>.

### قال شيخ الإسلام:

(في بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده وصدق رسوله ﷺ وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً.

وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم، لا أصول دينه وهي باطلة عقلاً وسمعاً، كما قد بسط في غير موضع وبين أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية.

فطائفة قد ابتدعت أصولاً تخالف ما جاء به من هذا وهذا.

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه، وصاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك، ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها، ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية.

بل الذي يخبر به من السمعية مما يخبر به عن ربه وعن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به، بل قد يقولون مع هذا إنه نفسه لم يكن يعلم معنى ما أخبر به، لأن ذلك عندهم هو تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٦ - ٢٣٧).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (٢١/٢٨٤)، الاستقامة (١/١٣٨ - ١٣٩).

وأما الأدلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به، كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات، ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا مجملاً، ولا يعرف أدلته، بل قد يظن أن ما يستدل به - كالأستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره هو دليل الرسول.

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل كالمعاد، وحسن التوحيد والعدل والصدق وقبح الشرك والظلم والكذب، والقرآن بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك، وينكر على من لم يستدل بها، ويبين أنه بالعقل يعرف المعاد وحسن عبادته وحده وحسن شكره، وقبح الشرك، وكفر نعمه، كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع.

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته وهو ينكر تحسين العقل وتقييحه إذا صنف في أصول الدين على طريقة النفاة الجبرية - أتباع جهم.

وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في اعتقادهم البدعي.

وقد ذكر أبو عبد الله<sup>(١)</sup> - ابن الجد الأعلى - أنه سمع أبا الفرج بن الجوزي ينشد في مجلس وعظه البيتين المعروفين:

هب البعث لم تأتنا رُسُلُه      وجاحمة النار لم تُضرم  
أليس من الواجب المستحق      حياء العباد من المنعم<sup>(٢)</sup>

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم، وهذا تصريح بأن شكره واجب مستحق ولو لم يكن وعيد، ولا رسالة أخبرت بجزاء، وهو يبين ثبوت الوجوب والاستحقاق وإن قدر أنه لا عذاب.

وهذا فيه نزاع قد ذكرناه في غير هذا الموضع، وبيننا أن هذا هو الصحيح ونتيجة

(١) هو أبو عبد الله محمد بن قاسم الخضر بن محمد بن الخضر المعروف بابن تيمية فخر الدين الخطيب الواعظ الفقيه الحنبلي ولد سنة (٥٤٢هـ) لازم ابن الجوزي في بغداد وسمع منه زاد المسير، له «التفسير الكبير» في أكثر من ثلاثين مجلد.

(٢) شرح ابن القيم هذين البيتين في كتابه (مفتاح دار السعادة) (٩٢/٢ - ٩٦).

فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر.

ويبين أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبدية فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها - أن يسلبها.

فالشكر قيْدُ النعم وهو موجب للمزيد، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد.

مع أنه لا بد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب فإنه ماثم دار إلا الجنة أو النار قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ① ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ③ [التين] وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع في أول ما أنزل من القرآن فإن أول ما أنزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ عند جماهير العلماء وقد قيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ④ [المدثر] روي ذلك عن جابر والأول أصح فإن [ما] ⑤ في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء وأن (المدثر) نزلت بعد.

وهذا هو الذي ينبغي؛ فإن قوله (اقرأ) أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة، وبذلك صار نبياً وقوله: ﴿قَدْ فَانَزَرْنَا﴾ [المدثر] أمر الإنذار وبذلك صار رسولاً منذراً.

ففي الصحيحين من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِبَ إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

فجاء الملك فقال: «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال «اقرأ»، فقلت: «ما أنا بقارئ».

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني» زملوني [فزملوه] حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - «لقد خشيت على نفسي».

فقالت له خديجة: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً - إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان أمراً تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: «يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك».

فقال له ورقة: «يا ابن أخي! ماذا ترى؟».

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعاً؟ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك؟.

فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟».

قال: «نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»<sup>(١)</sup>.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتى الوحي .

قال ابن شهاب الزهري: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني فزملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرِ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَالزُّجَرَ فَأَهْجُرِ ﴿٥﴾﴾ [المدثر]»<sup>(١)</sup>.

فهذا يبين أن «المدثر» نزلت بعد تلك الفترة وأن ذلك كان بعد أن عين الملك الذي جاءه بحراء أولاً، فكان قد رأى الملك مرتين.

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ﴿١﴾﴾ قلت: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء؟ فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: ذروني وصبوا علي ماء باراً فذروني وصبوا علي ماء باراً<sup>(٢)</sup>.

قال: فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرِ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرِ ﴿٣﴾﴾ [المدثر].

فهذا الحديث يوافق المتقدم وأن «المدثر» نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي، وبعد أن ناداه الملك حينئذ وقد بين في الرواية الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء وقد بينت عائشة أن (اقرأ) نزلت حينئذ في غار حراء لكن كأنه لم يكن علم أن (اقرأ) نزلت حينئذ بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك وقد يراه ولا يسمع منه لكن في حديث عائشة زيادة علم وهو أمره بقراءة (اقرأ).

وفي حديث الزهري أنه سمى هذا فترة الوحي وكذلك في حديث عائشة فترة

الوحي فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى وسمى ما بين الرؤيتين «فترة الوحي» كما بيَّنته عائشة وإلا فإن كان جابر سماه «فترة الوحي» فكيف يقول: إن الوحي لم يكن نزل؟

وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة عن عائشة وحديث أبي سلمة عن جابر وهو أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى فأخبر جابر بعلمه ولم يكن علم ما نزل قبل ذلك وعائشة أثبتت وبينت.

والآيات - آيات ﴿أَقْرَأْ﴾ و﴿الْمَدِينَةُ﴾ [المدرثر: ١] بين ذلك والحديثان متصادقان مع القرآن ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب.

وإذا كان أول ما أنزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ ﴿ففي الآية الأولى إثبات الخالق تعالى وكذلك في الثانية. وفيها وفي الثانية الدلالة على إمكان النبوة، وعلى نبوة محمد ﷺ.

أما الأولى فإنه قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿ثُمَّ قَالَ: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿فذكر الخلق مطلقاً، ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من علق، وهذا أمر معلوم لجميع الناس - كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه وأنه يكون من علق وهؤلاء بنو آدم.

وقوله: ﴿الإنسان﴾ هو اسم جنس يتناول جميع الناس، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين، فإن المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى، والاستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل، والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم، وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق.

فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء أو بدلائل آخر ولهذا ينكره طائفة من الكفار - الدهرية وغيرهم - الذين لا يقرون بالنبوات.

وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة فإن ذكركه لمن يثبت النبوة وهذه السورة أول ما نزل وبها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق.

وذكر سبحانه خلق الإنسان من العلق - وهو جمع «عَلَقَة» وهي القطعة الصغيرة من الدم - لأن ما كان قبل ذلك كان نطفة، والنطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان، وقد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة، فقد صار مبدأ لخلق الإنسان، وعلم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان.

وقد قال في سورة القيامة: ﴿الَّذِي بَكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿١٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿١٨﴾ فَعَمَلَ بَيْنَهُ الرُّجَمِ وَالَّذِي الْأُنثَىٰ ﴿١٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة] فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥] ففي القيامة استدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق، وفي الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة.

وأما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداء فذكر أنه خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وهو من العلقة - الدم يصير مضغة وهو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥] فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم ويرون ذلك بأعينهم.

وهذا الدليل - وهو ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢١﴾﴾ يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية.

فالإنسان هو الدليل وهو المستدل، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] وقال: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور].

وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ والمعاد، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩﴾ [مریم] ولم يقل (إنه أهون عليه) كما قال في المبدأ والمعاد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢﴾ بعد أن قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق، ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلاً في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.

وذكر بعد الخلق التعليم الذي هو التعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة.

ولم يقل هنا (هدى) فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان وسائر الحيوان، كما قال في موضع آخر: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣﴾ [الأعلى] وكما قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام ولا ينعكس، وهذا أقرب إلى إثبات النبوة نوع من التعليم.

وليس جعل الإنسان نبياً أعظم من جعله العلقة إنساناً حياً عالمياً ناطقاً سميعاً بصيراً متكلماً قد علم أنواع المعارف كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم وهو بكل شيء عليم ولا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء؟

وقال سبحانه أولاً: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فأطلق التعليم والمعلم فلم يخص نوعاً من المعلمين فيتناول تعليم الملائكة وغيرهم من الإنس والجن كما تناول الخلق لهم كلهم.

وذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط، والخط يطابق اللفظ، وهو البيان والكلام، ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب فيدخل فيه كل علم في القلوب.

وكل شيء له حقيقة في نفسه ثابتة في الخارج عن الذهن ثم يتصوره الذهن



والقلب ثم يعبر عنه اللسان ثم يخطه القلم فله وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي - وجود في الأعيان والأذهان واللسان والبنان لكن الأول هو هو وأما الثلاث فإنه مثال مطابق له فالأول هو المخلوق والثلاثة معلمة فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وقد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا؟ وهل ماهية كل شيء زائدة على وجوده؟ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع<sup>(١)</sup> وبين الصواب في ذلك وأنه ليس إلا ما يتصور في الذهن ويوجد في الخارج.

فإذا أريد بالماهية ما يتصور في الذهن وبالوجود ما في الخارج أو بالعكس فالماهية غير الموجود إلا كان ما في الأعيان مغايراً لما في الأذهان.

وإن أريد بالماهية ما في الذهن أو الخارج أو كلاهما وكذلك بالوجود، فالذي في الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة في الخارج، وكذلك ما في الذهن من هذا هو هذا، ليس في الخارج شيئان. وهو سبحانه علم ما في الأذهان، وخلق ما في الأعيان وكلاهما مجعول له.

لكن الذي في الخارج جعله جعلاً خلقياً، والذي في الذهن جعله جعلاً تعليمياً فهو الذي: ﴿خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ وَهُوَ: ﴿الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وقوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتبين ويدخل فيه تعليم كتب الكتب المنزلة فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذي أنزله كالتوراة والقرآن بل هو كتب التوراة لموسى.

وكون محمد كان نبياً أمياً هو من تمام كون ما أتى به معجزاً خارقاً للعادة ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوا بِمِيمِنِكَ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] فغيره يعلم ما كتبه غيره وهو علم الناس ما يكتبونه وعلمه الله ذلك بما أوحاه إليه.

(١) تكلم شيخ الإسلام عن هذا في كتابه الرد على المنطقيين (٦٤ - ٦٩).

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس] وفي الآية الأخرى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود].

### فصل

وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس في إثبات الصانع والنبوة [و] أن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فإنها باطلة في العقل كما هي مخالفة للشرع. والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام.

وقد بينا الكلام على هذه في غير موضع، وأنها مخالفة للشرع والعقل، وكثير من الناس يعلم أنها بدعة في الشرع لكن لا يعلم فسادها في العلم وبعضهم يظن أنها صحيحة في العقل والشرع وأنها طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام وقد بين فساد هذا في غير موضع <sup>(٢)</sup>.

والمقصود هنا أن طائفة من النظائر - مثبتة الصفات أرادوا سلوك سبيل السنة ولم يكن عندهم إلا هذه الطريق.

فاستدلوا بخلق الإنسان لكن لم يجعلوا خلقه دليلاً كما في الآية بل جعلوه مستدلاً عليه وظنوا أنه يعرف بالبديهة والحس حدوث أعراض النطفة وأما جواهرها فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر المنفردة وأن خلق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعراض في تلك الجواهر بجمعها وتفريقها ليس هو إحداث عين.

فصاروا يريدون أن يستدلوا على أن الإنسان مخلوق ثم إذا ثبت أنه مخلوق قالوا: إن له خالقاً.

(١) من زيادات صاحب المجموع.

(٢) تكلم شيخ الإسلام عن هذه في «درء تعارض العقل والنقل» وفي «تفسير سورة الإخلاص».

واستدلوا على أنه مخلوق بدليل الأعراض وأن النطفة والعلقة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة إذ كان عندهم جواهر تجمع تارة وتفرق أخرى فلا تخلو عن اجتماع وافتراق وهما حادثان فلم يخل الإنسان عن الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لا متناع حوادث لا أول لها.

وهذه هي الطريقة التي سلكها الأشعري في «اللمع في الرد على أهل البدع» وشرحه أصحابه شروحاً كثيرة وكذلك في «رسالته إلى أهل الثغر» وذكر قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة] فاستدل على أن الإنسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التي لا تخلو من اجتماع وافتراق فلم تخل من الحوادث فهي حادثة.

وهذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك.

وتلك هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم من المتأخرين المنتسبين إلى المذاهب الأربعة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد كما ذكرها القاضي، وابن عقيل، وغيرهما، وذكرها أبو المعالي الجويني وصاحب (التتمة)<sup>(١)</sup> وغيرهما وذكرها أبو الوليد الباجي<sup>(٢)</sup> وأبو بكر بن العربي<sup>(٣)</sup> وغيرهما وذكرها أبو منصور الماتريدي<sup>(٤)</sup> والصابوني<sup>(٥)</sup> وغيرهما.

(١) صاحب التتمة هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون المعروف بالمتولي النيسابوري شيخ الشافعية والتتمة كتاب تم في كتاب (الإبانة في فقه الشافعي) توفي سنة (٤٧٨هـ).

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي أبو الوليد الباجي سبق الترجمة له وراجع: الديباج المذهب (١٢٠) والوفيات (٢١٥/١) والفوات (١٧٥/١) ونفح الطيب (٣٦١/١) وتهذيب ابن عساکر (٢٤٨/٦).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي أبو بكر بن العربي قاض من حفاظ الحديث ولد في أشبيلية ورحل إلى المشرق وبرع في الأدل وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير مات بقرب فاس ودفن بها عام (٥٤٣هـ) من كتبه: أحكام القرآن والقبس في شرح موطأ ابن أنس والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي سبق الترجمة له توفي عام (٣٣٣هـ).

(٥) الصابوني: هو نور الدين أبو المحامد أحمد بن أبي بكر الصابوني البخاري الحنفي المتوفي سنة (٥٨٠هـ) وهو صاحب كتاب (الكفاية في الهداية) في علم الكلام وهو والماتريدي حنفيان وقد ترجم الدكتور عميرة خطأ ذاهباً ذهنه إلى الصابوني المحدث.

لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة لظنهم أن المعلوم بالحسن وبديهة العقل إنما هو حدوث أعراض لا حدوث جواهر وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب والمطر والزرع والثمر والإنسان والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها .

وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل وإنما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا فقالوا: هي أعراض حادثة في جواهر وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض .

ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وهذا بنوه على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة وقالوا: إن الأجسام لا يتسحيل بعضها إلى بعض .

وجمهور العقلاء من السلف وأنواع العلماء وأكثر النظار يخالفون هؤلاء فيما يثبتون من الجوهر الفرد، ويثبتون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ويقولون بأن الرب لا يزال يحدث الأعيان كما دل على ذلك القرآن .

ولهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلاً وشرعاً وهي مكابرة للعقل؛ فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن وأن عينه حدثت كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: ٩] وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ﴿١٧﴾ [مریم].

ليس هذا مما يستدل عليه فإنه أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحاً فكيف إذا كان باطلاً .

وقولهم: إن الحادث أعراض فقط وأنه مركب من الجواهر الفردة قولان باطلان لا يعلم صحتهما بل يعلم بطلانهما .

ويعلم حدوث جوهر الإنسان وغيره من المادة التي خلق منها وهي العلق كما قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿٢﴾ .

وكونه مركباً من جواهر فردة ليس صحيحاً، ولو كان صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين الذي هو مقدمات أولية فإن تلك المقدمات يجب أن تكون بينة أولية معلومة بالبديهة.

فطريقهم تَصَمَّنْ جحد المعلوم وهو حدوث الأعيان الحادثة وهذا معلوم للخلق وإثبات ما ليس بمعلوم بل هو باطل ولأن الإحداث لها إنما [هو]<sup>(١)</sup> جمع وتفريق للجواهر وأنه إحداث أعراض فقط.

ولهذا كان استدلالهم بطريقة الجواهر والأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليهم أئمة الدين وبينوا أنهم مبتدعون في ذلك بل بينوا ضلالهم شرعاً وعقلاً كما بسط كلام السلف والأئمة عليهم في غير هذا الموضوع إذ هو كثير.

فالقُرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿٢١﴾ وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم بل هو مشكوك فيه ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوماً فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه بل يظن أنه دليل وهو شبهة ولها لوازم فاسدة.

فأنكروا المعلوم بالعقل ثم الشرع وادعوا طريقاً معلومة بالعقل وهي باطلة في العقل والشرع فضاهاها الذين قال الله فيهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وكذلك فإن إثبات النبوات وإمكانها وفي إثبات المعاد وإمكانه عدلوا عن الطريق الهادية التي توجب العلم اليقيني التي هدى الله بها عباده إلى طريق تورث الشك والشبهة والحيرة ولهذا قيل: غاية المتكلمين المبتدعين الشك وغاية الصوفية المبتدعين الشطح.

ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل والشرع، فألزموا لوازمها التي أوجبت لهم السفسطة في العقليات والقرمطة في السمعيات وتكلموا في دلائل النبوة والمعاد ودلائل الربوبية بأمور وزعموا أنها أدلة وهي عند التحقيق ليست بأدلة ولهذا يطعن بعضهم في أدلة بعض.

(١) من زيادات عبد الصمد.

وإذا استدلووا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول وإن تنوعت العبارات.

ولهذا قد يستدل بعضهم بدليل إما صحيح وإما غير صحيح فيطعن فيه آخر ويزعم أنه يذكر ما هو خير منه ويكون الذي يذكره دون ما ذكره ذلك وهذا يصيبهم كثيراً في الحدود - يطعن هؤلاء في حد هؤلاء ويذكرون حداً مثله أو دونه.

وتكون الحدود كلها من جنس واحد، وهي صحيحة إذا أريد بها التمييز بين المحدود وغيره، وأما من قال: إن الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود، كما يقوله أهل المنطق، فهؤلاء غالطون ضالون كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع وإنما الحد معرف للحدود ودليل عليه بمنزلة الاسم لكنه يفصل ما دل عليه الاسم بالإجمال فهو نوع من الأدلة كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

إذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم واليقين - كالتي بينها القرآن - وبين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعاً وعقلاً.

### فصل

قوله: ﴿اقْرَأْ رَبُّكَ الْأَكْرَمَ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٣﴾﴾ سمي ووصف نفسه بالكرم وبأنه الأكرم بعد إخباره أنه خُلِقَ ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال في موضع آخر: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٢﴾﴾ [الأعلى] وكما قال موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥١﴾﴾ [طه] وكما قال الخليل ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء].

فالخلق يتضمن الابتداء، والكرم تضمن الانتهاء كما قال في أم القرآن: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿الزَّكِيَّ الرَّحِيمَ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن والكرم كثرة الخير ويسرته<sup>(٢)</sup>.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن»<sup>(٣)</sup>.

(١) بسط المصنف الكلام في «الرد على المنطقيين».

(٢) كذا في الأصل ولعله (يسره). (٣) البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧).

وهم سموا العنب «الكرم» لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطباً ويابساً ويعصر فيتخذ منه أنواع:

وهو أعم وجوداً من النخل يوجد في عامة البلاد والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة ولهذا قال في رزق الإنسان: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا تَقْلًا ﴿١٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٢٠﴾ وَفَلَكَمًا ﴿٢١﴾ وَأَبَّا ﴿٢٢﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ ﴿٢٣﴾ [عبس]. فقدم العنب، وقال في صفة الجنة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٢٤﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ].

ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال: «الكرم قلب المؤمن» فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن.

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء] قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن وقال الزجاج: الزوج النوع والكريم المحمود وقال غيرهما: ﴿مِن كُلِّ زوجٍ﴾ صنف وضرب ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام: يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها وناقة كريمة إذا كثر لبنها.

وعن الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم.

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه وفيهم من يهينه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»<sup>(١)</sup> وكرائم الأموال: التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها.

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها فدل أنه الأكرم وحده

بخلاف ما لو قال (وربك أكرم) فإنه لا يدل على الحصر وقوله: ﴿الْأَكْرَمُ﴾ يدل على الحصر.

ولم يقل (الأكرم من كذا) بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه.

قال ابن عطية: ثم قال له تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ على جهة التأنيس كأنه يقول: امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص فهو ينصرك ويظهرك<sup>(١)</sup>.

(قلت) وقد قال بعض السلف<sup>(٢)</sup>: «لا يهدين أحدكم الله ما يستحي أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء» أي هو أحق من كل شيء بالإكرام إذ كان أكرم من كل شيء.

وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام فهو المستحق لأن يجل ولأن يكرم والإجلال يتضمن التعظيم والإكرام يتضمن الحمد والمحبة.

وهذا كما قيل في صفة المؤمن: إنه رُزق حلاوة ومهابة<sup>(٣)</sup>.

وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ: «من رآه بديهته هابه ومن خالطه معرفة أحبه»<sup>(٤)</sup>.

وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع وبين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية والحكمة والرحمة وهم الذين يعبدونه ويحمدونه وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأن<sup>(٥)</sup> يعبد دون ما سواه والعبادة تتضمن غاية الذل وغاية الحب وأن

(١) المحرر الوجيز (٣٣٨/١٦).

(٢) كتب بهامش الأصل هو عروة بن الزبير (عبد الصمد).

(٣) ذكرها ابن القيم في جلاء الأفهام (١٢٠) عن الحسن البصري.

(٤) هو في الترمذي (٣٦٣٨) وفي الشماثل (٧، ١٩، ١٢٤) صحيح، وهذه هي رواية علي بن أبي طالب ﷺ ولم أجده في رواية هند بن أبي هالة المشهورة في صفة النبي ﷺ وقد شرح هذه العبارة ابن القيم في كتابه (جلاء الأفهام/١١٩ - ١٢٠).

(٥) في الأصل لا يعبد بإسقاط النون والظاهر أنه من سهو الناسخ (عبد الصمد).



المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يُعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة ولا رحمة يقتضي أنه لا يحمد.

فهم إنما يصفونه بالقدرة والقهر وهذا إنما يقتضي الإجلال فقط لا يقتضي الإكرام والمحبة والحمد وهو سبحانه الأكرم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيءٌ وَيُبْدِئُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج] ثم قال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج] وقال شعيب: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿١٧﴾﴾ [هود].

وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق وبأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقاً مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقاً لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة.

وإن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون: الحكمة هي القدرة وتارة يقولون: هي المشيئة وتارة يقولون: هي العلم.

وأن الحكمة وإن تضمنت ذلك واستلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً ولا كل من كان له علم يكون حكيماً حتى يكون عاملاً بعلمه.

قال ابن قتيبة وغيره: الحكمة هي العلم والعمل به وهي أيضاً: القول الصواب فتتناول القول السديد والعمل المستقيم الصالح.

والرب تعالى أحكم الحاكمين وأحكم الحكماء.

والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالإحكام على العلم وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيماً يفعل لحكمة.

وهم يقولون إنه لا يفعل لحكمة وإنما يفعل بمشيئة تخص المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص وهذا مناقض للحكمة بل هذا سفه.

وهو قد نزه نفسه عنه في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لِلنَّاسِ لَأَخْتَذَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا

فَعَلَيْنَ ﴿٧٧﴾ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿٧٨﴾ [الأنبياء].

وقد أخبر أنه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وأنه لم يخلقهما باطلاً وأن ذلك ظن الذين كفروا وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب.

والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ولا تُنزهه عن فعل وإن كان من منكرات الأفعال ولا تنعته بلوازم كرمه ورحمته وحكمته وعدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ولا يفعل ما يصاد ذلك.

بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون وإنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي أو عادة مطردة مع تناقضهم في الاستدلال بالخبر - أخبار الرسل وعادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء وعلى إرسال الرسل والأمر والنهي وعلى المعاد ونحو ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته وعن رحمته ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»<sup>(١)</sup> فهم في الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم.

### فصل

وقوله: ﴿الْأَكْرَمُ﴾ يقتضي اتصافه بالكرم في نفسه وأنه الأكرم وإنه محسن إلى عباده فهو مستحق للحمد لمحاسنه وإحسانه وقوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] فيه ثلاثة أقوال. قيل: أهل أن يجلب وأن يكرم كما يقال إنه (أهل التقوى) أي المستحق لأن يتقى وقيل: أهل أن يجلب في نفسه [و] أن يكرم أهل ولايته وطاعته وقيل: أهل أن يجلب في نفسه وأهل أن يكرم.

(١) مرّ تخريجه.

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة ونقل ابن الجوزي كلامه فقال: قال أبو سليمان الخطابي: الجلال مصدر الجليل يقال: جليل بين الجلالة والجلال والإكرام مصدر أكرم يكرم إكراماً والمعنى إنه يكرم أهل ولايته وطاعته وأن الله يستحق أن يُجَلَّ ويُكْرَم ولا يُجحد ولا يُكفر به قال: ويحتمل أن يكون المعنى: يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم.

(قلت) وهذا الذي ذكره البغوي فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ العظمة والكبرياء ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] يكرم أنبياءه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته.

قال الخطابي: وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين وهو الجلال مضافاً إلى الله بمعنى الصفة له والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة والآخر إلى العباد وهي التقوى قلت: القول الأول هو أقربها إلى المراد مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل جلاله بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً كقول النبي ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط». فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله أي من إجلال الله كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح] وكما يقال: كلمه كلاماً وأعطاه عطاء والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والإعطاء والجلال قرن بالإكرام وهو مصدر المتعدي فكذلك الإكرام ومن كلام السلف: «أجلوا الله أن تقولوا كذا» وفي حديث موسى: «يا رب إني أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها. قال؛ اذكرني على كل حال».

وإذا كان مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك كما إذا قال: الإله هو المستحق لأن يؤله أي يعبد كان هو في نفسه مستحقاً لما يوجب ذلك وإذا قيل: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقى.

ومنه قول النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول «ربنا ولك الحمد: ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا

ينفع ذا الجد منك الجد»<sup>(١)</sup> أي هو مستحق لأن يثنى عليه وتمجد نفسه.

والعباد لا يحصون ثناء عليه وهو كما أثنى على نفسه، كذلك هو أهل أن يجبل وأن يكرم وهو سبحانه يجبل نفسه ويكرم نفسه والعباد لا يحصون إجلاله وإكرامه.

والإجلال من جنس التعظيم، والإكرام من جنس الحب والحمد، وهذا كقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] فله الإجلال والملك وله الإكرام والحمد.

والصلاة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود والتحميد والتوحيد في القيام والقعود والتكبير في الانتقالات كما قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك<sup>(٢)</sup> رواه أبو داود.

وفي الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم» وقال النبي ﷺ: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راعياً أو ساجداً أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فَمِمَّنْ أَنْ يَسْتَجَابَ لَكُمْ»<sup>(٣)</sup>.

وإذا رفع رأسه حمد فقال: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فيحمده في هذا القيام كما يحمده في القيام الأول إذا قرأ أم القرآن فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم، ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا، أولها تحميد وأوسطها تمجيد ثم في الركوع تعظيم الرب وفي القيام يحمده ويثني عليه ويمجده.

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محموداً وكونه معبوداً فإنه يحب أن يحمد ويعبد ولا بد مع ذلك من التعظيم فإن التعظيم لازم لذلك.

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية فليس ذلك بأمور به ولا يصير العبد به لا مؤمناً ولا عابداً ولا مطيعاً. وأبو عبد الله بن الخطيب الرازي يجعل الجلال للصفات السلبية والإكرام للصفات الثبوتية فيسمي هذه صفات الجلال وهذه صفات الإكرام، وهذا اصطلاح له، وليس المراد هذا في قوله: ﴿وَبَقِيَ وَجَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقوله: ﴿بَرِّكَ أَسْمُ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [٧٨]. [الرحمن].

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

وهو في مصحف أهل الشام «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» وهي قراءة ابن عامر، فالاسم نفسه يُذوي بالجلال والإكرام. وفي سائر المصاحف - وهي قراءة الجمهور - (ذي الجلال) فيكون المسمى نفسه. وفي الأولى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فالمذوي وجهه سبحانه، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والإكرام، فإنه إذا كان وجهه ذا الجلال والإكرام كان ذلك تنبيهاً، كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال والإكرام كان تنبيهاً على المسمى.

وهذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يعجل ويكرم.

فإن الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى. والاسم نفسه لا يفعل شيئاً - لا إكراماً ولا غيره - ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الاسم.

ولكن يقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى] ﴿بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ١٧٨] ونحو ذلك فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة، والعبد يسبح اسم ربه الأعلى فيقول: «سبحان ربي الأعلى» ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»<sup>(١)</sup> فقالوا: سبحان ربي الأعلى.

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول: سبحان اسم ربي الأعلى، لكن قوله «سبحان ربي الأعلى» هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى لا يراد به تسبيح مجرد الاسم كقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] فالداعي يقول يا الله يا رحمن ومراده المسمى وقوله: ﴿أَيًّا مَا﴾ أي الاسمين تدعو ودعاء الاسم هو دعاء مسماه.

وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى، أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى فإذا قال المصلي الله أكبر فقد ذكر اسم ربه ومراده المسمى.

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج؛ فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال «ناراً» احترق لسانه، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود أن الجلال والإكرام مثل الملك والحمد كالمحبة والتعظيم، وهذا يكون في الصفات الثبوتية والسلبية؛ فإن كل سلب فهو متضمن للثبوت وأما السلب المحض فلا مدح فيه.

وهذا مما يظهر به فساد من جعل أحدهما للسلب والآخر للإثبات لا سيما إذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته ولا يثبتون له صفات توجب المحبة والحمد، بل إنما يثبتون ما يوجب القهر كالقدرة، فهؤلاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض وألحدوا في أسمائه وآياته بقدر ما كذبوا به من الحق كما بسط هذا في غير هذا الموضع<sup>(١)</sup>.

### فصل

قوله تعالى في أول ما أنزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ وقوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٢﴾، ذكر في الموضوعين بالإضافة التي توجب التعريف وأنه معروف عند المخاطبين؛ إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ومعرفته فطرية مغروزة في الفطرة ضرورية بديهية أولية.

وقوله: ﴿أَقْرَأْ﴾ وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ أولاً فهو خطاب لكل أحد سواء كان قوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٢﴾ هو خطاب للإنسان مطلقاً والنبي ﷺ أول من سمع هذا الخطاب أو من النوع أو هو خطاب للنبي ﷺ خصوصاً كما قد قيل في نظائر ذلك.

مثل قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْتٍ فَبِمَا آذَى اللَّهُ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِتْرٍ فَبِمَا نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] قيل خطاب له وقيل خطاب للجنس وأمثال ذلك فإنه وإن قيل إنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر ونهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص.

وبهذا يبين أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] يتناول غيره حتى قال كثير من المفسرين: الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره أي هم الذين أريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك وهو لم يرد منه السؤال إذ لم يكن عنده شك.

(١) مر تخريج جميع الآثار والأحاديث في موضع آخر سابق.

ولا شك أن هذا لا يمنع أن يكون هو مخاطباً ومراداً بالخطاب بل هذا صريح اللفظ فلا يجوز أن يقال إن الخطاب لم يتناوله ولأن ليس في الخطاب أنه أمر بالسؤال مطلقاً بل أمر به إن كان عنده شك وهذا لا يوجب أن يكون عنده شك ولا أنه أمر به مطلقاً بل أمر به إن كان هذا موجوداً والحكم المعلق بشرط عَدَمٍ عند عَدَمِهِ، وكذلك كثير من المفسرين يقول في قوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [البقرة] وفي قوله: ﴿وَلَا تَطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ونحو ذلك: إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره أي غيره قد يكون ممترياً ومطيعاً لأولئك فَنُهِيَ وهو لا يكون ممترياً ولا مطيعاً لهم.

ولكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضاً مخاطب بهذا وهو منهي عن هذا فالله سبحانه قد نهاه عما حَرَّمَهُ من الشرك والقول عليه بلا علم والظلم والفواحش وبنيهي الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ولولا النهي والطاعة لما استحق ذلك ولا يجب أن يكون الأمور المنهي ممن يشك في طاعته ويجوز عليه أن يعصي الرب أو يعصيه مطلقاً ولا يطيعه بل الله أمر الملائكة مع علمهم أنهم يطيعونه ويأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه.

ولا يقال: لا يحتاج إلى الأمر بل بالأمر صار مطيعاً مستحقاً لعظيم الثواب.

ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهي عنه وأنه لو شاء لفعله لثاب على ذلك إذا تركه وقد يقتضي قيام السبب الداعي إلى فعله فينهي عنه فإنه بالنهي وإعانة الله له على الامتثال يمتنع مما نهى عنه إذا قام السبب الداعي له إليه.

وكذلك قد قيل في قوله: ﴿سَلِّ بِئِنَّ إِسْرَؤِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] إنه أمر للرسول والمراد به هو المؤمنون وقيل هو أمر لكل مكلف.

فقوله في هذه السورة ﴿أَقْرَأْ﴾ كقوله في آخرها: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿١﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٢﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿٣﴾ [الضحى] هذا متناول لجميع الأمة وقوله: ﴿بِأَيِّهَا الْمُرْسَلُ﴾ ﴿٤﴾ قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥﴾ [المزمل] فإنه كان خطاباً للمؤمنين كلهم.

وكذلك قوله: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلْمُذْتَبِرِينَ ۖ فَرًّا مُّذْتَبِرِينَ ۝١١﴾ [المدثر] لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار وهذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنِينَ ۖ لَيَنْفِرُوا كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢﴾ [التوبة] والجن لما سمعوا القرآن ﴿وَأَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وإذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه فإذا قيل له: ﴿أَقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ﴾ عرف ربه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه كما يعرف أنه مخلوق والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه.

وقد بسط هذا في غير الموضع وبين أن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة وتارة بالنظر كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين.

وهذه الآية أيضاً تدل على أنه ليس النظر أول واجب بل أول ما أوجب الله على نبيه ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: انظر واستدل حتى تعرف الخالق.

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال.

وقد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن اعتراف النفس بالخالق وإثباتها له لا يحصل إلا بالنظر.

ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظراً مخصوصاً وهو النظر في الأعراض وأنها لازمة للأجسام فيمتنع وجود الأجسام بدونها.

قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ثم منهم من اعتقد أن هذه المقدمة بينة لنفسها بل ضرورية ولم يميز بين الحادث المعين والمحدود وبين الجنس المتصل شيئاً بعد شيء إما لظنه أن هذا ممتنع أو لعدم خطوره بقلبه لكن وإن قيل هو ممتنع فليس العلم بذلك بديهياً.

وإنما العلم البديهي أن الحادث الذي له مبدأ محدود كالحادث. والحوادث



المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها فهو حادث وما لا يخلو منها لم يسبقها فهو حادث فإنه إذا لم يسبقها كان معها أو متأخراً عنها وعلى التقديرين فهو حادث.

وأما إذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء فهذا إما أن يقال هو ممكن وإما أن يقال: هو ممتنع لكن العلم بامتناعه يحتاج إلى دليل ولم تُعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا: إن العلم بامتناع هذا بديهي ضروري ولا يفترق إلى دليل.

بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصوراً تاماً بل متى تصور الحادث قدر [في] (١) ذهنه مبدأ ثم يتقدم في ذهنه شيء قبل ذلك ثم شيء قبل ذلك لكن إلى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه كما يقدر الذهن عدداً بعد عدد ولكن كل ما يقدره الذهن فهو منته.

ومن الناس من إذا قيل له «الأزل» أو «كان هذا موجوداً في الأزل» تصور ذلك وهذا غلط بل الأزل ما ليس له أول كما أن الأبد ليس له آخر وكل ما يومئ إليه الذهن من غاية فـ«الأزل» وراءها وهذا لبسطه موضع آخر.

والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا: معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر ثم قالوا: لا تحصل إلا بهذا النظر هم من أهل الكلام الجهمية المقدرية من تبعهم. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النظر المعين وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه؛ إذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة ثم هذا الدليل للناس فيه ثلاثة أقوال.

قيل: إنه واجب وأن المعرفة موقوفة عليه كما يقوله هؤلاء.

وقيل: بل يمكن حصول المعرفة بدونه لكنه طريق آخر إلى المعرفة وهذا يقوله كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكن لا يوجبها كالخطابي والقاضي أبي يعلى وأبي جعفر السمناني (٢) قاضي الموصل شيخ أبي الوليد الباجي وكان يقول:

(١) زيادة من صاحب المجموع.

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناني أبو جعفر ولد عام (٣٦١هـ) وهو قاض حنفي أصله من سمنان العراق نشأ ببغداد وولي القضاء بالموصل إلى أن توفي عام (٤٤٤هـ) وكان مقدم الأشعرية في وقته وشنع عليه ابن حزم له تصانيف في الفقه.

إيجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبي الحسن الأشعري من الاعتزال، وهؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر.

ومنهم من لا يوجب النظر مطلقاً كالسمناني وابن حزم وغيرهما ومنهم من يوجهه في الجملة كالخطابي وأبي الفرج المقدسي.

والقاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة وبهذا تارة بل ويقول تارة بإيجاب النظر المعين كما يقوله أبو المعالي وغيره.

ثم من الموجبين للنظر من يقول: هو أول الواجبات ومنهم من يقول: بل المعرفة الواجبة به وهو نزاع لفظي كما أن بعضهم قال: أول الواجبات القصد إلى النظر كعبارة أبي المعالي ومن هؤلاء من قال: بل الشك المتقدم كما قاله أبو هاشم.

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في موضع آخر وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة بل وباطلة في العقل أيضاً.

وهذه الآية مما يستدل به على ذلك فإن أول ما أوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين هو ما أمر به في قوله: ﴿أَقْرَأْ بِآسِرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ والذين قالوا: المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا: لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر وغيره.

فيقال لهم: وليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحداً أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم ولكن أكثر الرسل افتتحوها دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب وقومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ.

ومن الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْمَلْ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ [القصص] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ۝﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لموسى: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَهَا غَيْرِي لَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢٩] وقال: ﴿يَنْهَمُنُّ أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝﴾ [سَبَبِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا ۝﴾ [غافر].

ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْفُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَعْزِيبُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهَلُمَّ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْمَانِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعْمُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرٍكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَاكَ أَلْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَهَبَ لِىَ رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء].

قال فرعون إنكاراً وجحداً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبِّي ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَّىٰ أَرْسِلْ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٍ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء].

وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما الجني؟ ونحو ذلك قالوا: ولما لم يكن للمسؤول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل.

فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بشبوته بل كان منكرأ له جاحداً ولهذا قال في تمام الكلام ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَٰهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقال: ﴿وَإِنِّي لِأَطْنُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً يقول: ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا؟ إنكاراً له.

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى في موضع آخر لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿وَصَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَطُغْيَانًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [النمل].

ولم يقل فرعون: ومن رب العالمين؟ فإن «من» سؤال عن عينه يسأل بها من عرف

جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه كما يقال لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان من أرسلك؟؟

وأما ما؟ فهي سؤال عن الوصف يقول: أي شيء هو هذا؟ وما هو هذا الذي سميته رب العالمين قال ذلك منكرأ له جاحداً فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تُوقِنِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الدخان].

ولم يقل موقنين بكذا وكذا بل أطلق فأبي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وإن قلتم: لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة مدعيها كاذب ظاهر الكذب؛ فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لا بد له من علم ولهذا قيل في حد العقل إنه علوم ضرورية وهي التي لا يخلو منها عاقل.

فلما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وهذا من افتراء المكذبين على الرسول<sup>(١)</sup> لما خرجوا عن عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق أو للاسترابة والشك فيه هذه حال عامتهم ودينهم وهذا عندهم دين حسن وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع وأنتم أحق بهذا الوصف فقال: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به واليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل.

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل: إنه ليس له عقل ويقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به: إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب ويراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل.

(١) كذا بالإفراد والجمع أولى كما قال بعده نسبوهم بالجمع (عبد الصمد).

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل ولا يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين: إن كان لك يقين فقد عرفته وإن كان لك عقل فقد عرفته وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك فكذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان ومن يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولكم عقل تعرفونه به ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل وهو إرادة العلو في الأرض والفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار كما قال أصحاب النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى عن الكفار: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ [الفرقان]، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الزخرف] والخفيف هو السفيف الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصولة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه وتُقرُّ به وكل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته.

ولهذا قال الله في خطابه لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ويعرف إنعامه عليه وإحسانه إليه وافتقاره إليه فذلك يدعو إلى الإيمان ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] ما ينذره به من العذاب فذلك أيضاً يدعو إلى الإيمان كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب.

فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه فإن الحق في الفطرة وهو أحب إليها وأجل فيها وألذ عندها من الباطل لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذلك.

فإن لم يدعه الحق والعلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان وما في ذلك من

العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حي يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع.

فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به واستحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لا بد من نوع من الغفلة والجهل حتى يتبعه، ولهذا كان كل عاص لله جاهلاً كما قد بسط هذا في مواضع.

إذ المقصود هنا التنبيه على أن قوله: ﴿أَقْرَأْ بِآيَاتِ رَبِّكَ﴾ فيه تنبيه على أن الرب معروف عند المخاطبين وأن الفطر مقررة به.

وعلى ذلك دل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كما قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضوع.

وكذلك قول الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١] هو نفي أي ليس في الله شك وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير.

فإن حرف الاستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريراً كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح] ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البعد] ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٠] ومثله كثير بخلاف استفهام فرعون فإنه استفهام إنكار لا تقرير إذ ليس هناك إلا أداة الاستفهام فقط ودل سياق الكلام على أنه إنكار.

فإن قيل: إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار نظار المسلمين وغيرهم وهو يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية؟

فيقال أولاً: أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذي<sup>(١)</sup> اتفق السلف على ذمه من الجهمية والقدرية وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في

(١) في الأصل الذين (عبد الصمد).

الأصل عن علماء المسلمين وليس كذلك إنما صدر أولاً عن ذمة أئمة الدين وعلماء المسلمين.

الثاني: أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به.

وهذا كصفات بدنه فإن منها ما لا يراه كوجهه وبقائه ومنها ما يراه إذا تعمد النظر إليه كبطنه وفخذه وعضديه وقد يكون بهما آثار من خيلان وغير خيلان وغير ذلك من الأحوال وهو لم يره ولم يعرفه لكن لو تعمد رؤيته لرآه، ومن الناس من لا يستطيع رؤية ذلك لعارض عرض لبصره من العشي أو العمي أو غير ذلك.

كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها وبعضها لا يعرفه لكن لو تعمد تأمل حال نفسه لعرفه ومنها ما لا يعرفه ولو تأمل لفساد بصيرته وما عرض لها.

والذي يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تتصور إلا بإرادة تقوم بنفس الإنسان وكل من فعل فعلاً اختيارياً وهو يعرفه فلا بد أن يريد كالذي يأكل ويشرب ويلبس وهو يعرف أنه يفعل ذلك فلا بد أن يريد فالفعل الاختياري يمتنع أن يكون بغير إرادة وإذا تصور الفعل الذي يفعله وقد فعله لزم أن يكون مريداً وقد تصوره وإذا كان مريداً له وقد تصوره امتنع أن لا يريد ما تصوره وفعله.

فالإنسان إذا قام إلى صلاة يعلم أنها الظهر فمن الممتنع أن يصلي الظهر وهو يعلم هذا لم ينسه ولا يريد صلاة الظهر.

وكذلك الصيام إذا تصور أن غداً من رمضان وهو يريد لصوم رمضان امتنع أن لا ينوي صومه.

وكذلك إذا أهل بالحج<sup>(١)</sup> وهو يعلم أنه مهل به امتنع أن لا يكون مريداً للحج.

وكذلك الوضوء إذا علم أنه يتوضأ للصلاة وهو يتوضأ امتنع أن لا يكون مريداً للوضوء ومثل هذا كثير نجد خلقاً كثيراً من العلماء دع العامة يستدعون النية بألفاظ

(١) في الأصل الحج (عبد الصمد).

يقولونها ويتكلمون ألفاظاً ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، ويخرجون إلى ضرب من الوسوسة التي يشبه أصحابها المجانين.

والنية هي الإرادة وهي القصد وهي موجودة في نفوسهم لوجودها في نفس كل من يصلي في ذلك المسجد والجامع ومن توضأ في تلك المطهرة، أولئك يعلمون هذا من نفوسهم ولم يحصل لهم وسواس وهؤلاء ظنوا أن النية لم تكن في قلوبهم - يطلبون حصولها من قلوبهم.

وهم يعلمون أن التلفظ بها ليس بواجب وإنما الفرض وجود الإرادة في القلب وهي موجودة ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة وإذا قيل لأحدهم: النية حاصلة في قلبك لم يقبل لِمَا قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته.

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه أو يسب الله ويذكره بما لا يليق به، فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سب أبوه وأمه.

ومع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله وقالوا: يمتنع أن يكون محباً أو محبوباً وجعلوا هذا من أصول الدين وقالوا: خلافاً للحلولية كأنه لم يقل بأن الله يحب إلا الحلولية ومعلوم أن هذا دين الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين وأهل الإيمان أجمعين، وقد دل على ذلك الكتاب كما قد بسطناه في مواضع.

فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له.

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا: معرفته لا تحصل إلا بالنظر فأنكروا ما في فطرتهم وقلوبهم من معرفته ومحبته.

ثم قد يكون ذلك الإنكار سبباً إلى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة فإن الفطرة قد تفسد، فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ



لَخَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الذَّبِيحُ الْقَتِيحُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿١١١﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿١٧٦﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾ ﴿٢٠٤﴾ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٧﴾ ﴿٢٠٨﴾ ﴿٢٠٩﴾ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾ ﴿٢١٢﴾ ﴿٢١٣﴾ ﴿٢١٤﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿٢١٧﴾ ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿٢٢٣﴾ ﴿٢٢٤﴾ ﴿٢٢٥﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿٢٢٧﴾ ﴿٢٢٨﴾ ﴿٢٢٩﴾ ﴿٢٣٠﴾ ﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢﴾ ﴿٥٣٣﴾ ﴿٥٣٤﴾ ﴿٥٣٥﴾ ﴿٥٣٦﴾ ﴿٥٣٧﴾ ﴿٥٣٨﴾ ﴿٥٣٩﴾ ﴿٥٤٠﴾ ﴿٥٤١﴾ ﴿٥٤٢﴾ ﴿٥٤٣﴾ ﴿٥٤٤﴾ ﴿٥٤٥﴾ ﴿٥٤٦﴾ ﴿٥٤٧﴾ ﴿٥٤٨﴾ ﴿٥٤٩﴾ ﴿٥٥٠﴾ ﴿٥٥١﴾ ﴿٥٥٢﴾ ﴿٥٥٣﴾ ﴿٥٥٤﴾ ﴿٥٥٥﴾ ﴿٥٥٦﴾ ﴿٥٥٧﴾ ﴿٥٥٨﴾ ﴿٥٥٩﴾ ﴿٥٦٠﴾ ﴿٥٦١﴾ ﴿٥٦٢﴾ ﴿٥٦٣﴾ ﴿٥٦٤﴾ ﴿٥٦٥﴾ ﴿٥٦٦﴾ ﴿٥٦٧﴾ ﴿٥٦٨﴾ ﴿٥٦٩﴾ ﴿٥٧٠﴾ ﴿٥٧١﴾ ﴿٥٧٢﴾ ﴿٥٧٣﴾ ﴿٥٧٤﴾ ﴿٥٧٥﴾ ﴿٥٧٦﴾ ﴿٥٧٧﴾ ﴿٥٧٨﴾ ﴿٥٧٩﴾ ﴿٥٨٠﴾ ﴿٥٨١﴾ ﴿٥٨٢﴾ ﴿٥٨٣﴾ ﴿٥٨٤﴾ ﴿٥٨٥﴾ ﴿٥٨٦﴾ ﴿٥٨٧﴾ ﴿٥٨٨﴾ ﴿٥٨٩﴾ ﴿٥٩٠﴾ ﴿٥٩١﴾ ﴿٥٩٢﴾ ﴿٥٩٣﴾ ﴿٥٩٤﴾ ﴿٥٩٥﴾ ﴿٥٩٦﴾ ﴿٥٩٧﴾ ﴿٥٩٨﴾ ﴿٥٩٩﴾ ﴿٦٠٠﴾ ﴿٦٠١﴾ ﴿٦٠٢﴾ ﴿٦٠٣﴾ ﴿٦٠٤﴾ ﴿٦٠٥﴾ ﴿٦٠٦﴾ ﴿٦٠٧﴾ ﴿٦٠٨﴾ ﴿٦٠٩﴾ ﴿٦١٠﴾ ﴿٦١١﴾ ﴿٦١٢﴾ ﴿٦١٣﴾ ﴿٦١٤﴾ ﴿٦١٥﴾ ﴿٦١٦﴾ ﴿٦١٧﴾ ﴿٦١٨﴾ ﴿٦١٩﴾ ﴿٦٢٠﴾ ﴿٦٢١﴾ ﴿٦٢٢﴾ ﴿٦٢٣﴾ ﴿٦٢٤﴾ ﴿٦٢٥﴾ ﴿٦٢٦﴾ ﴿٦٢٧﴾ ﴿٦٢٨﴾ ﴿٦٢٩﴾ ﴿٦٣٠﴾ ﴿٦٣١﴾ ﴿٦٣٢﴾ ﴿٦٣٣﴾ ﴿٦٣٤﴾ ﴿٦٣٥﴾ ﴿٦٣٦﴾ ﴿٦٣٧﴾ ﴿٦٣٨﴾ ﴿٦٣٩﴾ ﴿٦٤٠﴾ ﴿٦٤١﴾ ﴿٦٤٢﴾ ﴿٦٤٣﴾ ﴿٦٤٤﴾ ﴿٦٤٥﴾ ﴿٦٤٦﴾ ﴿٦٤٧﴾ ﴿٦٤٨﴾ ﴿٦٤٩﴾ ﴿٦٥٠﴾ ﴿٦٥١﴾ ﴿٦٥٢﴾ ﴿٦٥٣﴾ ﴿٦٥٤﴾ ﴿٦٥٥﴾ ﴿٦٥٦﴾ ﴿٦٥٧﴾ ﴿٦٥٨﴾ ﴿٦٥٩﴾ ﴿٦٦٠﴾ ﴿٦٦١﴾ ﴿٦٦٢﴾ ﴿٦٦٣﴾ ﴿٦٦٤﴾ ﴿٦٦٥﴾ ﴿٦٦٦﴾ ﴿٦٦٧﴾ ﴿٦٦٨﴾ ﴿٦٦٩﴾ ﴿٦٧٠﴾ ﴿٦٧١﴾ ﴿٦٧٢﴾ ﴿٦٧٣﴾ ﴿٦٧٤﴾ ﴿٦٧٥﴾ ﴿٦٧٦﴾ ﴿٦٧٧﴾ ﴿٦٧٨﴾ ﴿٦٧٩﴾ ﴿٦٨٠﴾ ﴿٦٨١﴾ ﴿٦٨٢﴾ ﴿٦٨٣﴾ ﴿٦٨٤﴾ ﴿٦٨٥﴾ ﴿٦٨٦﴾ ﴿٦٨٧﴾ ﴿٦٨٨﴾ ﴿٦٨٩﴾ ﴿٦٩٠﴾ ﴿٦٩١﴾ ﴿٦٩٢﴾ ﴿٦٩٣﴾ ﴿٦٩٤﴾ ﴿٦٩٥﴾ ﴿٦٩٦﴾ ﴿٦٩٧﴾ ﴿٦٩٨﴾ ﴿٦٩٩﴾ ﴿٧٠٠﴾ ﴿٧٠١﴾ ﴿٧٠٢﴾ ﴿٧٠٣﴾ ﴿٧٠٤﴾ ﴿٧٠٥﴾ ﴿٧٠٦﴾ ﴿٧٠٧﴾ ﴿٧٠٨﴾ ﴿٧٠٩﴾ ﴿٧١٠﴾ ﴿٧١١﴾ ﴿٧١٢﴾ ﴿٧١٣﴾ ﴿٧١٤﴾ ﴿٧١٥﴾ ﴿٧١٦﴾ ﴿٧١٧﴾ ﴿٧١٨﴾ ﴿٧١٩﴾ ﴿٧٢٠﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿٧٢٢﴾ ﴿٧٢٣﴾ ﴿٧٢٤﴾ ﴿٧٢٥﴾ ﴿٧٢٦﴾ ﴿٧٢٧﴾ ﴿٧٢٨﴾ ﴿٧٢٩﴾ ﴿٧٣٠﴾ ﴿٧٣١﴾ ﴿٧٣٢﴾ ﴿٧٣٣﴾ ﴿٧٣٤﴾ ﴿٧٣٥﴾ ﴿٧٣٦﴾ ﴿٧٣٧﴾ ﴿٧٣٨﴾ ﴿٧٣٩﴾ ﴿٧٤٠﴾ ﴿٧٤١﴾ ﴿٧٤٢﴾ ﴿٧٤٣﴾ ﴿٧٤٤﴾ ﴿٧٤٥﴾ ﴿٧٤٦﴾ ﴿٧٤٧﴾ ﴿٧٤٨﴾ ﴿٧٤٩﴾ ﴿٧٥٠﴾ ﴿٧٥١﴾ ﴿٧٥٢﴾ ﴿٧٥٣﴾ ﴿٧٥٤﴾ ﴿٧٥٥﴾ ﴿٧٥٦﴾ ﴿٧٥٧﴾ ﴿٧٥٨﴾ ﴿٧٥٩﴾ ﴿٧٦٠﴾ ﴿٧٦١﴾ ﴿٧٦٢﴾ ﴿٧٦٣﴾ ﴿٧٦٤﴾ ﴿٧٦٥﴾ ﴿٧٦٦﴾ ﴿٧٦٧﴾ ﴿٧٦٨﴾ ﴿٧٦٩﴾ ﴿٧٧٠﴾ ﴿٧٧١﴾ ﴿٧٧٢﴾ ﴿٧٧٣﴾ ﴿٧٧٤﴾ ﴿٧٧٥﴾ ﴿٧٧٦﴾ ﴿٧٧٧﴾ ﴿٧٧٨﴾ ﴿٧٧٩﴾ ﴿٧٨٠﴾ ﴿٧٨١﴾ ﴿٧٨٢﴾ ﴿٧٨٣﴾ ﴿٧٨٤﴾ ﴿٧٨٥﴾ ﴿٧٨٦﴾ ﴿٧٨٧﴾ ﴿٧٨٨﴾ ﴿٧٨٩﴾ ﴿٧٩٠﴾ ﴿٧٩١﴾ ﴿٧٩٢﴾ ﴿٧٩٣﴾ ﴿٧٩٤﴾ ﴿٧٩٥﴾ ﴿٧٩٦﴾ ﴿٧٩٧﴾ ﴿٧٩٨﴾ ﴿٧٩٩﴾ ﴿٨٠٠﴾ ﴿٨٠١﴾ ﴿٨٠٢﴾ ﴿٨٠٣﴾ ﴿٨٠٤﴾ ﴿٨٠٥﴾ ﴿٨٠٦﴾ ﴿٨٠٧﴾ ﴿٨٠٨﴾ ﴿٨٠٩﴾ ﴿٨١٠﴾ ﴿٨١١﴾ ﴿٨١٢﴾ ﴿٨١٣﴾ ﴿٨١٤﴾ ﴿٨١٥﴾ ﴿٨١٦﴾ ﴿٨١٧﴾ ﴿٨١٨﴾ ﴿٨١٩﴾ ﴿٨٢٠﴾ ﴿٨٢١﴾ ﴿٨٢٢﴾ ﴿٨٢٣﴾ ﴿٨٢٤﴾ ﴿٨٢٥﴾ ﴿٨٢٦﴾ ﴿٨٢٧﴾ ﴿٨٢٨﴾ ﴿٨٢٩﴾ ﴿٨٣٠﴾ ﴿٨٣١﴾ ﴿٨٣٢﴾ ﴿٨٣٣﴾ ﴿٨٣٤﴾ ﴿٨٣٥﴾ ﴿٨٣٦﴾ ﴿٨٣٧﴾ ﴿٨٣٨﴾ ﴿٨٣٩﴾ ﴿٨٤٠﴾ ﴿٨٤١﴾ ﴿٨٤٢﴾ ﴿٨٤٣﴾ ﴿٨٤٤﴾ ﴿٨٤٥﴾ ﴿٨٤٦﴾ ﴿٨٤٧﴾ ﴿٨٤٨﴾ ﴿٨٤٩﴾ ﴿٨٥٠﴾ ﴿٨٥١﴾ ﴿٨٥٢﴾ ﴿٨٥٣﴾ ﴿٨٥٤﴾ ﴿٨٥٥﴾ ﴿٨٥٦﴾ ﴿٨٥٧﴾ ﴿٨٥٨﴾ ﴿٨٥٩﴾ ﴿٨٦٠﴾ ﴿٨٦١﴾ ﴿٨٦٢﴾ ﴿٨٦٣﴾ ﴿٨٦٤﴾ ﴿٨٦٥﴾ ﴿٨٦٦﴾ ﴿٨٦٧﴾ ﴿٨٦٨﴾ ﴿٨٦٩﴾ ﴿٨٧٠﴾ ﴿٨٧١﴾ ﴿٨٧٢﴾ ﴿٨٧٣﴾ ﴿٨٧٤﴾ ﴿٨٧٥﴾ ﴿٨٧٦﴾ ﴿٨٧٧﴾ ﴿٨٧٨﴾ ﴿٨٧٩﴾ ﴿٨٨٠﴾ ﴿٨٨١﴾ ﴿٨٨٢﴾ ﴿٨٨٣﴾ ﴿٨٨٤﴾ ﴿٨٨٥﴾ ﴿٨٨٦﴾ ﴿٨٨٧﴾ ﴿٨٨٨﴾ ﴿٨٨٩﴾ ﴿٨٩٠﴾ ﴿٨٩١﴾ ﴿٨٩٢﴾ ﴿٨٩٣﴾ ﴿٨٩٤﴾ ﴿٨٩٥﴾ ﴿٨٩٦﴾ ﴿٨٩٧﴾ ﴿٨٩٨﴾ ﴿٨٩٩﴾ ﴿٩٠٠﴾ ﴿٩٠١﴾ ﴿٩٠٢﴾ ﴿٩٠٣﴾ ﴿٩٠٤﴾ ﴿٩٠٥﴾ ﴿٩٠٦﴾ ﴿٩٠٧﴾ ﴿٩٠٨﴾ ﴿٩٠٩﴾ ﴿٩١٠﴾ ﴿٩١١﴾ ﴿٩١٢﴾ ﴿٩١٣﴾ ﴿٩١٤﴾ ﴿٩١٥﴾ ﴿٩١٦﴾ ﴿٩١٧﴾ ﴿٩١٨﴾ ﴿٩١٩﴾ ﴿٩٢٠﴾ ﴿٩٢١﴾ ﴿٩٢٢﴾ ﴿٩٢٣﴾ ﴿٩٢٤﴾ ﴿٩٢٥﴾ ﴿٩٢٦﴾ ﴿٩٢٧﴾ ﴿٩٢٨﴾ ﴿٩٢٩﴾ ﴿٩٣٠﴾ ﴿٩٣١﴾ ﴿٩٣٢﴾ ﴿٩٣٣﴾ ﴿٩٣٤﴾ ﴿٩٣٥﴾ ﴿٩٣٦﴾ ﴿٩٣٧﴾ ﴿٩٣٨﴾ ﴿٩٣٩﴾ ﴿٩٤٠﴾ ﴿٩٤١﴾ ﴿٩٤٢﴾ ﴿٩٤٣﴾ ﴿٩٤٤﴾ ﴿٩٤٥﴾ ﴿٩٤٦﴾ ﴿٩٤٧﴾ ﴿٩٤٨﴾ ﴿٩٤٩﴾ ﴿٩٥٠﴾ ﴿٩٥١﴾ ﴿٩٥٢﴾ ﴿٩٥٣﴾ ﴿٩٥٤﴾ ﴿٩٥٥﴾ ﴿٩٥٦﴾ ﴿٩٥٧﴾ ﴿٩٥٨﴾ ﴿٩٥٩﴾ ﴿٩٦٠﴾ ﴿٩٦١﴾ ﴿٩٦٢﴾ ﴿٩٦٣﴾ ﴿٩٦٤﴾ ﴿٩٦٥﴾ ﴿٩٦٦﴾ ﴿٩٦٧﴾ ﴿٩٦٨﴾ ﴿٩٦٩﴾ ﴿٩٧٠﴾ ﴿٩٧١﴾ ﴿٩٧٢﴾ ﴿٩٧٣﴾ ﴿٩٧٤﴾ ﴿٩٧٥﴾ ﴿٩٧٦﴾ ﴿٩٧٧﴾ ﴿٩٧٨﴾ ﴿٩٧٩﴾ ﴿٩٨٠﴾ ﴿٩٨١﴾ ﴿٩٨٢﴾ ﴿٩٨٣﴾ ﴿٩٨٤﴾ ﴿٩٨٥﴾ ﴿٩٨٦﴾ ﴿٩٨٧﴾ ﴿٩٨٨﴾ ﴿٩٨٩﴾ ﴿٩٩٠﴾ ﴿٩٩١﴾ ﴿٩٩٢﴾ ﴿٩٩٣﴾ ﴿٩٩٤﴾ ﴿٩٩٥﴾ ﴿٩٩٦﴾ ﴿٩٩٧﴾ ﴿٩٩٨﴾ ﴿٩٩٩﴾ ﴿١٠٠٠﴾

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

## فصل

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموماً وخلق الإنسان خصوصاً وأن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم.

ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً، بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة قادرة، حتى أفعال الجمادات كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها وكذلك الإنسان وغيره.

والخلق أعظم الأفعال فإنه لا يقدر عليه إلا الله، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة، وليس لها نظير من قدر المخلوقين.

وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة.

وكذلك كل منهما يستلزم العلم، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالماً بما علمه إياه، وإلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو، فمن علم كل شيء الإنسان وغيره ما لم يعلم أولى أن يكون عالماً بما علمه، والخلق أيضاً يستلزم العلم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [المك] وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذلك، والإرادة تستلزم العلم فلا يريد المرید إلا ما شعر به وتصور في نفسه، والإرادة بدون الشعور ممتنعة.

وأيضاً فنفس الخلق - خلق الإنسان - هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات، وفيه من الإحكام والاتقان ما قد بهر العقول، والفعل المحكم المتقن لا

يكون إلا من عالم بما فعل، وهذا معلوم بالضرورة، فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه، ومن هذا الوجه.

وقد قال في سورة الملك: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة والعلم بالطريق الموصل وكذلك الخبرة وبسط هذا يطول؛ إذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حياً وكذلك الإرادة تستلزم الحياة.

والحي إذا لم يكن سمياً بصيراً متكلاً كان متصفاً بضد ذلك من العمى والصمم والخرس، وهذا ممتنع في حق الرب تعالى، فيجب أن يتصف بكونه سمياً بصيراً متكلاً.

والإرادة إما أن تكون لغاية حكيمة أولاً فإن لم تكن لغاية حكيمة كانت سفهاً، وهو منزّه عن ذلك، فيجب أن يكون حكيماً.

وهو إما أن يقصد نفع الخلق والإحسان إليهم أو يقصد مجرد ضررهم وتعذيبهم، أو لا يقصد واحداً منهما، بل يريد ما يراد سواء كان كذا أو كذا، والثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه، والثالث سفيه عابث فتعين أنه تعالى رحيم، كما أنه حكيم، كما قد بسط في مواضع.

.....

والمقصود هنا أن كل واحد من ذكّر أنه خَلَقَ، وأنه الأكرم الذي علم بالقلم، يدل على هاتين الطريقتين من إثبات الصفات، كما دلنا على الطريقة الأولى طريقة الاستدلال بالفعل.

فإن قوله: ﴿الْأَكْرَمُ﴾ يقتضي أنه أفضل من غيره في الكرم والكرم اسم جامع لجميع المحاسن، فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد، والمحامد هي صفات الكمال، فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق والرحمة وأحق بالحكمة وأحق بالقدرة، والعلم، والحياة وغير ذلك.

وكذلك قوله: ﴿خَلَقَ﴾ فإن الخالق قديم أزلي، مستغن بنفسه واجب الوجود بنفسه، قيوم، ومعلوم أنه أحق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن.

فهذا من جهة قياس الأولى ومن جهة الأثر فإن الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً.

﴿الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ فجعله عليمًا، والعليم لا يكون إلا حياً، وكرمه أيضاً أن يكون قديراً سميعاً بصيراً، والأكرم الذي جعل غيره عليمًا هو أولى أن يكون عليمًا، وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد.

فهذا استدلال بالمخلوق الخاص، والأول استدلال بجنس الخلق، ولهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف، وكذلك طريقة التفضيل، والأولى أن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق، وهذه الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل وغيرهم كالنصارى، فإنهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق، لكن سموه جوهرًا وضلوا في جعل الصفات ثلاثة، وهي الأقانيم.

فقالوا: وجدنا الأشياء تنقسم إلى جوهر وغير جوهر والجوهر أعلى النوعين فقلنا: هو جوهر، ثم وجدنا الجوهر ينقسم إلى حي وغير حي، ووجدنا الحي أكمل، فقلنا: هو حي، ووجدنا الحي ينقسم إلى ناطق وغير ناطق فقلنا: هو ناطق.

وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال: إن الأشياء تنقسم إلى قادر وغير قادر، والقادر أكمل، وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في الكتاب الذي سميناه: (الجواب الصحيح لمن يدل دين المسيح).

والمقصود هنا التنبيه على دلالة هذه الآية - وهذه الآيات التي هي أول ما نزل - على أصول الدين.

وقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ يدل على قدرته على تعليم الإنسان ما قد علمه مع كون جنس الإنسان فيه أنواع من النقص، فإذا كان قادراً على ذلك التعليم فقدوته على تعليم الأنبياء ما علمهم أولى وأحرى، وذلك يدخل في قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ فإن الأنبياء من الناس.

فقد دلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية فإن إمكان النبوات هو آخر ما يعلم بالعقل.

وأما وجود الأنبياء وآياتهم فيعلم بالسمع المتواتر مع أن قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) يدخل فيه إثبات تعليمه للأنبياء ما علمهم فهي تدل على الإمكان والوقوع. وقد ذكرنا في مواضع أن تنزيهه يرجع إلى أصليين:

تنزيهه عن النقص المناقض لكماله، فما دل على ثبوت الكمال له فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله.

وهذا مما يبين أن تنزهه عن النقص معلوم بالعقل بخلاف ما قال طائفة من المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع.

وقد بينا في غير هذا الموضع أن الطرق العقلية التي سلكوها من الاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام لا تدل على إثباته ولا على إثبات شيء من صفات الكمال ولا على تنزهه عن شيء من النقائص فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئاً من النقائص، وهم معترفون بأن الأفعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات لكن طريقهم في الصفات فاسد متناقض، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

الثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال والقرآن مملوء بإثبات هذين الأصليين - بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل - وتنزيهه عن التمثيل ﴿لَا يَكُنْ لَكَ كَمِثْلٌ شَيْءٌ﴾ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

### فصل

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّيَ الَّذِي أَخْلَقَ﴾ وقوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) يدل على إثبات أفعاله وأقواله.

فالخلق فعله والتعليم يتناول تعليم ما أنزله كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٢) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ (٣) ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٤) [الرحمن] وقوله: ﴿بِالْقَلَمِ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم، ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك، فإن سبب اللفظ المطلق والعام لا بد أن يكون مندرجاً فيه، وإذا دل على أنه خلق وتكلم.

وقد قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن] ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له، وكذلك خلقه لغيره، والذين نازعوا في ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم، كما قد ذكر بعد هذا وفي مواضع، وإلا فهم لا يتنازعون أن ﴿خَلَقَ﴾ فعل له مصدر - يقال: - خلق يخلق خلقاً - والإنسان مفعول المصدر - والمخلوق ليس هو المصدر.

ولكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول كما يقال: «درهم ضَرَبُ الأمير» ومنه قوله: «هذا خَلَقُ الله» والمراد هناك: هذا مخلوق الله، وليس الكلام في لفظ (خَلَقِ) المراد به المخلوق، بل في لفظ الخلق المراد به الفعل الذي يسمى المصدر كما يقال: خلق يخلق خلقاً وكقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وإذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئته وما كان بالمشيئة امتنع قدم عينه بل يجوز قدم نوعه.

وإذا كان الخلق للحدث لا بد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفاً بما يقوم به من الأمور الاختيارية لكن إن ثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق.

وكذلك الكلام هو متكلم بمشيئته ويمتنع أن لا يكون متكلماً ثم يصير متكلماً لوجهين:

أحدهما: أنه سلب لكماله والكلام صفة كمال.

والثاني: أنه يمتنع حدوث ذلك فإن من لا يكون متكلماً يمتنع أن يجعل نفسه متكلماً ومن لا يكون علماً يمتنع أن يجعل نفسه عالماً، ومن لا يكون حياً يمتنع أن يجعل نفسه حياً، فهذه الصفات من لوازم ذاته.

وكذلك من لا يكون خالقاً يمتنع أن يجعل نفسه خالقاً، فإنه إذا لم يكن قادراً على أن يخلق فجعله نفسه خالقة أعظم، فيكون هذا ممتنعاً بطريق الأولى، فإن جعل نفسه خالقه يستلزم وجود المخلوق، ولهذا لما كان قادراً على جعل الإنسان فاعلاً

كان هو الخالق لما يفعله الإنسان، فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه.

فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقاً في الأزل امتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الأزل امتناعه دائماً وقد دلت الآية على أنه خلق فعلم أنه ما زال قادراً على الخلق ما زال يمكنه أن يخلق، وما زال الخلق ممكناً مقدوراً وهذا يبطل أصل الجهمية.

بل وإذا كان قادراً عليه فالموجب له ليس شيئاً بائناً من خارج بل هو من نفسه، فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن، فيلزم أنه ما زال مريداً قادراً، وإذا حصلت القدرة والإرادة وجب وجود المقدور وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون: لم يزل قادراً على ما سيكون.

فيقال لهم: القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور وإذا كانت القدرة دائمة فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائماً؟ وهم يقولون: لا، بل الإمكان - إمكان الفعل - حادث. وهذا يناقض إثبات القدرة، وإن قالوا: بل الإمكان حاصل تبين أنه لم يزل الفعل ممكناً فثبت إمكان وجود ما لا يتناهى من مقدور<sup>(١)</sup> الرب، وحينئذ إذا كان لم يزل قادراً والفعل ممكناً، وهذا الممكن قد وُجِدَ فما<sup>(٢)</sup> لا يزال، فالموجب لوجود جنس المقدور كالإرادة مثلاً إما أن يكون وجودها في الأزل ممتنعاً فليزِم امتناع الفعل وقد بينا أنه ممكن.

وأيضاً إذا كان وجودها ممتنعاً لم يزل ممتنعاً لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلاً عن أن تكون موجودة ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لا بد له من موجب وإذا كان وجودها في الأزل ممكناً فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته، وذاته كافية في حصوله، فيلزم أنه لم يزل مريداً.

وهكذا في جميع صفات الكمال متى ثبت إمكانها في الأزل لزم وجودها في الأزل. فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة إذ ليس في الأزل شيء سوى نفسه يوجب

(١) في الأصل (مقدار) وهو خطأ ظاهر (عبد الصمد).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «فيما».

وجودها. فإذا كانت ممكنة والمقتضي التام لها نفسه لزم وجوبها<sup>(١)</sup> في الأزل.

وهذا مما يدل على أنه لم يزل حياً عليمًا، قديراً، مريداً، متكلماً فاعلاً إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته، وذاته وحدها كافية في ذلك، فيلزم قدم النوع، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء، لكن أفراد النوع تحصل شيئاً بعد شيء بحسب الإمكان والحكمة.

ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده وعدمه، بل إما أن يحصل المقتضي لوجوده فيجب، أو لا يحصل فيمتنع. [فما]<sup>(٢)</sup> اتصف به الرب فاتصافه به واجب وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع وما شاء كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده فالممكن مع مرجحه التام واجب، وبدونه ممتنع.

ففي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وفي قوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾ دلالة على ثبوت صفات الكمال له وأنه لم يزل متصفاً بها.

وأقوال السلف في ذلك كثيرة وبهذا فسروا قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ونحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق لما قيل له: قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ كأنه كان شيء ثم مضى؟ فقال ابن عباس: هو سَمَّى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبي حاتم من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس: كذلك كان ولم يزل.

ومن رواية عمرو بن أبي قيس، عن مطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] كأنه شيء كان؟ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿كَانَ﴾ فإنه لم يزل ولا يزال و﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد].

ومن رواية عبد الرحمن بن مغراء، عن مجمع بن يحيى، عن عمه، عن ابن عباس

(١) كذا في الأصل والصحيح (وجودها) (عبد الصمد).

(٢) سقط في الأصل والسياق يقتضيه (عبد الصمد).

قال قال يهودي: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً، فكيف هو اليوم؟ فقال ابن عباس: إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً.

وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفاً بخبر كان ولا يزال كذلك وأن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفاً في نفسه إذا كان من لوازم نفسه، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه. وقال أحمد بن حنبل: لم يزل الله عالماً متكلماً غفوراً، وقال أيضاً: لم يزل الله متكلماً إذا شاء<sup>(١)</sup>.

### فصل

وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك فأعظم آية في القرآن تدل على ذلك، لكن مبسوطاً دلالة أتم من هذا.

وهي آية الكرسي كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: يا أبا المنذر! أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقال: (ليهنك العلم أبا المنذر)<sup>(٢)</sup>.

وهنا افتتحها بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ وهو أعظم من قوله: ﴿وَرَبِّكَ﴾ [المدثر: ٣] ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة] وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إذا كان المشركون قد اتخذوا إلهاً غيره وإن قالوا بأنه الخالق ففي قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوماً، فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر مطلقاً خلق كل شيء، وخلق الإنسان وغيره بخلاف الإلهية قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَأَنْطَلِقُ اللَّأَلَمِ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَبْيَضَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] فابتغوا معه آلهة أخرى ولم يثبتوا معه خالقاً آخر.

فقال في أعظم الآيات: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ذكره في ثلاثة مواضع

(٢) مرّ تخريجه.

(١) كل الآثار السابقة مرّ تخريجه.



من القرآن كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة وهي التوحيد، والرسول، والآخرة.

هذه التي بعث بها جميع المرسلين، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَاللِّبِّ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] فقال هنا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قرنها بأنه لا إله إلا هو.

وزاد في آل عمران: ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران] وهذا إيمان بالكتب والرسول.

وقال في طه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه] يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به. علماً ﴿﴾ وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴿﴾ [طه].

### فصل (١)

ومن أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية كقوله في هذه السورة ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [١] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ والخلق المذكور في مواضع كثيرة وكذلك غيره من الأفعال وهو نوعان.

فعل متعد إلى مفعول به مثل ﴿خَلَقَ﴾ فإنه يقتضي مخلوقاً وكذلك رزق كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيذُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ [الروم: ٤٠] وكذلك الهدي والإضلال والتعليم والبعث والإرسال والتكليم.

وكذلك ما أخبر به من قوله: ﴿فَفَضَّلْنَهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقوله: ﴿فَسَوَّيْنَهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] وقوله في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾

وَالسَّمَلَةَ يَنْكَأُ وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿٦٤﴾ [غافر: ٦٤] وهذا في القرآن كثير<sup>(١)</sup> جداً.

والأفعال اللازمة كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٣٣].

فأما النوع الأول فالمسلمون متفقون على إضافته إلى الله وأنه هو الذي يخلق ويرزق ليس ذلك صفة لشيء من مخلوقاته، لكن هل قام به فعل هو الخَلْقُ أو الفِعْلُ هو المفعول والخَلْقُ هو المخلوق؟ وهذا فيه قولان لمن ثبت اتصافه بالصفات، فأما من ينفي الصفات من الجهمية والمعتزلة فهم ينفون قيام الفعل به بطريق الأولى.

لكن منهم من يجعل الخلق غير المخلوق ويجعل الخلق إما معنى قام بالمخلوق أو المعاني المتسلسلة كما يقول معمر بن عباد<sup>(٢)</sup> أو يجعل الخلق قائماً لا في محل كقول بعضهم إنه قول كن لا في محل وقول البصريين: إنه إرادة لا في محل وهذا فرار منهم عن قيام الحوادث به مع أن منهم من يلتزم ذلك كما التزمه أبو الحسين وغيره.

والجمهور المثبتون للصفات هم في الأفعال على قولين: منهم من يقول: لا يقوم به فعل وإنما الفعل هو المفعول وهذا قول طائفة منهم الأشعري ومن وافقه من أصحابه وغير أصحابه كابن عقيل وغيره وهو أول قولي القاضي أبي يعلى.

وهؤلاء يقسمون الصفات إلى ذاتية ومعنوية وفعلية وهذا تقسيم لا حقيقة له فإن الأفعال عندهم لا تقوم به فلا يتصف بها لكن يخبر عنه بها. وهذا التقسيم يناسب قول من قال: الصفات هي الأخبار التي يخبر بها عنه لا معاني تقوم به كما تقول ذلك الجهمية والمعتزلة فهؤلاء إذا قالوا: الصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية أرادوا بذلك ما يخبر به عنه من الكلام تارة يكون خبراً عن ذاته وتارة عن المخلوقات ليس عندهم

(١) سقط من الأصل (عبد الصمد).

(٢) هو معمر بن عباد السلمي: معتزلي من الغلاة من أهل البصرة سكن بغداد وناظر النُّظَّام. توفي عام (٥٢١٥هـ).

صفات تقوم به فمن فسر الصفات بهذا أمكنه أن يجعلها ثلاثة أقسام ذاتية ومعنوية وفعلية.

وأما من كان مراده بالصفات ما يقوم به فهذا التقسيم لا يصلح على أصلهم ولكن أخذوا التقسيم عن أولئك وهم مخالفون لهم في المراد بالصفات.

وهذا التقسيم موجود في كلام أبي الحسن ومن وافقه كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي والباجي وغيرهم.

والقول الثاني: إنه تقوم به الأفعال وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات.

ذكر البخاري في كتاب خلق أفعال العباد أن هذا إجماع العلماء خالق وخلق ومخلوق وذكره البغوي قول أهل السنة وذكره أبو نصر محمد بن إسحاق الكلاباذي<sup>(١)</sup> في كتاب (التعرف بمذاهب التصوف) أنه قول الصوفية وهو قول الحنفية مشهور عندهم يسمونه (التكوين) وهو قول الكرامية والهشامية ونحوهما وهو قول القدماء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى.

ثم إذا قيل: الخلق غير المخلوق وإنه قائم بالرب فهو هو خلق قديم لازم لذات الرب مع حدوث المخلوقات كما يقوله أصحاب أبي حنيفة وغيرهم؟ أو هو خلق حادث بذاته - حدث لما حدث جنس المخلوقات؟ أم خلق بعد خلق؟ على ثلاثة أقوال.

وهذا أو هذا هو الذي عليه أئمة السنة والحديث وجمهورهم، وهو قول طوائف من أهل الكلام من الكرامية والهشامية. وغيرهم، فمن قال: إنه يتكلم بمشيئته واختياره كلاماً يقوم بذاته يمكنه أن يقول: إنه يفعل ذلك باختياره ومشيئته فعلاً يقوم بذاته.

والذين يقولون بقيام الأمور الاختيارية بذاته منهم من يصحح دليل الأعراض والاستدلال به على حدوث الأجسام، كالكرامية، ومتأخري الحنفية، والمالكية، والشافعية، ومنهم من لا يصححه، كأئمة السلف والحديث وأحمد بن حنبل والبخاري،

(١) هو محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري أبو بكر من حفاظ الحديث من أهل بخارى له «بحر الفوائد» ويعرف بمعاني الأخبار جمع فيه (٥٩٢) حديثاً والتعرف لمذهب أهل التصوف توفي عام (٣٨٠هـ).

وغيرهم، وهذه المسألة يعبر عنها بـ(مسألة التأثير) هل هو أمر وجودي أم لا؟ وهل التأثير زائد على المؤثر والأثر أم [لا]؟ وكلام الرازي في ذلك مختلف كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع.

وعمدة الذين قالوا: إن الخلق هو المخلوق والتأثير هو وجود الأثر لم يثبتوا زائداً أن قالوا: لو كان الخلق والتأثير زائداً على ذات المخلوق والأثر لكان إما أن يقوم بمحل أو لا والثاني باطل، فإن المعاني لا تقوم بنفسها، وهذا رد على طائفة من المعتزلة قالوا: وإذا قام بمحل فإما أن يقوم بالخالق أو بغيره، والثاني باطل، لأنه لو قام بغيره لكان ذلك الغير هو الخالق، لا هو، وهذا رد على طائفة ثانية يقولون: إنه يقوم بالمخلوق.

وإذا قام بالخالق فإما أن يكون قديماً أو محدثاً، ولو كان قديماً للزم قدم المخلوق فإن الخلق والمخلوق متلازمان، فوجود خلق بلا مخلوق ممتنع، وكذلك وجود تأثير بلا أثر.

وإن كان محدثاً فهو باطل لوجهين: أحدهما: أنه يلزم قيام الحوادث به، والثاني: أن ذلك الخلق الحادث يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل ومعمّر بن عباد التزم التسلسل وجعل للخلق خلقاً وللخلق خلقاً لكن لا في ذات الله وجعل ذلك في وقت واحد.

فهذه عمدة هؤلاء وكل طائفة تخالفهم منعت مقدمة من مقدمات دليلهم.

فمن جوز أن يقوم بنفسه أو بالمخلوق، منع تينك المقدمتين، وأما الجمهور فكل أجاب بحسب قوله.

منهم من قال بل الخلق والتكوين قديم، كما أن الإرادة عندكم قديمة، ومع القول بقدمها لم يلزم تقدم المراد، كذلك الخلق والتكوين قديم، ولا يلزم تقدم المخلوق، وهذا لازم للكلاية من الأشعرية وغيرهم لا جواب لهم عنه.

لكن لا يلزم من نفي قدم إرادة معينة، بل<sup>(١)</sup> نفي قدم الإرادة، كما يقوله الجهمية

والمعتزلة، أو يقول بقدوم نوع الإرادة كما يقوله أئمة أهل الحديث ومن وافقهم من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.

لكن صاحب هذا القول يقال له: التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته وإما أن لا يكون بمشيئته، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً، وهذا باطل ولو صح لأمكن كون العالم قديماً - مع كونه مخلوقاً - بخلق قديم بإرادة قديمة، ومعلوم أن هذا باطل. ولهذا كان كل من قال: (القرآن قديم) يقولون: تكلم بغير مشيئته وقدرته.

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً.

وأيضاً فهؤلاء المنازعون لهم يقولون: الإرادة مستلزمة للمراد، والخلق مستلزم للمخلوق وما ذكر حجة على هؤلاء وهؤلاء، فإن الإرادة والخلق من الأمور الإضافية وثبوت إرادة بلا مراد وخلق بلا مخلوق ممتنع لكن المنازع يقول: توجد الإرادة والخلق ويتأخر المراد المخلوق؟.

فيقال لهؤلاء تقولون: توجد الإرادة أو الخلق، مع الإرادة، ولا يوجد لا المراد ولا المخلوق ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الأوقات يوجد المراد المخلوق من غير سبب وهذا معلوم البطلان في بداهة العقول، فإن الإرادة أو الخلق كان موجوداً مع القدرة، فإن كان هذا مؤثراً تاماً استلزم وجود الأثر، ولزم وجود الأثر عند وجود المؤثر التام.

فإن المؤثر ممكن والممكن يجب وجوده عند وجود المرجح التام، إذ لو لم يكن كذلك كان جائزاً بعد وجود المرجح يقبل الوجود والعدم وحينئذ فيفتقر إلى مرجح، وهذا يستلزم التسلسل، ولا ينقطع التسلسل إلا إذا وجد المرجح التام الموجب.

هنا تنازع الناس، فقالت طائفة - مثل محمد بن الهيصم الكرامي ومحمود الخوارزمي - يكون الممكن أولى بالوقوع لكن لا ينتهي إلى حد الوجوب.

وقد قال أكثر المعتزلة والأشعرية: بل لا يصير أولى ولكن القادر أو القادر المرید يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح.

وآخرون عرفوا أن هذا لازم فاعترفوا بأنه عند وجود المرجح التام يجب وجود

الأثر وعند الداعي التام مع القدرة يجب وجود الفعل كما اعترف بذلك أبو الحسين البصري والرازي، والطوسي، وغيرهم، وكثير من قدماء المتكلمين يقولون بالإرادة الموجبة وأن الإرادة تستلزم وجود المراد، والمتفلسفة أوردوا هذا على المتكلمين، لكن بأن الأثر يقارن وجود التأثير فيكون معه بالزمن.

وكثير من الناس لا يعرف إلا هذا القول، وذاك القول، كالرازي وغيره فيبقون حيارى في هذا الأصل العظيم الذي هو من أعظم أصول الدين والعلم والكلام.

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع وبيننا أن قولاً ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبه لا معه في الزمان، ولا متراخياً عنه فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط، ومن قال بالاقتران كالمفلسفة فهم أعظم غلطاً، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيناه في مواضع.

وأما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس] والعقلاء يقولون: قطعته فانقطع وكسرتة فانكسر وطلق المرأة فطلقت وأعتق العبد فاعتق والطلاق يقعان عقب الإعتاق والتطليق، لا يتراخى الأثر، ولا يقارن، وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر.

وهذا مما يبين أنه إذا وجد الخلق لزم وجود المخلوق عقبه، كما يقال: كَوْنُ اللَّهِ الشَّيْءِ فَتَكُونُ، فتكونه عقب تكوين الله - لا مع التكوين، ولا متراخياً.

وكذلك الإرادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقدور فهو يريد أن يخلق فيوجد الخلق بإرادته وقدرته، ثم الخلق يستلزم وجود المخلوق وإن كان ذلك الخلق حادثاً بسبب آخر يكون هذا عقبه فإنما في ذلك وجود الأثر عقب المؤثر التام، التسلسل في الآثار، وكلاهما حق، والله أعلم.

وأما المخلوق فلا يكون إلا بائناً عنه لا يقوم به مخلوق، بل نفس الإرادة مع القدرة تقتضي وجود الخلق، كما تقتضي وجود الكلام.

لا يفتقر الخلق إلى خلق آخر بل يفتقر إلى ما به يحصل - وهو الإرادة المتقدمة، وإذا خلق شيئاً أراد خلق شيء آخر وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

من قال: إن الخلق حادث - كالهشامية<sup>(١)</sup> والكرامية<sup>(٢)</sup> - قال: نحن نقول بقيام الحوادث.

ولا دليل على بطلان ذلك بل العقل، والنقل، والكتاب، والسنة، وإجماع السلف يدل على تحقيق ذلك كما قد بسط في موضعه.

ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم إلا بذلك، كما اعترف بذلك أقرب الفلاسفة إلى الحق كأبي البركات صاحب المعبر وغيره.

وأما قولهم: يلزم أن للخلق خلقاً آخر فقد أجابهم من يلتزم ذلك - كالكرامية وغيرهم - بأنكم تقولون: إن المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب أصلاً، وحينئذ فالقول بحدوث الخلق الذي تحصل به المخلوقات بلا حدوث سبب أقرب إلى العقل والنقل.

وهذا جواب لازم على هذا التقدير - تقدير قيام الأمور الاختيارية.

والكرامية يسمون ما قام به حادثاً ولا يسمونه محدثاً - كالكلام الذي يتكلم به - القرآن أو غيره يقولون: هو حادث ويمنعون أن يقال: هو محدث، لأن الحادث يحدث بقدرته ومشيتته، كالفعل، وأما المحدث فيفتقر إلى إحداث فيلزم أن يقوم بذاته إحداثه غير المحدث، وذلك الإحداث يفتقر إلى إحداث، فيلزم التسلسل.

وأما غير الكرامية من أئمة الحديث والسنة والكلام فيسمون ذلك محدثاً كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْدُثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ وَإِنْ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلِّمُوا فِي الصَّلَاةِ» والذي أحدثه هو النهي عن تكلمهم في الصلاة.

(١) صاحبها عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام من كبار المعتزلة له آراء انفرد بها، وله مصنفات الشامل في الفقه وتذكرة العالم والعدة في أصول الفقه توفي عام (٣٢١هـ).

(٢) محمد بن كرام السجستاني إمام الكرامية - من فرق الابتداع في الإسلام كان يقول: بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر، ولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور، فحبسه طاهر بن عبد الله ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر مرة ثانية وخرج منها سنة (٢٥١هـ) إلى القدس فمات فيها عام ٢٥٥هـ والسجزي نسبة إلى سجستان.

وقولهم: (إن المحدث يفتقر إلى إحداث، وهلم جرا) هذا يستلزم التسلسل في الآثار مثل كونه متكلماً بكلام بعد كلام، وكلمات الله لا نهاية لها، وأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء وهذا قول أئمة السنة، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل.

وكذلك أفعاله فإن الفعل والكلام صفة كمال، فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يخلق أكمل ممن لا يخلق، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٧] وحينئذ فهو ما زال متصفاً بصفات الكمال منوعاً بنعوت الإكرام والجلال.

وبهذا تزول أنواع الإشكال ويعلم أن ما أخبرت به الرسل عن الله من أصدق الأقوال، وأن دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول.

ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول، وسلوكهم أدلة برأيهم ظنوها عقلية، وهي جهلية، فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية، فاختلَفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع، في مسألة الكلام والأفعال - وذكر ما تيسر من كلام السلف والأئمة في هذا الأصل، والمقصود هنا التنبيه على ما أخذ الأقوال.

وهذا الموضوع مما يبينه أئمة السنة كالإمام أحمد وغيرهم، فتكلم في الرد على الجهمية على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وبين أن الجعل من الله قد يكون خلقاً كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقد يكون فعلاً ليس بخلق، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ من هذا الباب.

وذلك أن الخلق ونحوه من الأفعال التي ليست خلقاً، مثل تكلمه بالقرآن وغيره، وتكلمه لموسى، وغيره ومثل النزول، والإتيان، والمجيء ونحو ذلك فهذه إنما تكون بقدرته، ومشيئته، وبأفعال أخر تقوم بذاته ليست خلقاً.

وبهذا يجيب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية إذا قالوا: (المحدث لا بد له من إحداث؟) فيقول: (نعم، وذلك الإحداث فعل ليس بخلق) والتسلسل نلتزمه.

فإن التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد كوجود خالق للخالق وخالق للخالق أو للخلق خلق وللخلق خلق في آن واحد وهذا ممتنع من وجوه، منها



وجود ما لا يتناهى في آخر واحد، وهذا ممتنع مطلقاً، ومنها أن كل ما ذكر يكون محدثاً لا ممكناً، وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل، وإذا كان أولى بالامتناع.

بخلاف ما إذا قيل «كان قبل هذا الكلام كلام، وقبل هذا الفعل فعل» جائز عند أكثر العقلاء، أئمة السنة، وأئمة الفلاسفة، وغيرهم فإذا قيل (هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه) كان هذا معقولاً وهو مثل قولنا تكلم به وهو معنى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] أي تكلمنا به عربياً وأنزلناه عربياً.

وكذلك فسره السلف، كإسحاق بن راهويه، وذكره عن مجاهد قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ قلناه عربياً ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، عن إسحاق بن راهويه قال: ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إنا قلناه ووصفناه، وذكره عن أحمد بن حنبل، عن الأشجعي، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بيناه قرآناً عربياً.

والإنسان يفرق بين تكلمه وتحركه في نفسه وبين تحريكه لغيره، وقد احتج سفيان بن عيينة وغيره من السلف على أنه غير مخلوق بأن الله خلق الأشياء بـ﴿كُنْ﴾ [يس: ٨٢] فلو كانت ﴿كُنْ﴾ مخلوقة لزم أن يكون خلق مخلوقاً بمخلوق فيلزم التسلسل الباطل.

وذلك أنه إذا لم يخلق إلا بـ﴿كُنْ﴾ فلو كانت ﴿كُنْ﴾ مخلوقة لزم أن لا يخلق شيئاً وهو الدور الممتنع فإنه لا يخلق شيئاً حتى يقول ﴿كُنْ﴾ ولا يقول ﴿كُنْ﴾ حتى يخلقها، فلا يخلق شيئاً حتى يقول أصل التأثير، والفعل مثل أن يقال: لا يفعل حتى يفعل، فيلزم ألا يفعل ولا يخلق حتى يخلق، فيلزم أن لا يخلق. وأما إذا قيل: قال: ﴿كُنْ﴾ وقبل «كن» «كن»، وقبل: «كن» «كن» فهذا ليس بمتنع، فإن هذا تسلسل في آحاد التأثير لا في جنسه، كما أنه في المستقبل يقول «كن» بعد «كن» ويخلق شيئاً بعد شيء إلى غير نهاية.

فالمخلوقات التامة يخلقها بخلقها، وَخَلَقَهُ فِعْلُهُ القائم به وذلك إنما يكون بقدرته ومشيئته.

وإذا قيل: هذا الفعل القائم به يفتقر إلى فعل آخر يكون هو المؤثر في وجوده غير القدرة والإرادة فإنه لو كان مجرد ذلك كافياً كفى في وجود المخلوق فلما كان لا بد له

من خلق فهذا الخلق أمر حادث بعد أن لم يكن وهو فعل قائم به فالمؤثر التام فيه يكون مستلزماً مستعقباً له كالمؤثر التام في وجود الكلام الحادث بذاته، والمتكلم من الناس إذا تكلم فوجود الكلام لفظه ومعناه مسبوق بفعل آخر فلا بد من حركة تستعقب وجود الحروف التي هي الكلام فتلك الحركة هي التي تجعل الكلام عربياً أو عجمياً وهو فعل يقوم بالفاعل، وذلك يجعل الحادث حدث بمؤثر تام قبله أيضاً.

وذات الرب هي المقتضية لذلك كله، فهي تقتضي الثاني بشرط انقضاء الأول لا معه واقتضاؤها للثاني فعل يقوم به بعد الأول وهي مقتضية لهذا التأثير وهذا التأثير.

ثم إن هذا التأثير وكل تأثير هو سبب عما قبله وشرط لما بعده وليس في ذلك شيء مخلوق وإن كانت حادثة.

وإن قال قائل: أنا أسمى هذا خلقاً كان نزاعه لفظياً وقيل له: الذين قالوا: (القرآن مخلوق) لم يكن مرادهم هذا ولا رد السلف والأئمة هذا إنما ردوا قول من جعله مخلوقاً بائناً عن الله كما قال الإمام أحمد: كلام الله من الله ليس بائناً عنه.

وقالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ.

قال أحمد: منه بدأ هو المتكلم به لم يبدأ من مخلوق كما قال من قال: إنه مخلوق قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَلْمُونَ أَنَّهُ مُنزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ولهذا لا يقول أحد: إنه خلق نزوله واستواءه ومجيئه وكذلك تكليمه لموسى ونداؤه له ناداه وكلمه بمشيئته وقدرته والتكليم فعل قائم بذاته وليس هو الخلق كما أن الإنسان إذا تكلم فقد فعل كلاماً وأحدث كلاماً ولكن في نفسه لا مبيئاً له.

ولهذا كان الكلام صفة فعل وهو صفة ذات أيضاً على مذهب السلف والأئمة.

ومن قال إنه مخلوق يقول: إنه صفة فعل ويجعل الفعل بائناً عنه والكلام بائناً عنه ومن قال صفة ذات يقول: إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته.

ومذهب السلف أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وكلامه قائم به فهو صفة ذات وصفة فعل ولكن الفعل هنا ليس هو الخلق، بل كما قال الإمام أحمد: الجعل جعلان: جعل

هو خلق، وجعل ليس بخلق، وهذا كله يستلزم قيام الأفعال بذاته وأنها تنقسم إلى قسمين: أفعال متعدية كالخلق وأفعال لازمة كالتكلم والنزول، والسلف يثبتون النوعين - هذا وغيره.

وأما جعل القرآن عربياً وإن كان متعدياً في صناعة العربية بمعنى أنه نصب مفعولاً ففي الكلام الفعل الذي هو التكلم متصلاً بالمفعول الذي هو الكلام كلاهما قائم بالمتكلم.

ولهذا قد يراد بالمفعول المصدر إذا قلت: قال قولاً حسناً فقد يراد بالقول المصدر فقط وقد يراد به الكلام فقط فيكون المفعول وقد يراد به المجموع فيكون مفعولاً به ومصدراً.

وكذلك القرآن هو في الأصل قرأ قرآناً وهو الفعل والحركة ثم سُمي الكلام المقروء قرآناً قال تعالى في الأول: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَجِ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾﴾ [القيامة] وقال في الثاني: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع وبين [أن] <sup>(١)</sup> التلاوة والقراءة في الأصل مصدر تلا تلاوة وقرأ قراءة كالقرآن لكن يسمى به الكلام كما يسمى بالقرآن وحينئذ فتكون القراءة هي المقروء والتلاوة هو المتلو.

وقد يراد بالتلاوة والقراءة المصدر الذي هو الفعل فلا تكون القراءة والتلاوة هي المقروء المتلو بل تكون مستلزمة له.

وقد يراد بالتلاوة والقراءة مجموع الأمرين فلا تكون هي المتلو لأن فيها الفعل ولا تكون مباينة مغايرة للمتلو لأن المتلو جزؤها.

هذا إذا أريد بالقراءة والمقروء شيء واحد معين مثل قراءة الرب ومقروئه أو قراءة العبد ومقروئه وأما إذا أريد بالقراءة قراءة العبد وهي حركته وبالمقروء صفة الرب فلا ريب أن حركة العبد ليست صفة الرب.

ولكن هذا تكلف بل قراءة العبد مقروءة كمقروئه وقراءته للقرآن إذا عنى بها نفس

(١) غير موجودة في الأصل (عبد الصمد).

القرآن فهي مقروءة وإن عنى بها حركته فليست مقروءة وإن عنى بها الأمران فلا يطلق أحدهما.

ولهذا كان من المنتسبين إلى السنة من يقول: القراءة هي المقروء ومنهم من يقول: القراءة غير المقروء ومنهم من لا يطلق واحداً منهما ولكل قول وجه من الصواب عند التصور التام والإنصاف، وليس فيها قول يحيط بالصواب بل كل قول فيه صواب من وجه وقد يكون خطأ من وجه آخر.

والبخاري إنما يثبت خلق أفعال العباد حركاتهم وأصواتهم، وهذه القراءة هي فعل العبد يؤمر به وينهى عنه، وأما الكلام نفسه فهو كلام الله، ولم يقل البخاري: إن لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق كما نهى أحمد عن هذا وهذا.

والذي قال البخاري إنه مخلوق من أفعال العباد وصفاتهم لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إنه غير مخلوق وإن سكتوا عنه لظهور أمره ولكونهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية.

والذي قال أحمد إنه غير مخلوق هو كلام الله لا صفة العباد لم يقل البخاري إنه مخلوق.

ولكن أحمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقاً إذا بلغ عن الله، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول: أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة.

وكلا القصدين صحيح لا منافاة بينهما، وقد بين ذلك ابن قتيبة في مسألة اللفظ، ولكن المنحرفون إلى أحد الطرفين ينكرون على الآخر، والله سبحانه أعلم.

### فصل

وأما الأفعال اللازمة كالاستواء والمجيء فالناس متنازعون في نفس إثباتها لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق وإنما عرفت بالخبر فالأصل فيها الخبر لا العقل.

ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ممن يقول (الخلق غير

المخلوق) وممن يقول (الخلق هو المخلوق) [ومن]<sup>(١)</sup> يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها.

والذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان:

منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدي لجعلها أموراً حادثة في غيرها وهذا قول الأشعري وأئمة أصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل في كثير من أقواله.

فالأشعري يقول: الاستواء فعل فعله في العرش فصار به مستوياً على العرش وكذلك يقول في الإتيان والنزول ويقول: هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام بل توصف بها الأجسام والأعراض فيقال: (جاءت الحمى وجاء البرد وجاء الحر) ونحو ذلك وهذا أيضاً قول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وغيرهما وحملوا ما روي عن السلف كالأوزاعي وغيره، [على]<sup>(٢)</sup> أنهم قالوا في النزول: يفعل الله فوق العرش بذاته كما حكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر وكما حكوه عن الأشعري وغيره كما ذكر في غير موضع من كتبه.

ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية وهذا قول البيهقي وطائفة وهو أول قولي القاضي أبي يعلى.

وكل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الاختيارية فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازماً أو متعدياً لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول بالتكوين وبهذا فإنه يقول: ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقول في إرادته القديمة.

والقول الثاني: إنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته واختياره كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية وهذا قول أئمة السنة والحديث والفقهاء والتصوف وكثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم<sup>(٣)(٤)</sup>.

(١) ليست في الأصل (عبد الصمد).

(٢) هذه ليست في الأصل (عبد الصمد) والكلام يستقيم بدونها.

(٣) ثم استطرد الشيخ بعد هذا في الكلام على الاستواء والنزول والمجيء وغيرها وأجاب عنه معارضاً المتبذعة على نصوص الصفات بما يحسن الاطلاع عليه لمن أراد الفائدة.

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٢٥١ - ٣٩٥)، مع بعض الحذف في المواضع المشار إليها بالنقاط.

## سورة القدر

وقال في أسباب نزول هذه السورة:

(قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: «بلغني أنه كان في بني إسرائيل رجل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فلم يضعه عنه، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأصحابه، فعجبوا من قوله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر]، يقول الله تعالى: ليلة القدر خير لكم من تلك الألف شهر التي لبس فيها السلاح<sup>(١)</sup> وذلك الرجل في سبيل الله»<sup>(٢)</sup> رواه آدم بن أبي إياس عن الزنجي عنه) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

(جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الحوادث<sup>(٤)</sup>) ١. هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) كذا في الأصل، والواو زائدة كما يتضح من مصادر التخریج؛ لأن اسم الإشارة هو فاعل فعل «لبس».

(٢) أخرجه: يحيى بن سلام في «تفسيره» (ص ٦٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٤٦١)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٠٦/٤)، وابن أبي حاتم وابن المنذر في «تفسيريهما» كما في «الدر» (٦٢٩/٦).

قلت: وهو مرسل ضعيف الإسناد.

قال الطبري في «تفسيره» (٢٦٠/٣٠) بعد أن ذكر الأقوال في معنى قوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] قال: وأشبه الأقوال في ذلك بظاهر التنزيل قول من قال: عمل في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وأما الأقوال الأخر؛ فدعاوى معان باطلة لا دلالة عليها من خبر ولا عقل، ولا هي موجودة في التنزيل اهـ. (محقق الصيام).

(٣) شرح العمدة - الصيام (٦٦٨/٢). (٤) زاد المسير (٥/١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢٦/١٢).

## سورة البينة

وقال معنى (أهل الكتاب):

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾

(قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ مَا أَسْلَمْتُمْ إِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠] وأمثال ذلك إنما هو خطاب لهؤلاء الموجودين وإخبار عنهم. والمراد بالكتاب هو الكتاب الذي بأيديهم الذي جرى عليه من النسخ والتبديل ما جرى، ليس المراد به من كان متمسكاً به قبل النسخ والتبديل؛ فإن أولئك لم يكونوا كفاراً؛ ولا هم ممن خوطبوا بشرائع القرآن ولا قيل لهم في القرآن: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤] فإنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن. وإذا كان كذلك فكل من تدين بهذا الكتاب الموجود عند أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب، وهم كفار تمسكوا بكتاب مبدل منسوخ؛ وهم مخلدون في نار جهنم كما يخلد سائر أنواع الكفار، والله تعالى مع ذلك شرع إقرارهم بالجزية، وأحل طعامهم (ونساءهم) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله في سبب التفريق بين أهل الكتاب والمشركين:

(وأما قولهم<sup>(٢)</sup>): «ونفى عنا اسم الشرك» فلا ريب أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع، ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع، (بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع) وكلا الأمرين حق، فالأول كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّوْدِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧].

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٧/٣٥ - ٢٢٨). (٢) يقصد النصارى الذين يردّ عليهم.

وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

فتزه نفسه عن شركهم، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد والنهي عن الشرك كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ١٠١] هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد سمي الرسول بينة كما قال: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ] فإنه يبين الحق) ا. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (فإن الصابئين كأهل الكتاب: تارة جعلهم الله قسماً من المشركين، وتارة يجعلهم قسماً لهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

وهذا بعد قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾



[التوبة: ٣٠ - ٣٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْخُذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] هـ. ١<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى، وذلك بعد تبديلهم، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل، وحيث جعلوا غير مشركين، فلأن دينهم الصحيح ليس فيه شرك، فالشرك مبتدع عندهم، فينبغي التفتن لهذه المعاني.

وكان الوحيد<sup>(٢)</sup> من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم، ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر] هـ. ١<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (بخلاف ما إذا كان للتبعض كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي ﷺ جميع المشركين، وأهل الكتاب) هـ. ١<sup>(٤)</sup>.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٥﴾.

(فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٥﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتمسوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»<sup>(٥)</sup> وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة) هـ. ١<sup>(٦)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٠ - ٢١).

(٢) هو لقب الوليد بن المغيرة.

(٣) تفسير آيات أشكلت (٧٣١/٢ - ٧٣٣).

(٤) الجواب الصحيح (٦٤/٣).

(٥) أبو داود (٣٦٦٠)، الترمذي (٣٦٥٦)، ابن ماجه (٢٣٠)، والحديث صحيح.

(٦) مجموع الفتاوى (٩٣/٢٧ - ٩٤).

وقال رحمه الله في كلامه عن شرط النية عند العمل المعين: (يستدلون على النية الواجبة في الطهارة والصلاة ونحوهما بقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قالوا: وإخلاص الدين هو النية. ومن اغتسل للتبرد أو للتنظيف لم يخلص الدين لله، (ويستدلون بقوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤِثِمَتْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى] قالوا: ومن اغتسل للتبرد والتنظيف لم يرد حث الآخرة فيجب أن لا يخلص له.

ومعلوم أن هاتين الآيتين يدلان على وجوب العمل لله والدار الآخرة، أبلغ من دلالتهما على وجوب نية العمل المعين. لكن من نصر الوجه الأول قد يقول: نية النوع مستلزمة لنية الجنس، فإن من نوى العمل المُعَيَّن فقد نوى العمل لله بحكم إيمانه كما تقدم) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وهذا أصل مستقر في جميع العبادات المقصودة لا تصح إلا بنية لقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال محمد بن نصر: وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ديناً قيماً وسمى الدين إسلاماً، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام بعضاً) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾) فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، وإلى بيت الله وحده، فالمقصود من الحج: عبادة الله وحده في البقاع التي أمر بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/٣١ - ٣٢).

(٢) شرح العمدة - الحج (١/٥٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤٩٥ - ٤٩٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٣٧٦ - ٣٧٧).

السلف<sup>(١)</sup>: «حنفاء لله أي حجاجاً فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقصد المعبود هو الأصل الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال راداً على الرافضة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٧).

(أن يقال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عام في كل من اتصف بذلك فما الذي أوجب تخصيصه بالشيعة؟

فإن قيل: لأن من سواهم كافر.

قيل: إن ثبت كفر من سواهم بدليل، كان ذلك مغنياً لكم عن هذا التطويل، وإن لم يثبت لم ينفعكم هذا الدليل فإنه من جهة النقل لا يثبت، فإن أمكن إثباته بدليل منفصل، فذاك هو الذي يعتمد عليه لا هذه الآية.

الوجه الخامس: أن يُقال: من المعلوم المتواتر أن ابن عباس كان يوالي غير شيعة علي أكثر مما يوالي كثيراً من الشيعة، حتى الخوارج كان يجالسهم ويفتيهم وينظرهم. فلو اعتقد أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الشيعة فقط، وأن من سواهم كفار، لم يعمل مثل هذا. وكذلك بنو أمية كانت معاملته ابن عباس وغيره لهم من أظهر الأشياء دليلاً على أنهم مؤمنون عنده لا كفار.

فإن قيل: نحن لا نكفر من سوى الشيعة لكن نقول: هم خير البرية.

قيل: الآية تدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، فإن قلت: إن من سواهم لا يدخل في ذلك فإما أن تقولوا: هو كافر أو تقولوا: فاسق، بحيث لا

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٨٣٠).

(٤) جامع الرسائل (٢/١٢١).

(١) ابن جرير (٣٠/٢٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٦/٢٣).

يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن دخل اسمهم في الإيمان، وإلا فمن كان مؤمناً ليس بفاسق فهو داخل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فإن قلتم: هو فاسق.

قيل لكم: إن ثبت فسقهم كفاكم ذلك في الحجة. وإن لم يثبت لم ينفعكم ذلك في الاستدلال، وما تذكرون به فسق طائفة من الطوائف إلا وتلك الطائفة تبين لكم أنكم أولى بالفسق منهم من وجوه كثيرة، وليس لكم حجة صحيحة تدفعون بها هذا.

والفسق غالب عليكم لكثرة الكذب فيكم والفواحش والظلم، فإن ذلك أكثر فيكم منه في الخوارج وغيرهم من خصومكم، وأتباع بني أمية كانوا أقل ظلماً وكذباً وفواحش ممن دخل في الشيعة بكثير وإن كان في بعض الشيعة صدق ودين وزهد، فهذا في سائر الطوائف أكثر منهم ولو لم يكن إلا الخوارج الذين قيل فيهم: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم»<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس: أنه قال قبل ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۗ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۗ﴾ وهذا يبين أن هؤلاء من سوى المشركين وأهل الكتاب. وفي القرآن مواضع كثيرة ذكر فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكلها عامة فما الموجب لتخصيص هذه الآية دون نظائرها؟

وإنما دعوى الرافضة أو غيرهم من أهل الأهواء الكفر في كثير ممن سواهم، كالخوارج وكثير من المعتزلة والجهمية [و] أنهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات دون من سواهم، كقول اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ آمَانِيَّتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۗ﴾ [البقرة]. وهذا عام في كل من قلته أجزؤ عند ربك ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿﴾ [البقرة]. وهذا عام في كل من عمل لله بما أمره الله فالعمل الصالح هو المأمور به وإسلام وجهه لله إخلاص قصده لله) ا. هـ<sup>(٢)</sup>.

(١) هذا في حديث الخوارج المعروف. (٢) منهاج السنة (٧/ ٢٦١ - ٢٦٤).

## فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

فإن هذه السورة سورة جليلة القدر وقد ورد فيها فضائل، وقد ثبت في الصحيح أن الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: الله سمانى لك؟ قال: «الله سماك لي» قال: فجعل أبي يبكي، وفي رواية أخرى: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: سمانى لك؟ قال: «نعم» فبكى، وفي رواية للبخاري: وذكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه قال قتادة: أنبت أنه قرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾<sup>(١)</sup> وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبي يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك.

وقوله: «أن أقرأ عليك» أي قراءة تبليغ وإسماع وتلقين، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم، فإن هذا قد ظنه بعضهم، وجعلوا هذا من باب التواضع، وجعل أبو حامد هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم، وليس هذا بشيء، فإن هذه القراءة كان يقرؤها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام، فإنه هو الذي نزل عليه القرآن.

أما الناس فمنه تعلموه، فكيف يصحح قراءته على أحد منهم، أو يقرأ كما يقرأ المتعلم؟ ولكن قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس والجن، فقد قرأ على الجن القرآن، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، ويقرؤه على الناس في الصلاة وغير الصلاة.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٦﴾ [الانشقاق] وقال تعالى: ﴿إِذَا نُنزِلَ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

(١) البخاري (٢١٦/٦)، ومسلم (١٥٠/٧) - النووي.

[آل عمران: ١٦٤] وذكر مثل هذا في غير موضع فهو يتلو على المؤمنين آيات الله.

وأبي بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفضيلة أبي واختصاصه بعلم القرآن كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال: «أبي أقرؤنا وعلي أفضانا»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن» قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمع من غيري»<sup>(٢)</sup>. فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه لا لأجل التصحيح والتلقين.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ مُنْفِكِينَ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين.

هل المراد لم يكونوا منفيين عن الكفر؟

أو هل لم يكونوا مكذابين بمحمد حتى بعث، فلم يكونوا منفيين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث؟

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول؟

وممن ذكر هذا أبو الفرج بن الجوزي قال: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَالشُّرِكِينَ﴾ وهم عبدة الأوثان ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي منفصلين وزائلين. يقال: فككت الشيء فانفك، أي انفصل. والمعنى: لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم البينة، لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي، والبينة الرسول، وهو محمد ﷺ بين<sup>(٣)</sup> لهم ضلالهم وجهلهم، وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم به.

ولفظ البغوي نحو هذا قال: لم يكونوا منتهين عن كفرهم وشركهم وقال أهل اللغة: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ منفصلين زائلين يقال: فككت الشيء فانفك، أي انفصل ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لفظه مستقبل ومعناه الماضي أي حتى أتتهم البينة الحجة الواضحة يعني محمداً أتاهم بالقرآن، فبين لهم ضلالهم وجهلهم، ودعاهم إلى الإيمان<sup>(٤)</sup>، فأنقذهم الله به

(١) البخاري (٤٤٨١). (٢) البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) في الأصل (بين الله لهم) (عبد الصمد). (٤) في المطبوع (الإيمان) فقط.

من الجهل والضلالة<sup>(١)</sup>. ولم يذكر غير هذا.

قال أبو الفرج: وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث<sup>(٢)</sup>، فافترقوا.

وقال بعضهم: لم يكونوا منفيين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة. قال: والوجه هو الأول<sup>(٣)</sup>.

وذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية، لكن الثالث وجهه وقواه ولم يحكه عن غيره، فقال: قوله: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي منفصلين متفرقين. تقول: انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه.

قال: و«ما انفك» التي هي من أخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، فبين في هذه أن تكون هذه الصفة منفكة. قال: واختلف الناس عماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفيين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة. وأوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ لأن بأس الشريعة وعظمتها لم يجيء<sup>(٤)</sup> بعد.

وقال الفراء وغيره: لم يكونوا منفيين عن معرفة<sup>(٥)</sup> نبوة محمد ﷺ والتأكد<sup>(٦)</sup> لأمره حتى جاءتهم البينة ففترقوا عند ذلك. قال: وذهب بعض النحويين إلى أن هذا المنفي المتقدم مع ﴿مُنْفِكِينَ﴾ يجعلهم تلك هي مع «كان» ويروي التقدير في خبرها «عارفين أمر محمد» أو نحو هذا.

قال: وفي معنى الآية قول ثالث بارع المعنى. وذلك أن يكون المراد: لم يكونوا هؤلاء<sup>(٧)</sup> منفيين من أمر الله وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن النعمة فكأنه قال: ما كانوا يتركون سدى. قال: ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله<sup>(٨)</sup>.

وقد ذكر الثعلبي ثلاثة أقوال. لكن الثالث حكاه عن جعل مقصوده إهلاكهم بإقامة الحجة وجعل ﴿مُنْفِكِينَ﴾ بمعنى هالكين.

- |     |                            |     |                                 |
|-----|----------------------------|-----|---------------------------------|
| (١) | البغوي (٤/٤٨١).            | (٢) | في الأصل (لم يبعث) (عبد الصمد). |
| (٣) | زاد المسير (٩/١٩٦).        | (٤) | في المطبوع (برده).              |
| (٥) | في المطبوع (عن معرفة صحة). | (٦) | في المطبوع (والتوكف).           |
| (٧) | في المطبوع (هؤلاء القوم).  | (٨) | ابن عطية (١٦/٣٤٣ - ٣٤٤).        |

فقال: لم يكونوا منفيين ومنتهين عن كفرهم وشركهم، وقال أهل اللغة: زائلين. تقول العرب: ما انفك فلان يفعل كذا، أي ما زال. وأصل الفك: الفتح، ومنه فك الكتاب، وفك الخلخال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، وهو محمد أتاهم بالقرآن، فبين ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان.

قال: وقال ابن كيسان: معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد في كتابهم حتى بعث، فلما بعث تفرقوا فيه.

وقال: قال العلماء في أول السورة إلى قوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾: حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ﴿وَمَا نَفَّرَقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم.

قال: وقال بعض أئمة اللغة: قوله: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي هالكين، من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل ولا يلتئم فتهلك. ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين مكذبين إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

وقد ذكر البغوي<sup>(١)</sup> هذا والأول: قال: والأول أصح. قلت: القول الثاني الذي حكاه عن ابن كيسان هو قول الفراء. وقد قدمه المهدي على الأول فقال: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ من انفك الشيء من الشيء إذا فارقه والمعنى لم يكونوا متفرقين إلا إذا جاءهم الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره وصفته وكفرهم بعد البيئات، قال: ولا يحتاج ﴿مُنْفِكِينَ﴾ على هذا التأويل إلى خبر. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَا نَفَّرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾.

قال: وقال مجاهد<sup>(٢)</sup>: المعنى لم يكونوا منتهين عما هم عليه. وعن مجاهد أيضاً: لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البيئنة.

قال، وقال الفراء: لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبي حتى ظهر، فلما ظهر تفرقوا واختلفوا<sup>(٣)</sup>.

(١) كما مر.

(٢) في ابن جرير (٢٦٢/٣٠) لم يكونوا ليتبها حتى يتبين لهم الحق.

(٣) معاني القرآن للفراء (٢٨١/٣) بلفظ فيه خلاف بسيط.



قلت: هذا المعنى هو الذي قدمه، لكن الفراء وابن كيسان جعلوا الانفكاك مفارقتهم وتركهم لذكره وخبره والبشارة به أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر، فانفكوا حينئذ. وذاك يقول: لم يكونوا منفيين، أي متفرقين، إلا إذا جاء الرسول، لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره، وهو معنى ما حكاه أبو الفرج: لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث فافترقوا.

فالانفكاك انفكاك بعضهم عن بعض، أو انفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره، وهذا القول ضعيف لم يرد بهذه الآية قطعاً، فإن الله لم يذكر أهل الكتاب بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم، كما كان ذلك عند أهل الكتاب، ولا كانوا قبل مبعثه<sup>(١)</sup> على دين واحد متفقين عليه فلما جاء تفرقوا.

فيمتنع أن يقال: لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به، ولم يكونوا مختلفين في ذلك، ولا متفرقين فيه حتى بعث، فهذا معنى باطل في المشركين.

ولا يستقيم هذا أيضاً في أهل الكتاب، فإن الله إنما ذكر الكفار منهم فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفاراً، بل كان الإيمان أغلب عليهم.

يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة، فإنه يعمهم فيقول: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾. وأنه لا يقول: كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على الحق حتى جاءتهم البينة.

وأيضاً فاستعمال لفظ «الانفكاك» في هذا غير معروف، لا يعرف في اللغة له شاهد، فتسمية الافتراق والاختلاف «انفكاكاً» غير معروف.

وأيضاً فهو لم يذكر [ل] (٢) ﴿مُنْفِكِينَ﴾ خبراً كما يقال: ما انفكوا يذكرون محمداً، وما زالوا يؤمنون به، ونحو ذلك وهذه التي هي من أخوات «كان» لا يقال فيها «ما كنت منفكاً» بل يقال: «ما انفككت أفعل كذا» فهو يلي حرف «ما».

(١) في الأصل (مبعثهم) (عبد الصمد). (٢) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة، وأيضاً فهذا المعنى المذكور في قوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿٤﴾ فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً.

والقول الأول أشهر عند المفسرين، ومنهم من يذكر غيره، كالبعغوي وغيره، فإنه معروف عن مجاهد، والربيع بن أنس، كما في التفسير المعروف عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ قال: منافقين<sup>(١)</sup> لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق، وقال الربيع بن أنس: لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءتهم البينة والرسول<sup>(٢)</sup> وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم، بعد مجيء البينة ولهذا احتاج من قاله إلى أن يقول: هذا فيمن آمن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم وجعلوا قوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ.

وهذا أيضاً ضعيف، فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلّفوا قبل إرسال محمد إليهم، كما أخبر الله بذلك في غير موضع، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ النَّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ وَأَيُّنَهُمْ يَبْتَغِي مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧٢﴾ [الجاثية] وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾ [الجاثية] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فكان الاختلاف قبل وجود أمة محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

(١) كذا بالإصل وفي تفسير ابن جرير (قال: لم يكونوا لينتهوا حتى تبين لهم الحق) بغير لفظ منافقين وليس له وجه (عبد الصمد).

(٢) قول مجاهد مر ذكره لكن قول الربيع لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم.

الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٤﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ [يونس] ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَّوْا وَلَهُمْ آيَاتٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا إِتْيَانًا لِمَنْ أَلْزَمْنَا اخْتِلَافًا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ [النحل] فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم، وهو - حين يبعث محمد - وليهم، وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَشُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ [النمل] وقال لامة محمد: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ [آل عمران]. فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم.

وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَكَ إِذَا نَصْرَكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مَتَاعًا حَقًّا وَمَا دُّكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٢٢﴾ [المائدة: ١٤] وقال عن اليهود ﴿وَالْقِيَمَةَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٢٣﴾ [المائدة: ٦٤] وقال: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْحَابًا مِنْهُمْ مِّنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴿٢٤﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي ﷺ أنه قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»<sup>(١)</sup> وإن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا

أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له. الناس لنا فيه تبع غداً لليهود، وبعد غد للنصارى»<sup>(٢)</sup>.

وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل إرسال محمد ﷺ، بل اليهود اختلفوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه، ثم اختلف النصارى اختلافاً آخر فكيف يقال: إن قوله: «وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ ۗ هُوَ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ مِنْهُمْ؟

وأيضاً فالذين كفروا بمحمد كفار، وهم المذكورون في قوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ هُوَ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ مِنْهُمْ؟» وهم تفرقوا واختلفوا فيما جاءت به الأنبياء قبل محمد، وكفر من كفر منهم قبل إرسال محمد.

وكان منهم من لم يكفر، بل كان مؤمناً بالأنبياء كما قال تعالى: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۗ» [الأعراف: ١٥٩] «وَقَطَمْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِّنْهُمْ أَلْصَلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ۗ» [الأعراف: ١٦٨] وقال تعالى: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهٗ أَلَيْلٌ وَهَمْ يَسْجُدُونَ ۗ» [يونس: ١٠٣] «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۗ» [آل عمران]. وقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَرُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۗ» [المائدة].

وفي صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربي قال لي: قم في قريش فأنذرهم فقلت: أي رب إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال: إني مبتليك ومبتلي بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، فابعث جنداً نبعت مثلهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك»<sup>(٣)</sup> والحديث أطول من هذا.

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

والمقصود هنا الكلام على الآية فنقول: القول الثالث وهو أصح الأقوال لفظاً ومعنى.

أما من جهة اللفظ ودلالته وبيانه، فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان يعني اختياره ويقهر عليه إذا تخلص منه، يقال: انفك منه، كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر، يقال: فككت الأسير فانفك، وفككت الرقبة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ﴾ (١٢) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (١٣) [البلد].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكوا العاني»<sup>(١)</sup>. وفي الصحيح أيضاً أن علياً لما سئل عما في الصحيفة فقال: فيها العقل، وفكك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

ففكه: فصله عن يقهره ويستولي عليه بغير اختياره والتفريق بينهما.

ويقال: فلان ما يفك فلاناً حتى يوقعه في كذا وكذا، والمتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا، يقال لمن لزم غيره واستولى عليه إما بقدرة وقهر، وإما بتحسين وتزيين وأسباب، حتى يصير بها مطيعاً له.

ويقال للمستولي عليه: هو ما ينفك من هذا، كما لا ينفك الأسير والرقيق من المستولي عليه.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم كما أن المنفك لا حجر عليه، وهو لم يقل «مفكوكين» بل قال: ﴿مُنْفَكِينَ﴾. وهذا أحسن، فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: «مفكوكين» كان التقدير: لم يكونوا مسيئين مخلين، فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا ترسل إليهم رسل، بل يفعلون ما شاءوا مما تهواه الأنفس.

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولاً، وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة] لا يؤمر ولا ينهى. أي أيظن أن

هذا يكون؟ هذا ما لا يكون البتة، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَنْفَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ [الزخرف] وهذا استفهام إنكار، أي لأجل إسرافكم نترك الذكر ونعرض عن إرسال الرسل، ومن كره إرسالهم؟ فإن الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاؤوا به. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ ﴾ (٦) [محمد] وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ يَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (٧) [غافر]. وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولا، وأنه يترك سدى مهملا لا يؤمر ولا ينهى، فهذا أيضا مما ذمه الله، إذا (١) كان لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه أيضا لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة.

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٨) أَمْ يَحْسَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٨﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿ أَحْسِبْتُمْ أَنَّ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِنَّا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ (٩) [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (١٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ [الحجر] وقال: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَاجْتَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦) [الجاثية] وقال عن أولي الألباب: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيلًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٧) [آل عمران] ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والمعاد مما لا بد منه، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب (٢) وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع. وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر. فإن الله أخبر بذلك، وخبره صدق، فلا بد من وقوع

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: إذ. (٢) في الأصل (وجود) عبد الصمد.

مخبره، وهو واجب بحكم وعده وخبره، فإنه إذا علم<sup>(١)</sup> أن ذلك سيكون، وأخبر أنه سيكون، فلا بد أن يكون، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه وأخبر به، وكتبه وقدره.

وأيضاً فإنه قد شاء ذلك، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا بد أن يقع كل ما شاءه.

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع آخر من القرآن، من أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم وتنهاتهم يرسلهم مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] يندرون الذين أسأؤوا عقوبات أعمالهم، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مُكْتَبِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيراً ونذيراً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١].

ومما يبين ذلك أن «حتى» حرف غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، كما في قوله: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقوله: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ونظائر ذلك.

فلو أريد أنهم لم يكونوا متتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا فإن اللفظ عام فيهم. وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم، وأنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا واختلفوا، وكلاهما باطل، فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه ومن أمور آخر، ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم، ولم يتفرقوا كلهم عن الإيمان به.

(١) في الأصل (إذا علم من ذلك) عبد الصمد.

وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقاً، كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق ولا تتضمن ذمهم مطلقاً، كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلّفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق، بل تضمنت<sup>(١)</sup> مدح من آمن منهم بالرسول، وذم من لم يؤمن، والإخبار أنه لا بد من إرسال الرسول إليهم فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة].

ثم إن الذين آمنوا بالرسول لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب كما قال تعالى: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت] ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين [العنكبوت].

ثم قال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت].

فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين: إما رجل آمن بهم في الظاهر، فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب وإما رجل عمل السيئات ولم يؤمن، فلا يفوت الله، بل هو آخذه بغير إرادته.

ولهذا انقسم الناس في الرسل إلى ثلاثة أقسام مؤمن باطن وظاهر، وكافر مظهر للكفر، ومنافق مظهر للإيمان مبطن للكفر، ومن حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حصل هذا الانقسام، وأنزل الله تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين، وأيتين في صفة الكافرين، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين.

وأما حين كان بمكة وكان المؤمنون مستضعفين، فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق، بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس. ومنهم من يتكلم بالكفر مكرهاً

(١) في الأصل «تضمن» (عبد الصمد).



مع طمأنينة قلبه بالإيمان، وهذا مؤمن باطناً وظاهراً، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس لما أكره عليه، أو كتم عنه إيمانه، فهو يتكلم بالإيمان في خلوته ومع من يأمنه، ويعمل بما يمكنه، وما عجز عنه فقد سقط عنه.

ولهذا قال العلماء، منهم أحمد بن حنبل: لم يكن يمكنهم نفاق، إنما كان النفاق بالمدينة.

ولكن كان بمكة من في قلبه مرض، كما قال في السورة المكية ﴿وَلَا يَرْأَبَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١] وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ ءَآلًا إِنَّا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة] وأمثال ذلك.

فكذلك الذين كفروا لم يكن ليركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات، فهذا معنى قوله: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. وهم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ومنهم من يكفر.

وإذا قيل: إن الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر، وهو أنهم لم يكونوا ليهتدوا ويعرفوا الحق ويؤمنوا حتى تأتيتهم البينة، إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من الله أيضاً، أو لم يكونوا متتهين متعظين وإن عرفوا الحق حتى يأتيتهم من الله من يذكرهم، فهذا المعنى لا يناقض ذلك.

بخلاف قول من قال: لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكرة، ولم يكونوا متفرقين فيه بل متفقين على الإيمان به، حتى جاءتهم البينة، فتركوا الإيمان به وتفرقوا، فإن هذا غير مراد قطعاً.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ولم يقل «حتى أتيتهم» وأولئك لما لم

يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضوع موضع الماضي، وأن المراد: ما انفكوا عما كانوا عليه إما من كفر، وإما من إيمان - حتى أتتهم البيعة - فلما قيل: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيْعَةُ﴾ أشكل عليهم وقال بعضهم: لما تأتتهم كلها.

وأما على المعنى الصحيح فالموضوع موضع المضارع كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فإن المراد: ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتتهم البيعة.

وهو سبحانه قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿لَمْ يَكُنِ﴾ وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فذاك إذا تجرد، فقيل «لم يأت» و«لم يذهب» فمعناه «ما أتى» و«ما ذهب».

وأما إذا قيل «لم يكن يفعل هذا» و﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفَرَ لَكُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقاً، وإذا قيل لم يكن فلان آتياً حتى يذهب إليه فلان «بخلاف ما إذا قلت: لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان» ولو قيل ما كان فلان فاعلاً لهذا حتى يكون كذا كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل «ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان».

فنفس المضارع الذي خبره اسم فاعل وهو الدائم، والمراد: لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتتهم البيعة، ولو قيل هنا (حتى أتتهم البيعة) لم يكن موضعه.

وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والإيمان لقيل ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيْعَةُ﴾<sup>(١)</sup> أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم، فليس هذا موضع الماضي، بخلاف ما لو قيل (ما زالوا كافرين حتى أتاهم).

فالآية تتضمن الإخبار عن وجوب إثبات البيعة، وامتناع الانفكاك بدونها، لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الانفكاك ثم ثبوته في الماضي، وهو كما لو قيل «لم يكونوا ينفكون حتى تأتتهم البيعة» لكن هنا ذكر اسم الفاعلين، فقيل: ﴿مُنْفَكِينَ﴾.

(١) كذا في الأصل، ولعل مراد الشيخ تذكير الفعل بدل تأتيه.

وهو سبحانه لما ذكر أنه لا بد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك [ذكر] بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وقامت عليهم الحجة، فبينات الله وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء.

وهو لم يعذب واحداً من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة وقامت عليهم الحجة، كما في قصة موسى ومن أرسل إليه، فإن الله لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل إليهم موسى، ولم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة، ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، فلم يكونوا معذورين في ذلك.

ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم، فقيل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك، فمن كان كافراً لم يكن منفكاً حتى تأتية البينة، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة.

وما أمر الجميع ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

والآية تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه لا يدعهم حتى يرسل إليهم رسولاً، كما قال لأهل الكتاب: ﴿فَدَّ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرَقٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الآية [المائدة: ١٩]، لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول، لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول، فإن هذا لا يقوله عاقل، ولم يقله أحد، لا سيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله.

ونظير هذا في اللفظ قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَسْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِبَلَدِهِ إِلَّا سِحِّيقِ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧]. ليس المراد: ما كنتم بالغيه في الماضي، بل هذه حالهم دائماً.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمْ﴾ يقتضي أن هذه حالهم دائماً.

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق، وما أمر الله به جميع العباد، وأن ذلك أمر لا بد منه، لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان السعداء أهل الجنة، والأشقياء أهل النار.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ [١] رِسْوَلٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴿جمله فيه بيان إرسال [الرسول] إلى الجميع وقوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ [٣] فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع، ودم تفرقهم واختلافهم، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة. وهاتان الجملتان نظيرهما قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۗ﴾ [الشورى] ثم قال: ﴿﴿ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۗ﴾ [الشورى] وقوله: ﴿﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۗ﴾ [هود].

ثم ذكر ما أمر به الجميع بقوله: ﴿﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۗ﴾ [٥]. ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

### فصل

وقوله: ﴿﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ [١] قال طائفة من المفسرين: هو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا مجتمعين على الإيمان به. ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم إيمان بعضهم وكفر بعض. قال البغوي: ثم ذكر

من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ  
الْبَيِّنَةُ﴾ أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب  
مجتمعين في تصديق محمد حتى بعثه الله فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فآمن به  
بعضهم وكفر به بعضهم.

وهكذا ذكر طائفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
فَمَا اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ [يونس: ٩٣] قال أبو الفرج: قال ابن عباس: ما اختلفوا في  
أمر محمد، لم يزلوا به مصدقين حتى جاءهم العلم، يعني القرآن، وروي عنه: حتى  
جاءهم العلم، يعني محمداً. فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم، وبيان هذا  
أنه لما جاءهم اختلفوا في تصديقه، فكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين  
على تصديقه، بغياً وحسداً<sup>(١)</sup>.

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفاراً، قال ابن عطية: ثم ذكر تعالى مذمة من  
لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من  
بعد أن رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته فلما جاء من  
العرب حسدوه<sup>(٢)</sup>. وكذلك قال الثعلبي: ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد  
فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة - البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال العلماء:  
من أول هذه السورة إلى قوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل  
الكتاب والمشركين، ﴿وَمَا نَفَرَقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام  
الحجة عليه.

وكذلك قال أبو الفرج قال: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني من لم يؤمن ﴿إِلَّا  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه محمد والمعنى لم يزلوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث قاله  
الأكثر.

والثاني: القرآن، قاله أبو العالية.

والثالث: ما في كتبهم من بيان نبوته، ذكره الماوردي<sup>(٣)</sup>.

(١) قوله: (بغياً وحسداً) في المطبوع (قبل ظهوره) وهو أصوب.

(٢) ابن عطية (٣٤٤/١٦). (٣) زاد المسير (١٩٧/٩).

قلت: هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين، ولم يذكر الثعلبي، والبغوي وغيرهما

سواه.

وأبو العالية إنما قال: الكتاب، لم يقل: القرآن هكذا رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ قال: قال أبو العالية: الكتاب، ومراد أبي العالية جنس الكتاب فيتناول الكتاب الأول كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠] في موضعين من القرآن وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا التفسير معروف عن أبي العالية ورواه عن أبي بن كعب. ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وأن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعني بني إسرائيل أتوا الكتاب والعلم ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس بغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة كانوا شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم. قلت: الاختلاف في كتاب الله نوعان: أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَيِ شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٦﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود]. والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين، كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿ [البقرة: ٢٥٣] وقوله: ﴿ هَذَا نِ حَصَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٣] وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج] وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع ونهى عن التشبه بهم، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال: ﴿ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّاتِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَنِيًّا ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند الأخرى من الحق، وتزيد في الحق باطلاً، كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك.

وحينئذ نقول: من قال إن أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد إلا من بعد ما بعث، إرادة إيمان بعضهم وكفر بعضهم كما قاله طائفة فالمذموم هنا من كفر، لا من آمن، فلا يذم كل المختلفين، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول، فلما جاء كفر به حسداً أو بغياً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

وإن أريد بالفرق فيه أنهم كلهم كفروا به وتفرقت أقوالهم فيه فليس الأمر كذلك، وقد بين القرآن في غير موضع أنهم تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد ﷺ، فاختلف هؤلاء وتفرقهم في محمد ﷺ هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه. والله أعلم (١).

## سورة الزلزلة

وقال في فضل السورة:

(وأما حديث (الزلزلة) و(قل يا أيها الكافرون) فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن ومن قرأ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ [الكافرون] عدلت له ربع القرآن» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن»<sup>(١)</sup> رواهما الترمذي وقال عن كل منهما: غريب) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ ﴿٦﴾

(وهذا بخلاف قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ فإنها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الأرض تخبر بذلك فالعجب في المخبر لا في الخبر كشهادة الأعضاء) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾

(قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى فإن الله لا يظلمه بل يشبهه عليه) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ والعبد إذا اجتمع له سيئات وحسنات فإنه وإن

(١) حديث أنس بن مالك رواه الترمذي (٢٨٩٣) والحديث وحسن، وحديث ابن عباس رواه الترمذي (٢٨٩٤) وسنده صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/١٧). (٣) النبوات (٢٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٦١/١١).



استحق العقاب على سيئاته فإن الله يشبهه على حسناته ولا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه، وإنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر، وأنهم لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها وأن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الإيمان شيء وهذه أقوال فاسدة، مخالفة للكتاب، والسنة المتواترة، وإجماع الصحابة) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (لا يحاسب العباد إلا هو وحده، وهو الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

## سورة العاديات

وفي نزول السورة وتفسير العاديات فقال:

(وسورة ﴿وَالْمَدِينَةِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها نزلت بمكة، وهذا يروى عن ابن مسعود وعكرمة وعطاء وغيرهم، فعلى هذا يظهر كذب هذا القول. والثاني: أنها نزلت بالمدينة<sup>(١)</sup> وهو مروى عن ابن عباس وقتادة. وهذا القول يناسب قول من فسر ﴿وَالْمَدِينَةَ﴾ بخيل المجاهدين، لكن المشهور عن علي المنقول عنه في كتب التفسير أنه كان يفسر ﴿وَالْمَدِينَةَ﴾ بإبل الحجاج وَعَدُوها من مزدلفة إلى منى. وهذا يوافق القول الأول، فيكون على مقاله علي يكذب هذا القول. وكان ابن عباس والأكثر يفسرونها بالخيل العاديات في سبيل الله<sup>(٢)</sup> ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

(١) القولان في زاد المسير (٢٠٦/٩).

(٢) الأقوال كلها في زاد المسير (٢٠٦/٩).

(٣) منهاج السنة (١١٧/٨).

## سورة القارعة

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ .

(إن المقصود أنه نطق الكتاب والسنة وأقوال السلف بوزن الحسنات والسيئات: دل على قول من قال: بذهاب بعض الحسنات بالسيئات كما يذهب بعض السيئات بالحسنات، وعن ابن عباس توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان، - وهو الحق - فتثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة فيعرفها بعمله فذلك قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون] أي الناجحون وهم أعرف بمنزلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل فيخف وزنه حتى يقع في النار ثم يقال له: الحق بعملك<sup>(١)</sup> .

وهو سبحانه ذكر من ثقلت موازينه فدخل الجنة، ومن خفت موازينه فدخل [النار] على طريقة القرآن في ذكر أهل الوعد المحض، وأهل الوعيد المحض، كما قال أبو بكر الصديق: إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً<sup>(٢)</sup> .

وأما من كان داخلاً في الوعد والوعيد: فمذهب الصحابة والتابعين وأهل السنة

(١) القرطبي في تفسيره (١٦٦/٧).

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف (٥٧٢/١٤) وابن جرير في تهذيب الآثار (٩٢٥/٢) وابن سعد في الطبقات (٢٧٤/٣) وأخرج هذه الوصية ابن زبير الربيعي في وصايا العلماء (٣٢ - ٣٥).

والجماعة: أنه يستحق الثواب والعقاب جميعاً، فإذا عذبه الله بذنبه ما شاء أن يعذبه، أخرج بعد ذلك من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

ومذهب الخوارج والمعتزلة: يأثم إلا مستحق للوعد فقط، منع لا يعذب أو مستحق للوعيد فقط معذب لا ينعم. وقد بسطنا القول عليهم في غير هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

ولهذا قالوا بالإحباط المطلق الذي لا يبقى معه حسنة. وإذا كانت النصوص وإجماع السلف دل على أن من الناس من ينعم ويعذب، وأن فيه بعض الإيمان فهذا إذا كانت له حسنات كثيرة وسيئات كثيرة، يكون سيئاته أبطلت بقدرها من حسناته، وإذا ترجحت سيئاته دخل النار، ولا يلزم من رجحان السيئات أن تكون الحسنات قد بطلت حتى يصير لا حسنة له بحال الكفار، فإن الموزون هي الأعمال المصورة، وصحفها تدل على أن له حسنات وسيئات، وأما من لا حسنة له بحال فذاك ميزانه خفيفة، خفة مطلقة ليس فيها شيء من الحسنات التي تثقل بها، فإن الخفة والثقل إنما هو في الحسنات، والتي يفلح صاحبها إذا ثقلت كفتها، ويخسر إذا خفت، فإذا قدر حسنات محضة ليس بإزائها سيئات فهذه في غاية الثقل، وإذا قدر سيئات محضة ليس بإزائها حسنات فهذه في غاية الخفة. وقال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنه: واعلم أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم باتباعهم الحق، وثقل ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل، وخفّه<sup>(٢)</sup> عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

والوزن على وجهين: أحدهما: أن يوضع بإزاء الحسنات والسيئات ما يعرف مقدارها، وثقلها وخفتها، كما توزن الأموال، ثم ينظر بعد هذا في مقادير الموزونات وتعادلها وتفاضلها.

والثاني: أن يوزن أحدهما بالآخر كما يوزن دراهم زيد بدراهم عمرو، وإذا بيع أحدهما بالآخر مثلاً بمثل، فهذا الوزن الذي يدل عليه حديث البطاقة حيث قيل فيه، فتوضع البطاقة في كفة، والسجلات في كفة فثقلت البطاقة وطاشت السجلات، ووصف

(١) ذكر ذلك في كتابه القيم «الإيمان» فليراجع.

(٢) مصدر خفَّ يَخْفُ.

الميزان بالثقل والخفة مطلقاً من غير وصف بالثقل بأنه الحسنات ولا وصف رجحان هذا الموزون على هذا الموزون دل على أن الحسنات لها ثقل.

وأما السيئات فلا ثقل لها أصلاً، فإذا لم يوضع في الميزان إلا السيئات لم يكن لها ثقل بل تكون خفيفة خفة مطلقة، وإنما يكون ثقل إذا كان فيها حسنات، والحسنات نور مصور، والسيئات ظلمة، ولهذا قال الصديق: وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً، فالكافر الذي ليس له إلا السيئات يكون ميزانه خفيفاً خفة مطلقة. وأما المسلم الذي له حسنات وسيئات، وسيئاته أكثر فيخف ميزانه لما يوزن فيه من السيئات الزائدة، وهذا هو الذي يعذب ثم يخرج من النار.

والميزان يوصف تارة بالثقل والخفة، وتارة برجحان أحد الجانبين على الآخر، وهذا إنما يكون فيما إذا اشترك المتقابلان في الثقل واختص أحدهما بمزيد الثقل، كالموزونات بميزان الكفتين فإنه يكون في أحدهما ما له ثقل وفي الأخرى ما له ثقل. فإما أن يتساويا، أو يرجح أحدهما على الآخر. وهذا كما في الحديث «رأيت كأني جُعلت في كفة والأمة في كفة فرجحت بالأمة، ثم جُعل أبو بكر في كفة والأمة في كفة فرجح أبو بكر، ثم ذكر مثل ذلك في عمر»<sup>(١)</sup>.

فإذا وزن حسنات شخصين، قيل حسنات أحدهما أرجح، كذلك لو وزن ثواب عمليين قيل ثواب هذا العمل أرجح، والله تعالى لم يصف الموازين بالرجحان وإنما وصفها بالخفة والثقل، فالحسنات لها ثقل، وأما السيئات فلا ثقل لها أصلاً، فإذا وزنت الحسنات بالسيئات لم يكن أن يثقل جانب السيئات على ما في الميزان، لأنه كان يكون الثقيل مذموماً، والقرآن لم يجعل الثقل إلا محموداً. ولم يقل في القرآن فمن رجحت حسناته ومن رجحت سيئاته بل قال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٣] ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

(١) أبو داود (٤٦٣٤) بلفظ «من رأى منكم رؤيا فقال رجل أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبي بكر. والترمذي (٢٢٨٨) وأحمد (٧٦/٢)، ٤٤/٥ والنسائي في فضائل الصحابة (ح ٣٣).

(٢) رسالة تزكية النفس (٧٠ - ٧٥) تحقيق: محمد بن سعيد القحطاني.

## سورة التكاثر

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ .

(وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى وممن ذكره ابن عطية<sup>(١)</sup> في تفسيره قال: وهذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره ثم قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً»<sup>(٢)</sup> فكان نهييه في معنى الآية ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاعتاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر وتسنيماً بالحجارة الرخام وتلوينها سرفاً وبنیان النواويس عليها هذا لفظ ابن عطية) ا. هـ<sup>(٣)</sup>.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾ .

(سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمته الله عن قوله تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] و﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ و﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟ فأجاب: الحمد لله رب العالمين. للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة.

(منها): أن يقال: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ما علمه بالسمع والخبر والقياس والنظر و﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ما شاهده وعايينه بالبصر و﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ما باشره ووجدته وذاقه وعرفه بالاعتبار.

فالأول: مثل من أخبر أن هناك عسلاً وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

(١) ابن عطية (٣٥٨/١٦ - ٣٥٩).

(٢) النسائي (٣١١/٨) ابن ماجه (١٥٧١) والبيهقي (٧٦/٤) والحديث الصحيح.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٧٥/٢٧ - ٣٧٦).

والثاني: مثل من رأى العسل وشاهده وعينه وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: «ليس المخبر كالمعاین»<sup>(١)</sup>.

والثالث: مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»<sup>(٣)</sup> فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً، وقال الآخر: لأهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

«إحداهما»: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

و«الثانية»: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

و«الثالثة»: إذا باشروا ذلك: فدخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون فالناس فيما يوجد في القلوب وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته؛ فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه وعرفه وخبره؛ وبهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر وفي الحديث الصحيح: «إن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي ﷺ قال: فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته لا يسخطه أحد»<sup>(١)</sup>.

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب بل يحبه ويرضاه فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٥٨] [يونس] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن والاستبشار هو الفرح والسرور وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

و(اللذة) أبداً تتبع المحبة فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به فالذوق هو إدراك المحبوب اللذة الظاهرة كالأكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يُحَبُّ سواه

(١) حديث هرقل وكلامه مع أبي سفيان في البخاري معروف.



فمحبته تبع لحبه؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يُحِبُّ لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وفي الحديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»<sup>(٢)</sup> وفي حديث الترمذي وغيره: «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالذين آمنوا أشد حبا لله من كل محب لمحبوه وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع متعددة.

والمقصود هنا) أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة؛ ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء لله وحده فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

«منهم» من علم ذلك سماعاً واستدلالاً.

و«منهم» من شاهد وعان ما يحصل لهم.

و«منهم» من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله والالتجاء إليه والاستعانة به وقطع التعلق بما سواه وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم؛ ولا يحصل مقصوده بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا

(١) الترمذي (٣٧٨٩)، الحاكم (١٥٠/٣) وهو حديث ضعيف.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) مرّ تخريجه.

ينفعونه: إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه واستغاث به مخلصاً له الدين أجاب دعاءه، وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة فمثل هذا قد ذاق [مِنْ] حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.

بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره؛ بل هو في خوف وحزن دائماً إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه.

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله والعبادة له وحلاوة ذكره ومناجاته. وفهم كتابه وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً ويكون لوجه الله خالصاً؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله ولا أضر عليه من الإشراك.

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا، والله أعلم) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ لِنُسْأَلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ٨

(وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِنُسْأَلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ٨) أي عن شكر النعيم فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم؛ فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح وإنما

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٥ - ٦٥٢) وهذه تشمل ثلاث مواضع في القرآن ذكر فيها الصبر الجميل والهجر الجميل والصفح الجميل في الواقعة والحاقة والتكاثر.

يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْتُسَلِّنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ أي عن شكره والكافر لم يشكر على النعيم الذي أنعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك؛ والله إنما أباحها للمؤمنين وأمرهم معها بالشكر كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢] ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْتُسَلِّنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ ولما ضاف النبي ﷺ أبا الهيثم بن التيهان وجلسوا في الظل وأطعمهم فاكهة ولحماً وسقاهم ماءً بارداً قال: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»<sup>(٣)</sup> والسؤال عنه لطلب شكره لا لإثم فيه) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْتُسَلِّنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ أي شكر النعيم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»<sup>(٥)</sup> وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أن الله ليرضى عن العبد بأن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»<sup>(٦)</sup> وكذلك (الإسراف في الأكل) مذموم، وهو مجاوزة الحد) ا.هـ<sup>(٧)</sup>.

وقال رحمه الله: (وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» وفي حديث آخر: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْتُسَلِّنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ أي عن شكره فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه و عما حرمه عليه: هل فرط بترك مأمور أو فعل محذور كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسَدُّوا بِهَا آيَاتِ اللَّهِ لَا يَحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [المائدة] فنهاهم عن تحريم الطيبات كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على التهرب فأنزل الله هذه الآية) ا.هـ<sup>(٨)</sup>.

- (١) مجموع الفتاوى (١٣٧/٢٢).  
 (٢) مجموع الفتاوى (٤٤/٧) (١٤٠/١٠).  
 (٣) النسائي (٢٤٦/٦) أحمد (٣٥١/٣) والحديث صحيح.  
 (٤) جامع الرسائل (٣٥٠/٢).  
 (٥) مرّ تخريجه.  
 (٦) مرّ تخريجه.  
 (٧) مجموع الفتاوى (٢١٢/٣٢).  
 (٨) مجموع الفتاوى (١٨٠/١٧ - ١٨١).

وقال رحمه الله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أي عن الشكر عليه ا. هـ<sup>(١)</sup>.

## فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

«سورة التكاثر» قيل فيها: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ تنبيهاً على أن الزائر لا بد أن ينتقل عن مزاره فهو تنبيه على البعث.

ثم قال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ فهذا خبر عن علمهم في المستقبل، ولهذا روي عن علي: أنه في عذاب القبر، ثم قال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ فهذا إشارة إلى علمهم في الحال والخبر محذوف: أي لكان الأمر فوق الوصف ولعلمتم أمراً عظيماً ولألهاكم عما ألهاكم فإن الانتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين كما قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦] ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً<sup>(٢)</sup>» وحذف جواب لو كثير في القرآن تعظيماً له وتفخيماً فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ إذ المخبر ليس كالمعاني ولهذا أتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عَيْنُ الْيَقِينِ التي هي فوق الخبر الذي هو عِلْمُ الْيَقِينِ فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل مع كون جواب لو محذوفاً كما تقدم في أحد القولين وفي الآخر هو متعلق بلو لكن يقال جواب لو إنما يكون ماضياً فيقال: لرأيتكم الجحيم كقول النبي ﷺ: «لو تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم»<sup>(٣)</sup> ولو كان ماضياً فليس مما يؤكد بل يقال: لو يجيء لأجي وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب لو كقوله: ﴿وَإِنِ اطَّعْتُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] وله نظائر في القرآن وكلام العرب فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما وهو هنا القسم وهو المقصود.

وعلى هذا القول يكون المعنى: والله لو تعلمون عِلْمَ الْيَقِينِ لترون الجحيم

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٩١).

(٢) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) مسلم (٢٧٥٠).

بقلوبكم والأول هو المشهور. ومن المفسرين من لم يذكر سواه، وهو الذي أثروه عن متقدميهم ويدل على صحته وأنه الحق أن قوله: ﴿ثُمَّ لَرَوْهَا﴾ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ معطوف على ما قبله فيكون داخلاً في حيزه فلو كان الأول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك وهو باطل لأن رؤيتها عَيْنَ اليَقِينِ والمسألة عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا عِلْمَ اليَقِينِ.

وأيضاً فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب.

وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب فإن المعنى حينئذ لو علمتم عِلْمَ اليَقِينِ لرأيتم بقلوبكم وذلك هو العلم، فالمعنى لو علمتم، وهذا لا يفيد ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبه، وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم عليه فإنه ليس بطائل.

وأيضاً فقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ﴾ لم يذكر المعلوم حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم فإن أريد معلوم خاص فلا دليل في الشرط عليه حتى يصح الارتباط وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها، وهذا فيه نظر فقد يسأل ويقال قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق.

ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه، وجوابه: أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد حيث افتتحه بقوله: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾.

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غالباً أو في الوعد، وإذا كان العلم مقيداً بالسياق اللفظي وبالوضع العرفي فقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ هو ذاك العلم أخبر بوقوعه مستقبلاً ثم علق بوقوعه حاضراً وقيد المعلق به بعِلْمِ اليَقِينِ فإنهم قد يعلمون ما بعد الموت لكن ليس علماً هو يقين<sup>(١)</sup>.

## سورة العصر

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ۝٢ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ .

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ۝٢ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ وروى عن الشافعي رحمته الله أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة (والعصر) لكفتهم، وهو كما قال؛ فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الأجر؛ كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمتل فالأمتل، يتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض، وليس عليه خطيئة»<sup>(١)</sup> وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره؛ وذلك هو سبب الإمامة في الدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝١٤﴾ [السجدة] ا. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ۝٢ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ .

فلا بد من التواصي بالحق والصبر، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضاً لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر وأولئك يتواصون على باطلهم كما قال قائلهم: ﴿إِنْ أَمْشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

فالتواصي بالحق بدون الصبر، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أودي أحدهم

في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، والذين يعبدون الله على حرف، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

والتواصي بالصبر بدون الحق، كقول الذين قالوا: (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) كلاهما موجب للخسران وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة، وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة الهمزة

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾.

(قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ والهمز: العيب والطعن بشدة وعنف، ومنه همز الأرض بعقبه، ومنه الهمزة وهي نبرة من الصدر) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

## فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

قوله: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ هو الطعان العياب كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَشَامٍ بِتَمِيمٍ﴾ [الفلج] وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨] وقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧٩] والهمزة أشد، لأن الهمز الدفع بشدة، ومنه الهمزة من الحروف، وهي نقرة في الحلق ومنه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون] ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه»<sup>(٢)</sup> وقال: «الهمزة الموتة» وهي الصرع فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى.

واللمز كالذم والعيب، وإنما ذم من يكثر الهمز، واللمز - فإن الهمزة واللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيراً - و«الهمزة» و«اللمزة» الذي يفعل ذلك به كما في نظائره مثل الضحكة والضحكة، واللعبة واللعبة وقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ وصفه بالطعن في الناس، والعيب لهم، وجمع المال وتعديده، وهذا نظير قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد] في (النساء) و(الحديد) فإن الهمزة

(١) منهاج السنة (٥/٢٣٥).

(٢) أبو داود (٧٦٤، ٧٧٥) الترمذي (٢٤٢) وابن ماجه (٨٠٧) والبيهقي (٣٥/٢ - ٣٦) والحديث صحيح.



اللمزة يشبه المختال الفخور، والجماع المحصى نظير البخيل، وكذلك نظيرهما قوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَّامٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم] وصفه بالكبر والبخل، وكذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ وَأَسْتَقْفَى ﴿٨﴾﴾ [الليل] فهذه خمس مواضع، وذلك ناشئ عن حب الشرف والمال، فإن محبة الشرف تحمل على انتقاص غيره بالهمز واللمز والفخر والخيلاء، ومحبة المال تحمل على البخل وضد ذلك من أعطى فلم يبخل، واتقى فلم يهمز، ولم يلزم، وأيضاً فإن المعطي نفع الناس والتمتقي لم يضرهم فنفع ولم يضر وأما المختال الفخور البخيل فإنه يبخله منعهم الخير، وبفخره سامهم الضر فضرهم ولم ينفعهم، وكذلك (الهمزة) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ ونظيره قارون الذي جمع مالاً، وكان من قوم موسى فبغى عليهم.

ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضاً فإنه كما قال ابن عباس في رواية الوالبي: مشتمل على الأقسام والأمثال وهو تفسير: ﴿مُتَشَبِّهًا مَنَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. ولهذا جاء كتاب الله جامعاً، كما قال ﷺ: «أعطيت جوامع الكلم»<sup>(١)</sup>.

## سورة الفيل

وفي سبب نزول سورة الفيل قال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

(وقد ذكر العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أن أبرهة ملك الحبشة الذي ساق الفيل إلى مكة ليهدهما حين استولت الحبشة على اليمن وقهروا العرب ثم بعد هذا وفد سيف بن ذي يزن فاستنجد كسرى ملك الفرس فأنجده بجيش حتى أخرج الحبشة عنها، وهو ممن بشر بالنبي ﷺ، وكانت آية الفيل التي أظهر الله تعالى بها حرمة الكعبة لما أرسل عليهم الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، أي جماعات متفرقة، والحجارة من سجيل طين قد استحجر، وكان عام مولد النبي ﷺ وهو من دلائل نبوته، وأعلام رسالته، ودلائل شريعته. والبيت الذي لا يحج ولا يصلي إليه إلا هو وأمته.

قالوا: كان أبرهة قد بنى كنيسة بأرض اليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، فدخل رجل من العرب فأحدث في الكنيسة، فغضب لذلك أبرهة، وسافر إلى الكعبة ليهدهما حتى جرى ما جرى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ وهذا معروف عند عامة العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أنه بنى كنيسة أراد أن يصرف حج العرب إليها) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى. آمين بالله

ورسوله، واشهد أن لا إله إلا الله - وحده لا شريك له -، وأن محمداً عبده ورسوله، فإنني أدعوك بدعاية الله، فإنني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن أبيت، فإن أثم المجوس عليك»، فلما قرأ كتاب رسول الله ﷺ شققه وقال: يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي؟<sup>(١)</sup>.

قلت: وسبب قول كسرى هذا واستعلائه: أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أباييل - وهي جماعات في تفرقة - تحمل حجارة من طين، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت.

وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصراً من الله لمشركي العرب فإن دين النصارى خير من دينهم، وإنما كان نصراً للبيت وللأمة المسلمة التي تعظمه وللنبي المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، فأنزل الله في ذلك: ﴿الَّذِي تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ ا. هـ.<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن، قصة الفيل، قال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾. وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل، ليهدموا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن، فقصدوا إهانة الكعبة، وتعظيم كنايسهم. فأرسل الله عليهم طيراً أهلكهم وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير من دينهم.

فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ، الذي ولد به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، أي ذلك كان فهو من دلائل نبوته.

(١) هذا النص من ابن جرير (٢/٦٥٤ - ٦٥٥) وتمزيق الكتاب ثبت في البخاري (١/٢٤) وغيره.

(٢) الجواب الصحيح (١/٣١٦ - ٣١٨).

فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظاً له، وذباً عنه لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي إليه، إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي فرض حجه والصلاة إليه. فإذا كان هذا البيت عند الله خيراً من الكنائس التي للنصارى، حتى إن الله أهلك النصارى أهل الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت، علم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارى، والمشركون ليسوا خيراً من النصارى. فتعين أن أمة محمد ﷺ خير من النصارى، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق، وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب، فليسوا خيراً من النصارى، بل هم شرار الخلق، كأتباع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي وغيرهما، وقال في القرآن: ﴿الَّذِي تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فُجِعْلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

والأبابيل جماعات في تفرقة، فوج بعد فوج، ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ أي من طين مستحجر، ﴿فُجِعْلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ كالتبن الذي أكل، وقوله: ﴿الَّذِي تَرَى﴾ استفهام في معنى التقرير، وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس، ورأوه وقد قرروهم على ذلك، لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق (١) هـ.

## سورة قريش

وقال رحمه الله في نزول سورة قريش :

(ودعا قريشاً إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأنزل تعالى: ﴿لَا يَلْفُفُ قُرَيْشٌ ۙ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الِشْتَاءِ وَالصَّيْفِ ۙ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۙ﴾ ٣ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ٤ [قريش] ا. هـ (١).

﴿قوله في قريش: ﴿لْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۙ﴾ ٣ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ٤ لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت، بل أمر الله جميع الثقيلين: الجن والإنس أن يعبدوا رب هذا البيت) ا. هـ (٢).

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ٤.

(فإنه قنت مستنصراً كما استسقى حين الجذب، فاستنصاره عند الحاجة كاسترزاقه عند الحاجة إذ بالنصر والرزق قوام أمر الناس كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ٤ وكما قال النبي ﷺ: «وהל تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واستغفارهم» (٣) وكما قال في صفة الأبدال: «بهم ترزقون وبهم تنصرون» (٤).

وكما ذكر الله هذين النوعين في سورة الملك وبين أنهما بيده سبحانه في قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۚ إِنَّ الْكُفْرَانَ ۙ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۙ﴾ ٢٥ ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ﴾ [الملك] ا. هـ (٥).

(١) الجواب الصحيح (٣٨٧/١).

(٢) الجواب الصحيح (١٥٢/٣).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) حديث الأبدال لا يصح، وقد ضعفه شيخ الإسلام إلا أنه يعني أن معناه ينساق ضمن هذا السياق.

(٥) مجموع الفتاوى (١٠٢/٢٣).

وقال رحمه الله: (وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبية فإن السخاء يصدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق كما تصدر الشجاعة عن القوة والصعوبة ويسب الخلق فالقوة الغضبية هي قوة النصر والقوة الشهوية قوة الرزق وهما المذكوران في قوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١) والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

## سورة الماعون

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاهُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ .

(قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاهُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم] فقد ذم الله تعالى في كتابه الذين يصلون إذا سهوا عن الصلاة وذلك على وجهين:

أحدهما: أن يؤخرها عن وقتها.

الثاني: أن لا يكمل واجباتها: من الطهارة، والطمأنينة، والخشوع، وغير ذلك، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق - ثلاث مرار - يترقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيه إلا قليلاً»<sup>(١)</sup> . ا. هـ<sup>(٢)</sup> .

وقال رحمه الله: (بل قد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ قال طائفة من السلف: هم الذين يؤخرونها عن وقتها، وقال بعضهم: هم الذين لا يؤدونها على الوجه المأمور به، وإن صلاها في الوقت، فتأخيرها عن الوقت حرام باتفاق العلماء، فإن العلماء متفقون على أن تأخير صلاة الليل إلى النهار وتأخير صلاة النهار إلى الليل بمنزلة تأخير صيام شهر رمضان إلى شوال) ا. هـ<sup>(٣)</sup> .

وقال رحمه الله: (فإنه قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها، وقد قال طائفة من السلف: بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة، وكلا المعنيين

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٣ - ٢٤).

(١) مسلم (٦٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/٢٢).

حق، والآية تتناول هذا وهذا، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ذمهم مع أنهم يصلون؛ لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الوقت وإتمام أفعالها المفروضة، كما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» فجعل هذه صلاة المنافقين لكونه أخرها عن الوقت ونقرها) (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإن الله تعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ فتوعد بالويل لمن يسهو عن الصلاة حتى يخرج وقتها وإن صلاها بعد ذلك) (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ وتأخيرها عن وقتها من السهو عنها باتفاق العلماء) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت) (٥) هـ.

وقال رحمه الله: (قال ابن مسعود: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٥﴾ أخروها حتى يخرج وقتها، ولو تركوها لكانوا كفاراً) (٦) هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ وقد فسر السلف (السهو عنها) بتأخيرها عن وقتها، وبترك ما يؤمر به فيها، كما بين النبي ﷺ أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير والتطفيف: قال سلمان الفارسي: إن الصلاة مكيال، فمن وفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في

(١) مجموع الفتاوى (٢٣٤/١٥ - ٢٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦١٤/٧ - ٦١٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٤/٢٢ - ٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٩/٢٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٤٢٨/٣).

(٦) شرح العمدة - الصلاة (٩٣).



المطففين<sup>(١)</sup> ا. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وروى من حديث سعيد بن أبي مريم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بتضييع ميقاتها) ا. هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ قال العلماء: «الساؤون عنها» الذي يؤخرونها عن وقتها، والذين يفرطون في واجباتها. فإذا كان هؤلاء المصلون الويل لهم، فكيف بمن لا يصلي؟! ا. هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ وفي السنن<sup>(٥)</sup> عن ابن مسعود قال: كنا نعد (الماعون) عارية الدلو والقدر والفأس) ا. هـ<sup>(٦)</sup>.

(١) عزاه صاحب الدر (٣٢٤/٦) لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور.

(٢) مجموع الفتاوى (٢١٧/٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٧٢/٢٢) القواعد النورانية (٧٧) وأثر أبي مريم مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٠٦/٣٥) وقد مر الكلام عما قالوه في هذه الآية.

(٥) ابن جرير (٣١٥/٣٠ - ٣١٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٩٨/٢٨) (١٨٧/٢٩).

## سورة الكوثر

﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝ ﴾ .  
 (ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ ﴾ وقدم  
 التزكي على الصلاة في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ ﴾  
 [الأعلى].

كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر وأن الذبح بعد الصلاة في عيد  
 النحر) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ ﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ  
 الْأَبْتَرُ ۝ ﴿ ٢ ﴾) فمن شئاً شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ فله من ذلك نصيب؛ ولهذا قال أبو  
 بكر بن عياش لما قيل له: إن بالمسجد أقواماً يجلسون ويجلس الناس إليهم فقال: من  
 جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكركم وأهل البدعة يموتون  
 ويموت ذكركم.

وذلك أن أهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول ﷺ فأبترهم بقدر ذلك،  
 والذين أعلنوا ما جاء به النبي ﷺ فصار لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ  
 ذِكْرَكَ ۝ ﴾ [الانشراح] فإن ما أكرم الله به نبيه من سعادة الدنيا والآخرة فللمؤمنين  
 المتابعين نصيب بقدر إيمانهم، فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه أحد  
 من أمته وما كان من ثواب الإيمان والأعمال الصالحة فلكل مؤمن نصيب بقدر  
 ذلك) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ ﴾ أي انحر لربك وكما

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٠/١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٨/٢٨)، الاستغاثة (٧٥).

قال الخليل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام] ١٠١ هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ٢) فلا يوجد من شأن الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته. قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة، فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكركم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكركم) ١٠١ هـ<sup>(٢)</sup>.

### وقال في تفسير الآية (٣):

(وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ برسول الله ﷺ فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك، وهذا والله أعلم بتحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ٢) فكل من شأنه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره. وقد قيل<sup>(٣)</sup>: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبه بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف، وقد رأيت صنيع الله بهم) ١٠١ هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (فروى الإمام أحمد قال: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال: أنتم خير قال: فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ٢) ١٠١ هـ<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ٢) فأخبر سبحانه أن شأنه هو الأبتَر، والبتر: القطع يقال: بتر يبتتر بترأً وسيف بتر إذا كان قاطعاً ماضياً، ومنه في الاشتقاق الأكبر تبره تبيراً إذا أهلكه، والتبار: الهلاك والخسران، وبين سبحانه أنه هو الأبتَر بصيغة الحصر والتوكيد لأنهم قالوا: إن محمداً ينقطع ذكره لأنه لا ولد له؛

(١) مجموع الفتاوى (٤٨٥/١٧).

(٢) زاد المسير (٢٥٠/٩).

(٣) (٤) الصارم المسلول (١٧٢).

(٥) الصارم المسلول (٨٠).

(١) مجموع الفتاوى (١٧٢/١٣).

فبين الله أن الذي يشناه هو الأبتَر لا هو ﷺ والشنآن منه ما هو باطن في القلب لم يظهر ومنه ما يظهر على اللسان وهو أعظم الشنآن وأشدّه، وكل جرم استحق فاعله عقوبة من الله إذا أظهر ذلك الجرم عندنا وجب أن نعاقه ونقيم عليه حد الله .

فيجب أن نبتَر من أظهر شنآنه وأبدى عداوته، وإذا كان ذلك واجباً وجب قتله وإن أظهر التوبة بعد القدرة وإلا لما انبتَر له شائى بأيدينا في غالب الأمر؛ لأنه لا يشاء شائى أن يظهر شنآنه ثم يُظهر المَتَاب بعد رؤية السيف إلا فعل فإن ذلك سهل على من يخاف السيف

تحقيق ذلك أنه سبحانه رتب الانبتار على شنآنه، والاسم المشتق المناسب إذا علق به حكم كان ذلك دليلاً على أن المشتق منه علة لذلك الحكم؛ فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره، وذلك أخص مما تضمنه الشنآن من الكفر المحض أو نقض العهد، والانبتار يقتضي وجوب قتله، بل يقتضي انقطاع العين والأثر، فلو جاز استحياؤه بعد إظهار الشنآن لكان في ذلك إبقاء لعينه وأثره وإذا اقتضى الشنآن قطع عينه وأثره كان كسائر الأسباب الموجبة لقتل الشخص) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ويطول الحصار إلى أن يسب العدو الرسول ﷺ فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريباً كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٢﴾ ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

«سورة الكوثر» ما أجملها من سورة؟ وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه ﷺ بتر شائى رسوله من كل خير، فبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، وبتر حياته فلا يتتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، وببتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، والإيمان برسله، وببتر أعماله فلا

يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرًا، ولا عونًا، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعمًا، ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره، فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره، أو كبيره، كمن شنأ آيات الصفات، وأحاديث الصفات وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه، ومذهب طائفته، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ.

ومن أقوى علامات شنائه لها، وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك، وحاد ونفر عن ذلك، لما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها، فأى شانى للرسول أعظم من هذا، وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا والقصائد والدفوف والشبابت إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأى شنآن أعظم من هذا، وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكذلك من أثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة فلولا أنه شانى لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان، ولكن أعظم من شنأه ورده: من كفر به وجحده وجعله أساطير الأولين، وسحراً يؤثر، فهذا أعظم وأطمّ انتباراً، وكل من شنأه له نصيب من الانتار، على قدر شنائه له، فهؤلاء لما شنؤوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم، فبترهم منه، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك، وهو أنه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة. فمما أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرّة العين والنفس وشرح الصدر، ونعم قلبه بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمه نعيم في الدنيا البتة، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد، والحوض العظيم، في موقف القيامة إلى غير ذلك، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم، وهذا ضد حال الأبر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به.

وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، أي مبغضك، والأبتر المقطوع النسل، الذي لا يولد

له خير، ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير، ولا عمل صالح، قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوماً يجلسون ويُجَلَسُ إليهم، فقال: من جلس للناس، جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون، ويحيى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم، لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح]، وأهل البدعة شنأوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به رسول الله ﷺ، أو ترده لأجل هواك، أو انتصاراً لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات، أو بالدنيا، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق، واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد؛ فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعاً للرسول، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطع، فاعلم ذلك واسمع، وأطع واتبع، ولا تبتدع، تكن أبتَر مردوداً عليك عملك، بل لا خير في عمل أبتَر من الاتباع ولا خير في عامله والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غني واسع، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه: صَدَّرَ الآية بل(إن) الدالة على التأكيد، وتحقيق الخبر، وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق، وأنه أمر ثابت واقع، ولا يدفعه ما فيه من الإيذان بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول حيث قدرت مقادير الخلائق، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم، لما فيه من عدم التعيين، وأتى بالصفة أي إنه ﷺ قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فوصفه بالكوثر، والكوثر المعروف إنما هو نهر في الجنة، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة، وقال ابن عباس: الكوثر<sup>(١)</sup> إنما هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات، فما الظن بما لرسول الله ﷺ مما أعده الله له فيها، فالكوثر علامة وأمانة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات، واتصالها وزيادتها، وسمو المنزلة وارتفاعها، وأن ذلك النهر وهو الكوثر أعظم أنهار الجنة وأطيبها ماء، وأعذبها وأحلاها وأعلاها.

وذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه، كقوله: زيد العالم، زيد الشجاع، أي لا أعلم منه ولا أشجع منه، وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾. دل على أنه أعطاه الخير كله كاملاً موفراً، وإن نال منه بعض أمته شيئاً كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه، والافتداء به، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المتبع له شيء، ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم، فإنه هو السبب في هدايتهم، ونجاتهم، فينبغي بل يجب على العبد اتباعه والافتداء به، وأن يمثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوماً وصلاةً وصدقةً وطهارةً، ليكون له مثل أجره، فإنه إذا فعل المحظورات مع ترك المأمور قوي وزره، وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور، وإن فعل المأمور وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ لكونه نال مثل أجر ما فعله من المأمور، وإلى الله إياب الخلق، وعليه حسابهم، وهو أعلم بحالهم، أي بأحوال عبادهم، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته، والمحسن إنما أحسن بتوفيق الله له، والمسيء لا حجة له ولا عذر.

والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة، فكل من قرأ أو علم أو عمل صالحاً أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاماً من المقامات القلبية من خشية أو خوف ومعرفة وغير ذلك، فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ﴿٢﴾ أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عدته وأمره، وفضله وخلفه، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، وتركاً لإعانة الفقراء وإعطائهم، وسوء الظن منهم بربهم، ولهذا جمع الله بينهما، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿[الأنعام]﴾ والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه.

والمقصود: أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما

بالفاء الدالة على السبب، لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر، والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان، بل الصلاة نهاية العبادات، وغاية الغايات.

كأنه يقول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين، شكراً لإنعامنا عليك. وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك، فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما، وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله، وحسن الظن به وقوة اليقين، والوثوق بما في يد الله أمر عجيب، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها.

وفي قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرَ ۝﴾ إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا، كما ذكر ذلك في آخر «طه» و«الحجر» وغيرهما، وفيه الإشارة إلى ترك الالتفات إلى الناس وما ينالك منهم، بل صل لربك وانحر، وفيها التعريض بحال الأبر الشاني، الذي صلاته ونسكه لغير الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ أنواع من التأكيد.

«أحدها» تصدير الجملة بـ ﴿إِنَّكَ﴾.

«الثاني» الإيتان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص.

«الثالث» مجيء الخبر على أفعل التفضيل، دون اسم المفعول.

«الرابع» تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه، وأنه أحق به من غيره، ونظير هذا في التأكيد قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

ومن فوائدها اللطيفة الالتفات في قوله: ﴿فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرَ ۝﴾.

الدالة على أن ربك مستحق لذلك، وأنت جدير بأن تعبد، وتنحر له. والله أعلم<sup>(١)</sup>.



## سورة الكافرون

وفي فضل السورة قال:

(وأما حديث الزلزلة و﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ فروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن» وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ تعدل ربع القرآن» رواهما الترمذي وقال عن كل منهما: غريب) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة (سورة الإخلاص) و﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ ففي ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ عبادة الله وحده وهو دين الإسلام، وفي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ [الإخلاص] صفة الرحمن، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الإيمان. هذا هو التوحيد القولي وذلك هو التوحيد العملي) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وفي عموم معناها قال:

﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾.

(وسورة: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ فيها التوحيد القصدي العملي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وبهذا يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره، وإن كان كلاهما يقر بأن الله رب كل شيء ويتميز عباد الله المخلصون الذين لم يعبدوا إلا إياه، ممن عبد غيره، وأشرك به أو نظر إلى القدر الشامل لكل شيء، فسوى بين المؤمنين والكفار، كما كان يفعل المشركون من العرب. ولهذا قال ﷺ:

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٧) وقد مرّ تخريج الحديثين الذين في المقطع.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧١/١٩).

«إنها براءة من الشرك» (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه، فلا يدعو إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (٢) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (والتوحيد القصدي العملي المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ وما يتصل بذلك، فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها) (٣) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (فأما ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة وهو الذي يتكلم به مشائخ التصوف غالباً) (٤) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (حتى إن وزيرهم<sup>(٥)</sup> هذا الخبيث الملحد المنافق صنف مصنفاً، مضمونه أن النبي ﷺ رضي بدين اليهود والنصارى، وأنه لا ينكر عليهم، ولا يذمون ولا ينهون عن دينهم، ولا يؤمرون بالانتقال إلى الإسلام. واستدل الخبيث الجاهل بقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾، وزعم أن هذه الآية تقتضي أنه يرضى دينهم، قال: وهذه الآية محكمة؛ ليست منسوخة. وجرت بسبب ذلك أمور.

ومن المعلوم أن هذا جهل منه. فإن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ ليس فيه ما يقتضي أن يكون دين الكفار حقاً ولا مرضياً له؛ وإنما يدل على تبرئه من دينهم؛ ولهذا قال ﷺ في هذه السورة: «إنها براءة من الشرك» كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتَ بَرِيءٌ مِمَّا عَمِلُوا وَإِنِّي بِمَا كَفَرُوا بِهٖ لَظَالِمٌ﴾ [يونس].

(١) اقتضاء الصراط (٢/٨٥٢).

(٢) الصفدية (٢/٢٢٨ - ص ٢٢٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/١٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٥٤).

(٥) أي ابن العلقمي.

فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١) كقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] وقد اتبع ذلك بموجبه ومقتضاه حيث قال: ﴿أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْتٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولو قدر أن في هذه السورة ما يقتضي أنهم لم يؤمروا بترك دينهم، فقد علم بالاضطرار من دين الإسلام بالنصوص المتواترة وياجماع الأمة أنه أمر المشركين وأهل الكتاب بالإيمان به، وأنه جاءهم<sup>(١)</sup> على ذلك، وأخبر أنهم كافرون يخلدون في النار) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (والتوحيد في الإرادة والعمل، وهو عبادته وحده لا شريك له وقد أنزل الله سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ (١) و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢) [الإخلاص] الواحدة في توحيد العمل، ولهذا كان القول فيها ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٣) وهي جملة انشائية فعلية، والأخرى في توحيد العلم، وهي قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٤) وبهذا كان القول جملة خبرية اسمية. والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار فالإخبار يكون عن العلم، والإنشاء يكون عن الإرادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ [البقرة] ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْتٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] بمعنى قدر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإن هذا من أعظم الناس كفرةً بالكتب) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ

(١) كذا في الأصل، والصواب: جاهدهم. (٢) مجموع الفتاوى (٥٢٦/٢٨ - ٥٢٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٤٧٩/١ - ٤٨٠). (٤) مجموع الفتاوى (٢٦٨/١١ - ٢٦٩).

دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ ﴿١﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وهي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله، فإن حرف «اللام» في لغة العرب يدل على الاختصاص، فقوله: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ﴾.

يدل على أنكم مختصون بدينكم، لا أشركم فيه، وأنا مختص بديني، لا تشركوني فيه كما قال: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولهذا قال النبي ﷺ في ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ هي «براءة من الشرك»، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة، بل فيها براءته من دينهم وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجوزون بعمله ولا ينفعهم.

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط، ومن زعم أنه رضي بدين الكفار، واحتج بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ ﴿١﴾.

فظن هذا الملحّد أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ﴾ ﴿١﴾ معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال: هذه الآية منسوخة، فيكون قد رضي بدين الكفار، من أبين الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه ما رضي بدين الكفار، لا من المشركين، ولا من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ﴾ ﴿١﴾ لا يدل على رضاه بدينهم، بل ولا على إقرارهم عليه، بل يدل على براءته من دينهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «إن هذه السورة براءة من الشرك».

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد يظن بعض الناس أيضاً أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١) أنني لا أمر بالقتال، ولا أنهى عنه، ولا أتعرض له بنفي ولا إثبات، وإنما فيها أن دينكم لكم، أنتم مختصون به، وأنا بريء منه، وديني لي وأنا مختص به، وأنتم براء منه.

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال، كما قال تعالى عن الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو ما طار عنه من خير وشر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، بل قال تعالى لنبيه: ﴿وَاقْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء]، فإذا كان قد برأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟! هـ (١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون، قد شهد عليهم بالكفر، وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين، ويوجب جهادهم، قال تعالى: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿قَدِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة].

وحرف (من) في هذه المواضع لبيان الجنس، فتبين جنس المتقدم، وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها بخلاف ما إذا كان للتبعيض، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي ﷺ جميع المشركين وأهل الكتاب.

وكذلك دخل في الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذي بلغتهم دعوته، ولم يؤمنوا به، وكذلك قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: ٥٥].

وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم، ولكن لم يبق في الجنس إلا المذكورون، كما يقول: هنا رجل من بني عبد المطلب، وإن لم يكن بقي منهم غيره.

ووصفهم بالشرك وبأنهم يعبدون غير الله، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أرباباً، واتخذوا المسيح رباً، وما أمروا إلا ليعبدون إلهاً واحداً، وهؤلاء باتخاذهم غيره أرباباً عبدوهم فأشركوا بالله ﷻ عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فقد أخبر أيضاً أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فإنه كافر، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْأَبْتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّ

يُفَكِّرُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ [المائدة].

فقد وبَّخ أهل التثليث على أنهم يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، والله هو السميع العليم فدخلوا في قوله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾.

كما دخل في ذلك غيرهم من الكفار، لا سيما وقد دخل في ذلك اليهود، وهم أولى بالدخول من غيرهم، فإن قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناول صفات المعبود، والإله الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل التوراة والإنجيل والقرآن، وأرسل موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه.

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لِمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

فهذا الإله الذي يعبده محمد ﷺ وأمه، ليس هو إله المشركين الذي يعبدونه وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو بريء منه فلا يخلصون له الدين فيعبدوا معه آلهة أخرى إن لم يستكبروا عن عبادته، وإله العبد الذي يعبده بالفعل ليس حاله معه كحال مع الذي يستحق أن يعبده، وهو لا يعبده، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته، فهذا هو الذي قال فيه: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١﴾، والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾) وهي كلمة تقتضي براءته من دينهم، وأن ديني لي وأنتم بريئون منه، ودينكم لكم وأنا بريء منه.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ [يونس].

فقوله: ﴿لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١] هو نظير قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينُ اللَّهِ﴾ وقرنه بمقتضاه وموجه فقال: ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

ولهذا قال النبي ﷺ في هذه السورة هي براءة من الشرك ولهذا كان يقرأها كثيراً مع ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغيرهما، لأن فيهما التوحيد: هذه فيها توحيد العمل والإرادة، وتلك فيها توحيد القول والعلم. وإذا قال في تلك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فأمره أن يقول ما هو خير عن الله بأنه الأحد الصمد، وقال في هذه: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿فَأَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ لَا يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِذْ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ.

ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] أي لا خصومة. والحجة هي ما يحتج به الخصم وإن كان باطلاً. فليس من شرط لفظ «الحجة» أن تكون حقاً، بل إذا كان حقاً سميت بيئة وبرهاناً ودليلاً ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿لَكَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وهم المشركون يحتجون عليكم بحجة باطلة، فيقولون: قد رجع إلى قبلتنا فيوشك أن يرجع إلى ديننا، وبهذا فسر الآية علماء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن قال من المتأخرين إن «إلا» بمعنى الواو وقالوا: إن المراد: لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم، قولهم من الباطل الذي يظهر فساده من وجوه كثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُنُودُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى].

وقال في الحق: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق



أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعاً من النار»<sup>(١)</sup>.

وقد قال طائفة من المفسرين إن هذه السورة منسوخة، أي فيما ظنوها دلت عليه من ترك القتال، فإنهم ظنوا أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾<sup>(٦١)</sup> يتضمن ترك القتال، ومعلوم أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال بل إنما أمره بالقتال بالمدينة، وأول آية نزلت في القتال قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٦٢)</sup> [الحج] فأذن الله لهم أولاً فيه ثم كتب عليهم ثانياً فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكتب عليهم قتال من لم يسالمهم، فأما من سالمهم فلم يؤمروا بقتاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبِئْتٌ أَوْ جَاءَكُمْ وَأَصْرٌ صَدُّوا عَنْهُمُ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ بِالْحَقِّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النساء: ٩١].

ولهذا كان بين النبي ﷺ وبين كثير من المشركين عهود مطلقة ومؤقتة، فالمؤقتة كانت لازمة، والمطلقة لم تكن لازمة بل لكل منهما فسخها، فلما فتح الله مكة وغزا النبي ﷺ تبوك سنة تسع من الهجرة، وهي آخر غزواته أمر فيها بغزو أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون بقوله تعالى: ﴿فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٨].

ولما رجع من غزوة تبوك أنزل الله سورة براءة وذكر أحوال المنافقين بقوله: (ومنهم)، (ومنهم) ولهذا تسمى الكاشفة والمبعثرة والفاضحة<sup>(٢)</sup>، وأمر بنبذ العهود المطلقة وتحريم الحرم على الكفار، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم، وأمره أن ينهى عن طواف العراة بالبيت، وأن ينهى المشركين عن الحج، ولهذا كان ينادي في الموسم: «ولا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان» وأتبعه بعلي بن أبي

(١) البخاري (٣/١٨٠)، ومسلم (٣/١٣٣٧).

(٢) زاد المسير (٣/٣٨٩) وقد مر الإشارة إلى بقية الأسامي.

طالب لأجل نبذ العهود إلى المشركين الذين كانت لهم عهود مطلقة، وكان أبو بكر هو الأمير على الموسم، وعلي معه يصلي خلفه ويأتمر بأمره، لكن أرسله النبي ﷺ لأنه كان من عادة العرب أن العهود لا يعقدها ولا يحلها إلا المطاع أو رجل من أهل بيته، فخاف إن لم يبعث واحداً من أهل بيته أن لا يقبلوا نبذ العهود ولم يرجع أبو بكر إلى المدينة ولا عزله عن شيء كان ولاه وما روى من ذلك فهو من الكذب المعلوم أنه كذب.

وكان تأميره على علي بعد قوله لعلي في غزوة تبوك: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»<sup>(١)</sup> كما قد بسط في موضعه، فقال الله تعالى في براءة: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤] إلى قوله: ﴿فَاتَّبَعُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه لا يجوز أن يعاهد الكفار إلا إلى أجل مسمى، ثم اضطربوا فقال بعضهم: يجوز نقضه ولا يكون لازماً. وقال بعضهم: بل يكون لازماً ينقضي. واضطربوا في نبذ النبي ﷺ العهد، والصحيح أنه يجوز العهد مطلقاً ومؤجلاً، فإن كان مؤجلاً كان لازماً لا يجوز نقضه لقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وإن كان مطلقاً لم يكن لازماً، فإن العقود اللازمة لا تكون مؤبدة كالشركة والوكالة وغير ذلك، وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع وسمى من قال كل قول.

والمقصود أن الله لما أنزل براءة وقال فيها: ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وهي الأربعة التي قال الله فيها: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ليست الحرم التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وقد قال بعضهم هي هذه وغلط في ذلك<sup>(٢)</sup> قال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وهذه تسمى آية السيف، فأمر الله فيها بقتال المشركين وأهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولهذا قال في آية الفتح: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسِ شَيْءٍ نَّفَعِيْلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾

(٢) مرّ الكلام عليه.

(١) مرّ تخريجه.

[الفتح: ١٦]، وهم الروم وفارس: كانوا أشد بأساً من العرب، ولا بد من مقاتلتهم أو إسلامهم، وإذا قوتلوا فإنهم يقاتلون حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، بخلاف ما كان قبل آية الجزية، فإنهم<sup>(١)</sup> كانوا تارة يقاتلون وتارة يعاهدون بلا جزية، كما عاهد النبي ﷺ اليهود والمشركين بلا جزية وكانوا قد دعوا عام الحديبية إلى قتال من يقاتل أو يعاهد، وبعد ذلك يدعون إلى قتال من يقاتلون أو يسلمون، ولم يقل: أو يسلموا فإنه كان يكون المعنى: حتى يسلموا. وقتالهم لا يجب إلى هذه الغاية، بل إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فقد قوتلوا القتال المأمور به.

ثم العلماء مختلفون بعد نزول آية الجزية: هل تؤخذ من أهل الكتاب ومن له شبهة كتاب دون غيره، أو تؤخذ من كل كافر جازت معاهدته، والنبي ﷺ إنما لم يأخذها من العرب، لأن قتالهم كان قبل نزول آية الجزية، أو يستثنى مشركو العرب؟ فيها ثلاثة أقوال للعلماء مشهورة، والجمهور يجوزون أخذها من مشركي الهند والترك وغيرهم من أصناف العجم، كما يجوز الجميع معاهدة هؤلاء عند الحاجة أو المصلحة. وهل يجوز أن يُعاهدوا عهد مطلقاً أو لا يكون إلا مؤقتاً؟ على قولين: فلهذا يوجد كثير من المفسرين يقول في آيات يظن معناها النهي عن القتال: إنها منسوخة بآية السيف، فالذين قالوا: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ﴿١﴾ منسوخة هذا مأخذهم. والصواب أن هذه الآية لم تتعرض للقتال لا بأمر ولا بنهي بل مضمونها البراءة من دين الكفار وهذا أمر محكم لا ينسخ أبداً، وأما أن يقال فيها أو في غيرها رضي الرسول بدين كافر، فهذا لم يقله أحد من علماء المسلمين أصلاً، ولا أحد من سلف الأمة، ولا من الأولين ولا من الآخرين ولا يقول ذلك إلا من هو مفتر على الله ورسوله. لم يرض الله بغير دين الإسلام، وهو الذي بعث الله به محمداً ﷺ، لم يرض الله ولا رسوله، من أحد من الخلق بغير هذا الدين قط، وإن كان لم يأمر بجهادهم في أول الأمر لعجز المسلمين وقتلتهم.

ولهذا لما استأذن الأنصار النبي ﷺ ليلة العقبة لما بايعوه في الجهاد، قال: إني لم أؤمر بذلك بعد، ثم لما كتب القتال كرهه بعضهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ

(١) في الأصل فإنه.

كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْلَا أَخْرَجْنَاكَ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء]، وهذه الآية لبسطها موضع آخر) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير رحمه الله:

(والقول الذي نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٢﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ رحمه الله:

### فصل

#### في سورة ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرُونٍ﴾ ﴿١﴾

للناس في وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ و﴿لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾ ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿٤﴾ و﴿لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٥﴾، منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين، هل كرر الكلام للتوكيد، أو لنفي الحال والاستقبال؟

قال أبو الفرج: في تكرار الكلام قولان: أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء. وقد أفعمنا<sup>(٣)</sup> هذا في سورة الرحمن<sup>(٤)</sup>، قال ابن قتيبة: التكرير في سورة الرحمن للتوكيد. قال: وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز، لأن افتتان المعلم<sup>(٥)</sup> والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاده<sup>(٦)</sup> في المقام على فن واحد، يقول القائل: والله

(١) الصفدية (٢/ ٣١٥ - ٣٢٣).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٧).

(٣) في زاد المسير «أنعمنا شرح» بمعنى زدنا. ولعله الأنسب.

(٤) زاد المسير (٩/ ٢٥٢).

(٥) في المطبوع (المتعلم).

(٦) في المطبوع (اقتضاه)، ولعل الصواب: اقتصاره.

لا أفعله، ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله، كما يقول: والله أفعله؟ بإضمار ﴿لَا﴾ إذا أراد الاختصار ويقول للمرسل، المستعجل: اعجل اعجل! والرامي: ارم، ارم، قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم، وكم وكم؟

وقال الآخر:

هل سألت جموع كندة يوم ولوا أين أيننا<sup>(١)</sup>؟

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا من إعادتها ثانية، لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفاً<sup>(٢)</sup>.

قال ابن قتيبة<sup>(٣)</sup>: فلما عدد الله في هذه السورة إنعامه<sup>(٤)</sup>، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته، جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهمهم<sup>(٥)</sup> النعم وتقريرهم<sup>(٦)</sup> بها، كقولك للرجل، ألم أنزلك<sup>(٧)</sup> منزلاً وكنت طريداً؟ أفتنكر هذا؟ ألم أحج بك وكنت صروراً؟<sup>(٨)</sup> أفتنكر هذا؟<sup>(٩)</sup>.

«قلت»: قال ابن قتيبة: تكرر الكلام في ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إن سرك أن ندخل في دينك عاماً، فادخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة.

قلت: هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب، فإن جميع الأمم يؤكدون إما في الطلب، وإما في الخبر، بتكرار الكلام، ومنه قول النبي ﷺ: «والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم قال: إن شاء الله. ثم لم يغزهم»<sup>(١٠)</sup>.

(١) البيت لعبيد بن الأبرص (١٤٢). (٢) زاد المسير (١١١/٨).

(٣) هذا تكلمة الكلام السابق ولكنه حذف منه شيء فكأنه قال ثم قال.

(٤) في المطبوع نعماء. (٥) في المطبوع ليفهمهم.

(٦) في المطبوع وتقريرهم. (٧) في المطبوع أبو تك.

(٨) في المطبوع ضرورة وهو الرجل الذي لم يحج قط.

(٩) زاد المسير (١١٢/٨).

(١٠) أبو داود (٣٢٨٦) أبو يعلى (٢٦٧٥)، الطبراني (١١٧٤٢) البيهقي (٤٧/١٠) الطحاوي (٢/

٣٧٩) والحديث ضعيف.

وروي عنه أنه في غزوة تبوك كان يقود به حذيفة، ويسوق به عمار، فخرج بضعة عشر رجلاً حتى صعدوا العقبة ركباً متلثمين وكانوا قد أرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فقال لحذيفة: قد، قد، ولعمار: سق، سق.

فهذا أكثر، لكن ليس في القرآن من هذا شيء، فإن القرآن له شأن اختص به، لا يشبهه كلام البشر لا كلام نبي، ولا غيره، وإن كان نزل بلغة العرب، فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة، ولا ببعض سورة مثله.

فليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط، وإنما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية، لم يذكر متوالياً، وهذا النمط أرفع من الأول.

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكراراً<sup>(١)</sup> كما ظنه بعضهم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو مع الفصل بينهما بجملة.

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيدى وهو ينكرها ويكفرها: ألم تك فقيراً فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تك عرياناً فكسوتك؟ أفتنكر هذا، ألم تك خاملاً فعرفتك؟ ونحو ذلك، وهذا أقرب من التكرار المتوالي، كما في اليمين المكررة.

وكذلك ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ، كقوله:

فألفى قولها كذباً وميناً.

فليس في القرآن من هذا شيء، ولا يذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى وقوة اللفظ لقوة المعنى، والضم أقوى من الكسر، والكسر أقوى من الفتح، ولهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل «الكره» و«الكره» فالكره هو الشيء

المكروه كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] والكره المصدر، كقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] والشيء الذي في نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره.

وكذلك «الذبح» و«الذبح» فالذبح: المذبوح، كقوله: ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات]، والذبح: الفعل، والذبح: مذبوح، وهو جسد يذبح، فهو أكمل من نفس الفعل.

قال أبو الفرج<sup>(١)</sup>: والقول الثاني أن المعنى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في حالي هذه، ﴿وَلَا أَنْتُمْ﴾ في حالكم هذه ﴿عَبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ في ما أستقبل، وكذلك ﴿أَنْتُمْ﴾ فنفى عنهم<sup>(٢)</sup> في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون، كما ذكرناه عن مقاتل، فلا يكون حينئذ تكرار، قال: وهذا قول ثعلب، والزجاج<sup>(٣)</sup>.

قلت: قد ذكر القولين جماعة، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني، فقالوا واللفظ للبعوي: معنى الآية: لا أعبد ما تعبدون في الحال، ولا أنا عابد ما عبدتم في الاستقبال، ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

قال: وقال أكثر أهل المعاني: نزل بلسان العرب على مجازي<sup>(٤)</sup> خطابهم ومن مذاهبهم التكرار إرادة للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز<sup>(٥)</sup>.

قلت: ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني منهم المهدي وابن عطية قال ابن عطية: لما كان قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي أبدأ ما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبدأ،

(١) عودة لقول أبي الفرج في زاد المسير (٢٥٤/٩).

(٢) في المطبوع (عنه وعنهم) ذلك في الحال. (٣) انتهى كلام ابن الجوزي.

(٤) في المطبوع مجازي. (٥) البغوي (٥٠٥/٤).

كالذين كشف الغيب عنهم، كما قيل لنوح: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] إما أن هذا فخطاب لمعنيين، وقوم نوح قد عموا بذلك.

قال: فهذا معنى التريديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة، وليس هو بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته، مع الإبلاغ والتوكيد، وزيادة الأمر بياناً وتبرياً منهم<sup>(١)</sup>.

قلت: هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير، لكن فيه نقص من جهة أخرى وهو جعلهم هذا خطاباً لمعنيين، فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه.

وهذا غلط، فإن قوله: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ أَلكُفْرُونَ﴾ خطاب لكل كافر، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعنيين، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك، فلو كانت خطاباً لأولئك المعنيين، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه. وأيضاً فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذا ذاك علم أنهم يموتون على الكفر.

والقول بأنه إنما خاطب بها معنيين قول لم يقله من يعتمد عليه، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان<sup>(٢)</sup>: إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد، ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث، كقول الكلبي.

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً، كمحمد بن جرير، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، فضلاً عن مثل أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً، كما رواه عبد بن حميد عن وهب بن منبه قال: قالت قريش للنبي ﷺ: «إن سرك أن ندخل في دينك عاماً، وتدخل في ديننا عاماً فنزلت: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ أَلكُفْرُونَ﴾ حتى ختمها»<sup>(٣)</sup> وعن ابن عباس<sup>(٤)</sup>، قالت قريش: «يا محمد! لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت

(١) المحرر الوجيز (١٦/٣٧٥).

(٢) ذكره عن مقاتل في زاد المسير (٩/٢٥٣).

(٣) عزاه صاحب الدر لعبد الرزاق وابن المنذر (٦/٤٠٤) وهو في عبد الرزاق (٢/٤٠٣)، والطبري (١٥/٣٣١).

(٤) عزاه صاحب الدر لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه (٦/٤٠٤).



السورة». وعن قتادة قال: أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه: قال كفار قريش، فذكره وقال عكرمة: برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار، وقال قتادة: أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم.

وروى قتادة عن زرارة بن أوفى: كانت تسمى «المقشقة»<sup>(١)</sup> يقال قشقت فلان، إذا برئ من مرضه، فهي تبرئ صاحبها من الشرك. وبهذا بعثها النبي ﷺ في الحديث المعروف في المسند والترمذي من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي ﷺ قال له: «مجئ ما جاء بك؟ قال: جئت يا رسول الله لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي». قال: «إذا أخذت مضجعتك فاقرأ: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»<sup>(٢)</sup>.

رواه غير واحد عن أبي إسحاق، وكان تارة يسنده، وتارة يرسله، رواه عنه زهير، وإسرائيل مسنداً، ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال عن أبي إسحاق، عن رجل، عن فروة بن نوفل، ولم يقل «عن أبيه» قال الترمذي: وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة قال: وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، فرواه عبد الرحمن بن نوفل، عن أبيه عن النبي ﷺ وعبد الرحمن بن نوفل هو أخو فروة بن نوفل.

قلت: وقد رواه عن أبي إسحاق إسماعيل بن أبي خالد قال: جاء رجل من أشجع إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله علمني كلاماً أقوله عند منامي قال: «إنك لنا ظئر، اقرأ: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك»<sup>(٣)</sup>.

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمين أن يقرأها وأخبره أنها براءة من الشرك، فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد، ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك اعتقادي وعملي.

(١) ابن أبي حاتم كما في الدر (٤٠٤/٦).

(٢) الترمذي (٣٤٠٣) وأحمد (٤٥٦/٥) وفي العلل (٢٢٤/٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة

(٨٠١) أبو داود (٥٠٥٥) والحاكم (٥٣٨/٢) وهو صحيح.

(٣) أحمد (٤٥٦/٥) والحديث صحيح.

وقوله: ﴿لَكَرُّ دِينِكُمْ وَإِي دِينِ ۖ﴾ ﴿١٦١﴾ خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد فدينه قبل الإسلام له كان والمؤمنون بريئون منه، وإن غفره الله له بالتوبة منه، كما قال لنييه: ﴿فَإِنَّ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾ [الشعراء] فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها، وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [يونس].

وروى ابن أبي حاتم، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الحرشي<sup>(١)</sup>، ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى، ثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس أن قريشاً دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل فيهم، ويزوجوه ما شاء من النساء، ويطأوا عقبه أي يسودوه فقالوا: هذا لك عندنا، يا محمد! وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، وهي لك ولنا فيها صلاح. قال: «ما هي؟» قالوا نعبد آلهتنا سنة اللات والعزى ونعبد إلهك سنة قال: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ<sup>(٢)</sup>:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ إلى آخرها، وأنزل الله عليه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾ وَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٦﴾ [الزمر].

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد، وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله.

وقوله في هذا الحديث: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين والتي هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك، فيؤخر الجواب حتى يستأمره، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوا لا سبيل إليه.

وقد تخطب إلى الرجل ابنته فيقول: حتى أشاور أمها، وهو يريد أن لا يزوجه بذلك، ويعلم أن أمها لا تشير به، وكذلك قد يقول النائب: حتى أشاور السلطان.

فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك. وقد كان

(١) في المجموع الجرحي والصحيح «الحرشي» كما في تهذيب التهذيب (٩/٤٢٥).

(٢) الطبري (١٥/٣٣١).

جماعة من قريش من الذين يأمرونه وأصحابه أن يعبدوا غير الله، ويقاثلونهم ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة.

ومن النقلة من يعين ناساً غير الذين عينهم غيره، منهم من يذكر أبا جهل وطائفة، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة، ومنهم من يذكر الوليد بن مغيرة وطائفة، ومنهم من يقول: طلبوا أن يعبدوا الله معه عاماً ويعبد آلهتهم معهم عاماً، ومنهم من يقول: طلبوا أن يستلم آلهتهم.

ومنهم من يقول: طلبوا الاشتراك، كما روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن إسحاق قال: حدثني سعيد بن ميناء مولى أبي البخري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، رسول الله ﷺ، فقالوا: هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه. فأنزل الله السورة<sup>(١)</sup>.

وهذا منقول عن عبيد بن عمير، وفيه أن القائل له عتبة، وأمّية. فهذه الروايات متطابقة على معنى واحد، وهو أنهم طلبوا منه أن يدخل في شيء من دينهم، ويدخلوا في شيء من دينه، ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا، وقوم هذا وقوم هذا.

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم من مضى، ومن يأتي إلى يوم القيامة.

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه، وهذه ملة إبراهيم الخليل، وهو مبعوث بملته. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا إِلَهِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٧٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٧٨﴾ [الزخرف].

وقال الخليل أيضاً: ﴿يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [الأنعام] وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ

وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدِيثِهِ ﴿٤﴾ [الممتحنة: ٤] وقال لنييه: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس].

فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب.

وقد ذكر المهدوي هذا القول، وذكر معه قولين آخرين، فقال: الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة، لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافراً، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم.

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى، ولا في اللفظ، سوى موضع واحد منها، فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى، بل معنى ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ في الحال ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢﴾﴾ في الحال ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿١﴾﴾ في الاستقبال ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في الاستقبال.

قال: فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾، وما بعده ﴿وَلَا أَنَا﴾، وتكرر ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في اللفظ دون المعنى.

قال: وقيل إن معنى الأول: ولا أنتم عابدون ما عبدت. ومعنى الثاني: ولا أنتم عابدون ما أعبد، فعدل عن لفظ عبدت للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر، وأكثر ما يأتي ذلك في إخبار الله تعالى، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ والفعل مصدرأ، وقيل إن معنى الآيات وتقديرها ﴿قُلْ يَتَأَيَّبًا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ لا أعبد الأصنام الذي تعبدون، ولا أنتم عابدون الذي أعبد، لإشراككم به، واتخاذكم معه الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين به، فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم فهو في الثاني مصدر، وكذلك: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ هو في الثاني مصدر أيضاً، معناه: ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد. قلت: القول الثالث هو في معنى الثاني، لكن جعل قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ معنيين: أحدهما بمعنى ما عبدت والآخر بمعنى ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ ليطابق قوله لهم ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿١﴾﴾.

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال، لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي، قال هؤلاء: وإنما لم يقل في حقه: «ما عبدت» للإشعار بأن ما أعبدته في الماضي هو الذي أعبدته في المستقبل.

قلت: أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم. لكن إذا أريد بقوله: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ [ما أريد] بقوله: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ - في أحد الموضوعين الماضي - كان التقدير على ما ذكروه: لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي، فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبده في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل. وكذلك إذا قيل: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، أي في الماضي، فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبده في الماضي، وهذا أنقص لمعنى الآية، وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبده في الماضي فقط؟ وكذلك هم؟

وإن قيل: في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر، فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبده، قيل: فعلى هذا لا يقال لهؤلاء: ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي، بل قد يعبدون في المستقبل - إذا انتقلوا - ربه الذي عبده فيما مضى. وإن قيل: قول هؤلاء هو القول الثاني لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال، ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل قيل ولفظ الآية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، ليس لفظها «ولا أنا عابد ما تعبدون» فقوله: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى، وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. فإن الماضي هنا بمعنى المضارع، فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً لم ينقل إلى الماضي فيكون عكس المقصود.

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل ﴿مَا﴾ مصدرية، في الجملة الثانية دون الأخرى وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما، وإذا جعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ما المصدرية حاصل بقوله: ﴿مَا﴾، فإنه لم يقل: «ولا أنتم عابدون من أعبد»، بل قال: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ ولفظ ﴿مَا﴾ يدل على الصفة بخلاف «من» فإنه يدل على العين، كقوله: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴿النساء: ٣﴾ أي الطيب ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَيْهَا﴾ ﴿الشمس﴾ أي وبانيها، ونظيره قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولم يقل: «من تعبدون من بعدي».

وهذا نظير قوله ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿سواء﴾، فالمعنى: لا أعبد معبودكم، ولا أنتم عابدون معبودي.

فقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يتناول شركهم، فإنه ليس بعبادة الله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وإن دعوه وصلوا له.

وأيضاً فما عبدوا ما يعبدوه وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص، بل هذا يتناول عبادته وحده، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه.

وأيضاً فالشرائع قد تتنوع في العبادات، فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة وهؤلاء لا يتبرأ منهم، فكل من عبد الله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت، ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه، فلو قال: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته، وإنما البراءة من المعبود وعبادته.

## فصل

إذا تبين هذا فنقول: القرآن تنزيل من حكيم حميد، وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت.

ولو أن رجلاً من بني آدم له علم، أو حكمة، أو خطبة، أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين، وأحكم الحاكمين، لا سيما وقد قال فيه: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء].

فنقول: الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي، فيعم

الحاضر والمستقبل، كما قال سيبويه: وبنوه لما مضى من الزمان، ولما هو دائم لم ينقطع، ولما لم يأت بمعنى الماضي، والمضارع، وفعل الأمر، فجعل المضارع لما هو من الزمان دائماً لم ينقطع، وقد يتناول الحاضر والمستقبل.

فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل، كلاهما مضارع.

وقال في الجملة الثانية عن نفسه: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، فلم يقل «لا أعبد» بل قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ ولم يقل «ما تعبدون» بل قال: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى.

والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى، فإنه قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبده في الزمن الماضي، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى.

فقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ براءة من كل ما عبده في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولاً مما عبده في الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماضٍ، وحاضر، ومستقبل، وقوله أولاً: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا يتناول هذا كله.

وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافاً، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً، لكنه جملة اسمية، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا وما أنا بفاعل. وقولك: «ما هو بفاعل هذا أبداً» أبلغ من قولك «ما يفعله أبداً» فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك (ما يفعل هذا)، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له! بخلاف قوله: «ما هو فاعلاً، وما هو بفاعل» كما في قوله: ﴿فَمَا اللَّيْلِ فَضِلُّوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل: ٧١] وقوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمِيِّ﴾

[النمل: ٨١] ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] ﴿وَمَا هُمْ بِضَاعِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولا يقال: الجملة الاسمية ترك الثبوت، ونفي ذلك لا يقتضي نفي العارض، فإن هذه الجملة في معنى الفعلية نفي لكونها عملت عمل الفعل، لكنه دلت على اتصاف الذات بهذا، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيهاً للذات ونفياً لقبولها لذلك، فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل.

فقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي نفسي لا تقبل، ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأني معبود عبدتموه في وقت، فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات.

ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط.

والتقدير: ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً.

ولكن لم ينف إلا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل لأن المقصود براءته هو في الحال والاستقبال، وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها.

فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان، وينفي جواز عبادته لمعبودهم، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ، فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً، فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال، كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال: أنا أفعل هذا؟؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً وهذا كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلْتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ﴾ [البقرة: ١٤٥].



فهو يتضمن نفي الفعل بغضاً فيه وكراهة له، بخلاف قوله: «لا أفعل» فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر، فإذا قال: «ما أنا عابد ما عبدتم» دل على البغض والكراهية لمعبودهم ولعبادتهم إياه وهذه هي البراءة.

ولهذا تستعمل في ضد الولاية فيقال: تول فلاناً، وتبرأ من فلان، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [المتحنة: ٤].

وأما قوله عن الكفار: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فهو خطاب بجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك، فإنهم حينئذ مؤمنون، لا كافرون، وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب.

وهذا كما يقال: قل يا أيها المحاربون، والمخاصمون، والمقاتلون، والمعادون، فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة. وما دام الكافر كافراً فإنه لا يعبد الله، وإنما يعبد الشيطان، سواء كان متظاهراً، أو غير متظاهر به كاليهود.

فإن اليهود لا يعبدون الله، وإنما يعبدون الشيطان، لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع وأمر، وهم وإن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهي عنها هو يكرها ويغضها، وينهى عنها، فليست عبادة.

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع، فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمد ﷺ لا في الحاضر ولا في المستقبل.

ولم يقل عنهم «ولا تعبدون ما أعبد» بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، لا يمكن أن تعبد ما دامت كافرة، إذ لا تكون عابده إلا بأن تعبد وحده بما أمر به على لسان محمد. ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط.

وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله، لم تقتصر على نفي الفعل.

ولم يحتج أن يقول فيهم: «ولا أنتم عابدون ما عبدت» كما قال في نفسه: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ لوجهين:

أحدهما: أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة، ومنهم من كان معبوده غير الله، فلو قال: «ولا أنتم عابدون ما عبدت» لقالوا: بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركاً، بخلاف ما إذا قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبده في هذا الوقت»، ولم يقل «ما أنا عابد له» إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقاً، وقد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله في المستقبل، فلا يكون من لم يعبد ما يعبده في المستقبل مذموماً، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره، فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله، فهو يقول للكفار: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) الآن وذكر النفي عن الكفار في جملتين لتقارب كل جملة جملة، فلما قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٤) فنفى الفعل، قال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥).

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبده ولو في بعض الزمان قال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٦) بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده، فليس لبرائتي، وكمال برائتي وبعدي من معبودكم وكمال قربي إلى الله في عبادتي له وحده لا شريك له، يكون لكم نصيب من هذه العبادة، بل أنتم أيضاً في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد لا في الحال الأولى، ولا في الثانية.

ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم في هذه الحال الثانية، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة.

وهم لم يختلف حالهم في الحالين، بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد، فلم يكن في تغيير العبارة فائدة وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين.

والإنسان يقوى يقينه وإخلاصه، وتوحيده، وبراءته من الشرك وأهله، وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم، فرفع درجته في ذلك، وهو في ذلك يقول للكفار «لا تعبدون ما أعبد» في هذه الحال سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد.

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم، ويخبرهم أنهم برآء منه، وتبريه منهم إنشاء ينشئه، كما ينشئ المتكلم بالشهادتين، وهذا يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال، لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم فخطاب المؤمن عن حالهم خبير عن حالهم، والخبر مطابق للمخبر عنه، فلم يتغير لفظ خبره عنهم، إذا<sup>(١)</sup> كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد، فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات زادوا أو نقصوا.

ولا يجوز للمؤمن أن ينشئ زيادة في كفرهم، فإن ذلك محرم، بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان، وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون به، فلم يكن في الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص، فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد، وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشئ قوة الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته، وبرأته منه ومن عابديه، وقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١] وإن كان لفظها خبراً ففيها معنى الإنشاء كسائر ألفاظ الإنشاءات، كقوله (أشهد أن لا إله إلا الله)، وقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [٢] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي [الزخرف] وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك وهي المقشقة التي تقشش من الشرك، كما يقشش المريض من المرض، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب، فأمر المؤمن بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك، وقلبه شفاء من المرض، وإن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالإخبار عنهم إلا كفرة، فالجملة الخبرية تطابق المخبر عنه، والإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن. فقيل: ﴿قُلْ يَتَأَيُّبُ الْكَافِرُونَ﴾ [٣] لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [٤] أي أنا ممتنع من هذا، تارك له، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ [٥] أي أنا بريء من هذا، متزهد عنه، مزكٍ لنفسه منه، فإن الشرك أعظم ما تنجس به النفس، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه، فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات.

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد، بل أنتم بريئون مما أعبد، وأنا بريء مما تعبدون، مأمور بالبراءة منه، وطالب زيادة البراءة منه، ومجتهد في ذلك.

(١) كذا في الأصل، ولعلها: إذ.

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد، إما لكونكم تأمرون بذلك وإما لكونكم تعبدونه، فلا أخبر به، فإنه كذب، وإما لكونكم تجتهدون في البراءة وتبالغون فيها فهذا يختلف فيه أحوالكم.

وأنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيل<sup>(١)</sup> براءتكم، ولا أكذب عليكم فإنكم<sup>(٢)</sup> تنقصون منها إذا تبرأت، بل التبري منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة، لا سيما في حق الرسول الذي خوطب أولاً بقوله: ﴿قُلْ﴾.

فلينظر العاقل في سبب براءتي من الشرك وما أتم عليه، واختياري به عداوتكم، والصبر على أذاكم، واحتمالي هذه المكاره العظيمة، بعد ما كنتم تعظمونني غاية التعظيم، وتصفونني بالأمانة، وتسمونني «الأمين» وتفضلونني على غيري، ونسبي فيكم أفضل نسب وتعرفون ما جعل الله فيّ من العقل والمعرفة ومكارم الأخلاق وحسن المقاصد وطلب العدل والإحسان وأني لا أختار لأحد منكم سوءاً، ولا أريد أن أصيب أحداً بشراً، فاختياري للبراءة مما تعبدون، وإظهارني لسبهم وشتمهم، أهو سدى ليس له موجب أو وجه؟ فانظروا في ذلك. ففي السورة دعاء وبعث للكفار إلى طلب الحق ومعرفته، مع ما فيها من كمال البراءة منهم.

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها.

وقوله: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُونا﴾ يتناول كل كافر، فهو لا يعبد ما يعبده أحد من الكفار ولا مشركي العرب، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب لا اليهود ولا النصارى، ولا غيرهم من أصناف الكفار، وذلك أنه قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. فذكر لفظ (ما) ولم يقل: (من تعبدون) و(ما) تدل على الصفة كما تقدم، وما ذكره المهدي وغيره من أنه قال: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ ولم يقل «من أعبد» يقابل به «ولا أنا عابد [ما عبدتم] الذي يراد به الأصنام، فضعيف جداً يغير اللغة ويخص عموم القرآن - وهو عموم مقصود - ويزيل المعنى الذي به تعلق هذه البراءة.

فإن (ما) في اللغة إما لما لا يعلم، أو لصفات ما يعلم، كما في قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ مَا

(١) كتب عبد الصمد (يزيد)، قلت: ولعلها الصواب.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: بأنكم.

طَابَ ﴿النساء: ٣﴾ ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿٢١﴾ [الليل]، وفي التسيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد: «سبحان ما سبحت له»<sup>(١)</sup> ومثله كثير فقوله: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٢٢﴾ جار على أصل اللغة، وأيضاً فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ خطاب للكفار مطلقاً، فهو لا يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله وإن كان ما عبد أهل العلم والعقل فعبّر عن ذواتهم بـ«من» فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم، وإنما هي براءة من كل شرك.

وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز عليه، ولا تصح المقابلة في مثل ذلك، بل المقصود ذكر الصفات والإخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده. وإذا قال اليهود: نحن نقصد عبادة الله. كانوا كاذبين، سواء عرفوا أنهم كاذبون أم لم يعرفوا، كما يقول النصراني: إنا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين، وهم كاذبون، لأنهم لو أرادوا عبادته لعبوده بما أمر به، وهو الشرع لا بالمنسوخ المبدل.

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم يُنزل الإنجيل ولا القرآن، ولا أرسل المسيح ولا محمداً، بل هو عند بعضهم فقير وعند بعضهم بخيل، وعند بعضهم عاجز، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه، وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله، بل هم كاذبون سحرة، قد أيدهم ونصرهم، ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس، فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه. فهم يعبدون هذا الرب. والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود، فهو منزّه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه مبعوداً لهم منزّه عن هذه الإضافة، فليس هو معبوداً لليهود، وإنما في جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان، فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات، وإنما هو الشيطان.

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود وإن كانوا يعبدون من يعبدونه، وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا.

(١) هذا الأثر رواه الطبري (٢١٨/٣٠) عن أبي عمرو يقول: وأهل مكة يقولون للرعد فذكره.

وعلى هذا فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿١﴾ خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية. وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود، كما في قول ابن زيد: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿١﴾ قال للمشركين والنصارى، واليهود لا يعبدون إلا الله، ولا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاؤوا به من عند الله، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً. قال: إلا العصابة التي تقول حيث خرج بختنصر، وقيل: من سموا عزيزاً (ابن الله) ولم يعبدوه<sup>(١)</sup>، ولم يفعلوا كما فعلت النصارى قالت: المسيح ابن الله، وعبدته.

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله، بل يستكبرون عن عبادته، ويعبدون الشيطان، لا يعبدون الله. ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً، فكل من عبد الله كان سعيداً من أهل الجنة، وكان من عباد الله الصالحين. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِيَّءَ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾ [يس].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفي رواية: (فادعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم...)<sup>(٢)</sup>.

فلا يُعْبَدُ إلا الله بعد أن أُرْسِلَ محمداً وَعُرِفَتْ رسالته وَبُلِّغَتْ. ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة، ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم، فإن الله لا يظلم أحداً.

وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به، فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله، إنما يعبد الشيطان، ويعبد الطاغوت، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان، والوثن، والكهان، والدرهم والدينار، وغير

(١) في تفسير ابن حرير هكذا (إلا العصابة التي بقوا حتى خرج بختنصر وقالوا عزيز ابن الله دعى الله ولم يعبدوه) (عبد الصمد).

(٢) مرّ تخريجه.

ذَٰلِكَ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وقال: ﴿بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَهُمْ ظُهُورَهُمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنٌ﴾ [البقرة].

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى، وكفرهم أغلظ، وهم مغضوب عليهم، ولهذا قيل: إنهم تحت النصارى في النار، واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى، ولهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة.

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به، وأما اليهود فلا يعبدون الله، بل هم معطلون لعبادته، مستكبرون عنها كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، بل هم متبعون أهواءهم عابدون للشيطان.

فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود، وهم وإن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه وليس في قلوبهم عبادة له وحده، فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره به. والسورة لم يقل فيها: (يا أيها المشركون) حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك بل قال: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْكُفْرُونَ﴾ فتناولت كل كافر سواء كان ممن يظهر الشرك، أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته، والتعطيل شر من الشرك، وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً.

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة، واليهود من أقل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده، لكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم، فهم مغضوب عليهم، وأولئك ضالون، وكلاهما قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين.

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم، ففيهم شبه، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، بل قد قال أبو هريرة: ما أقرب الليلة من البارحة، أنتم أشبه الناس ببني إسرائيل، بل في الحديث الصحيح: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: اليهود

والنصارى؟ قال: فمن؟ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا أولئك؟»<sup>(١)</sup>.

وقال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»<sup>(٢)</sup>.

وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ومما يوضح ما تقدم أن قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ معناه المعبود، ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث، فهو يتناول كل معبود لهم.

والمعبود هو الإله فكأنه قال: لا أعبد إلهكم ولا تعبدون إلهي، كما ذكر الله في قصة يعقوب قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِسَيِّدِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة]، واسم الإله والمعبود يتضمن إضافة إلى العابد، وقال: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، هو الذي يعبده هؤلاء صلوات الله وسلامه عليهم وبألهونه.

وإنما يعبده من كان على ملتهم، كما قال يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٤٠].

فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله، وهي ملة إبراهيم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وإذا كان كذلك فاليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم، وإذا لم يكونوا على



ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم فإن من عبد إله إبراهيم كان على ملته. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٧].

فقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يبين أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم.

وهذا بعد مبعث محمد لا ريب فيه، فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم، والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨] وقال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

### فصل

وهذا النزاع في قوله: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله بعضهم، يتعلق بمسمى «الكافر» ومسمى «المؤمن».

فظائفة تقول: هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان، فاسم المؤمن عندهم إنما هو لمن مات مؤمناً، فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بإيمان.

وهذا اختيار الأشعري وطاقفة من أصحاب أحمد، وغيرهم، وهكذا يقال: الكافر [من] مات كافراً.

وهؤلاء يقولون: إن حب الله وبغضه، ورضاه، وسخطه، وولايته وعداوته، إنما يتعلق بالموافاة فقط فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً. ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاتة قديمة ويقولون: إن عمر حال كفره كان ولياً لله.

وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه، كالأشعري وغيره. وأكثر الطوائف يخالفونه في ذلك فيقولون: بل قد يكون الرجل عدواً لله ثم يصير ولياً لله، ويكون الله يبغضه ثم يحبه، وهذا مذهب الفقهاء والعامّة، وهو قول المعتزلة، والكرامية والحنفية قاطبة، وقدماء المالكية، والشافعية، والحنبلية.



تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ ﴿١٦﴾ الآية [الأعراف] فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر، وهو لأولي العلم.

وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث، كما تقول: الأموال جمعتها والحجارة قدفتها. ف(ما) هي لما لا يعلم، ولصفات من يعلم، ولهذا تكون للجنس العام، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته، كما قال: ﴿فَأَنْكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] أي الذي طاب والطيب من النساء، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين، عبر بـ﴿مَا﴾.

ولو عبر بـ«من» كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة، كما إذا قلت: جاءني من يعرف، ومن كان أمس في المسجد، ومن فعل كذا، ونحو ذلك، فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كان تلك الصفة قد ذهبت. ومنه قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿١٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴿١٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١٧﴾ [الشمس] على القول الصحيح إنها اسم موصول، والمعنى: وبانيها، وطاحيها، ومسويها [و] لما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٧﴾ [الشمس] أخبر بـ«من» لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا.

فالقسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا بانيها ولا مطحية إلا بطاحيها، ولا مسواة إلا بمسويها، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليس مستلزماً لذلك العمل. ونحو هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ [الليل].

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] كما يستفهم - على وجه - بها في قوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصفات: ٨٥] وأما قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة.

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى، فاستفهم بصيغة ﴿وَمَا﴾ لأنه لم يكن مقراً به طالباً لتعيينه، ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] و[الإسراء: ١٠٢]، ويقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء] و[الصفات: ١٢٦] فأجاب أيضاً بالصفة، وهناك قال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى من غيره، وكذلك قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤] إلى تمام الآيات.

فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ يقتضي تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم، لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن إذ لو كان هو معبوده لكان مؤمناً، لا كافراً، وذلك يتضمن أموراً:

أحدها: أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله.

الثاني: أنهم إذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع، وهو لا يعبد المجموع - لا يعبد إلا الله وحده، فيعبده على وجه إخلاص الدين له، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين قول الخليل: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] بأن يقال: هنا نفى عبادة المجموع، وذلك لا ينفي عبادة الواحد الذي هو الله، والخليل تبرأ من المجموع، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد، فاستثنى، أو يقال: الخليل تبرأ من كل المعبودين - من الجميع - فوجب أن يستثنى رب العالمين ولهذا لما وقع مستثنى في أول الكلام في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] لم يحتج إلى استثناء آخر.

وأما هذه السورة فإن فيها التبري من عبادة ما يعبدون، لا من نفس ما يعبدون، وهو بريء منهم، ومن عبادتهم ومما يعبدون فإن ذلك كله باطل، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري

فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك»<sup>(١)</sup>.

فعبادة المشرك كلها باطلة، لا يقال: نصيب الله منها حق، والباقي باطل، بخلاف معبودهم، فإن الله إله حق، وما سواه آلهة باطلة، فلما تبرأ الخليل من المعبودين احتاج إلى استثناء رب العالمين، ولما كان في هذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون، فكان المنفي هو العبادة، تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون.

الثالث: إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم، لا عن عينه، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم؛ لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه، ولو قال «من تعبدون» لكان يقال: إلا رب العالمين؛ لأن النفي واقع على عين المعبود، وليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج إلى الاستثناء، بل هو تارك لعبادة ما يعبدون.

وهذا يتبين بالوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٢﴾ نفي عنهم ما أعبد عبادة معبوده فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده وكذلك هو إذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم.

الوجه الخامس: أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله، كالذين عبدوا العجل، والذين عبدوا المسيح، والذين يعبدون الدجال، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم، ومن عبد من هذه الأمة [غير الله]<sup>(٢)</sup>، فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله، لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله. فإذا قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين، وإن كان مقصود العابدين هو الله.

الوجه السادس: أنهم إذا وصفوا الله بما هو بريء منه، كالصاحبة، والولد، والشريك، وأنه فقير أو بخيل، أو غير ذلك، وعبدوه كذلك فهو بريء من المعبود الذي لهؤلاء، فإن هذا ليس هو الله كما قال النبي ﷺ: «ألا ترون كيف يصرف الله عني سب

(١) مرّ تخريجه.

(٢) هذه الزيادة من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٥٧/٩) فقد نقل النص بشيء من التلخيص.

قريش؟ يسبون مذمماً وأنا محمد» فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم واقعاً على من هو مذمم، وهو محمد ﷺ. وذاك ليس هو الله. فالمؤمنون براء مما يعبد هؤلاء.

الوجه السابع: أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ربه فهو في الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة.

وقس على هذا فلتأمل هذه المعاني، وتخلص وتهذب، والله تعالى أعلم<sup>(١)</sup>.

## سورة النصر

وقال رحمه الله عن وقت نزول السورة: (وأنزل عليه في آخر عمره سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر] وكان يتأول ذلك في ركوعه وسجوده. أي يمثل ما أمره ربه) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قيل: إن آخر سورة نزلت قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر] فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها رضي الله عنها كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي - يتأول القرآن»<sup>(٢)</sup> وفي الصحيحين عنه رضي الله عنه أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسرت وما أعلنت، لا إله إلا أنت»<sup>(٣)</sup> ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

## وفي تفسير السورة قال:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر] ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر].

(وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي - يتأول القرآن» فكان هذا الكلام تأويل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ قال ابن عيينة: السنة تأويل الأمر والنهي. وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن اشتغال

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٢٥٩).  
 (٢) البخاري (٦/٢٢٠) مسلم (٤٨٤).  
 (٣) البخاري (٦٣٩٩).  
 (٤) مجموع الفتاوى (١١/٢٥٤ - ٢٥٥).

الصماء قال: والفقهاء أعلم بالتأويل. يقول: هم أعلم بتأويل ما أمر الله به؛ وما نهى عنه، فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها، وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (حتى خاتم الرسل أمره الله في أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

ولهذا كان الذي سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب، وأن الله يستدركهم بالتوبة التي يحبها الله - ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] - وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ والذين رآهم النبي ﷺ يدخلون في دين الله أفواجا هم الذين كانوا على عصره) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام) ا.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة، وقد سأل أصحابه عن قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾، فذكروا ظاهر لفظها. ولما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم<sup>(٥)</sup>.

وهذا باطن الآية الموافق لظاها. فإنه لما أمر بالاستغفار عند ظهور الدين، والاستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال، وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة، علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور آخر، وفوق كل ذي علم عليم) ا.هـ<sup>(٦)</sup>.

- (١) مجموع الفتاوى (١٧/٣٦٨ - ٣٦٩). (٢) مجموع الفتاوى (١١/٤١٤ - ٤١٥).  
 (٣) منهاج السنة (٢/٣٣). (٤) الجواب الصحيح (٦/٧٨).  
 (٥) ابن جرير (٣٠/٣٣٣). (٦) مجموع الفتاوى (١٦/٤١٧ - ٤١٨).



وقال رحمه الله: (لأن المغفرة نهاية الخير، ولهذا أمر الله رسول الله ﷺ بالاستغفار بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر]، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

(١) شرح العمدة - الصلاة (١٣٧).

## سورة المسد

ذَاتَ لَهَبٍ ﴿١﴾ وَأُمَّرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٢﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ سَيَصِلَ نَارًا

(وفي الصحيحين<sup>(١)</sup>: من حديث ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد فاجتمعوا إليه فجعل ينادي: يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب وفي رواية: يا بني فهر يا بني عدي يا بني فلان لبطون قريش فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً ينظر ما هو فاجتمعوا فقال: رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال: فقال أبو لهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا؟ فقام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ وفي رواية: رأيتم لو أخبرتمكم أن العدو يصبحكم ويمسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى» ا.هـ<sup>(٢)</sup>).

وقال رحمه الله: (وقال ابن إسحاق: لما نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة حتى عدد الأفضاخ من قريش ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين وإني لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله» فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟

تباً لك سائر اليوم، فأنزل الله:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأُمَّرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري (٢٢١/٦)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) منهاج السنة (٣٠٩/٧ - ٣١٠).

(٣) الجواب الصحيح (٣٨٦/١ - ٣٨٧).

وفي تفسيرها قال:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢) وقد فسر ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ بالولد) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله:

(إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ كقوله في أبي لهب: ﴿سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢) ا. هـ (٢).

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

(سورة تبت نزلت في هذا وامراته وهما من أشرف بطنين في قریش وهو عم علي وهي عمه معاوية واللذان تداولوا الخلافة في الأمة هذان البطنان بنو أمية وبنو هاشم وأما أبو بكر وعمر فمن قبيلتين أبعد عنه ﷺ واتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما.

وليس في القرآن ذم من كفر به ﷺ باسمه إلا هذا وامراته فيه أن الأنساب لا عبرة بها بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم كما قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، قال النحاس: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ دعاء عليه بالخسر وفي قراءة عبد الله (٣)، (وقد تب).

وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي ولده فإن قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يتناوله كما في الحديث ولده من كسبه واستدل بها على جواز الأكل من مال الولد.

ثم أخبر أنه: ﴿سَيَصِلَىٰ نَارًا﴾، أخبر بزوال الخير وحصول الشر، و«الصلي» الدخول والاحتراق جميعاً.

وقوله: ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ إن كان مثلاً للنميمة لأنها تضم الشر فيكون حطب القلوب، وقد يقال: ذنبها أعظم، وحمل النميمة لا يوصف بالحبل في الجيد وإن كان وصفاً لحالها في الآخرة كما وصف بعلمها وهو يصلى وهي تحمل الحطب عليه، كما

(١) مجموع الفتاوى (٣٤/٦٩ - ١٠٦). (٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٢٦).

(٣) البحر المحيط (١٠/٥٩٩).

أعانتة على الكفر، فيكون من حشر الأزواج، وفيه عبرة لكل متعاونين على الإثم أو على إثم ما، أو عدوان ما.

ويكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة في الزوجين وهي أربعة: إما كإبراهيم وامرأته وإما هذا وامرأته وإما فرعون وامرأته وإما نوح وامرأته ولوط، ويستقيم أن يفسر حمل الحطب بالنميمة بحمل الوقود في الآخرة كقوله: «من كان له لسانان»<sup>(١)</sup> إلخ... والله تعالى أعلم<sup>(٢)</sup>.

(١) أبو داود (٤٨٢٢)، والدارمي (٢٧٦٤)، والحديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٦٠٢/١٦ - ٦٠٣).

## سورة الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمته الله عما ورد في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، أنها تعدل ثلث القرآن: وكذلك ورد في سورة الزلزلة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] والفاتحة، هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع، أم في البعض؟

ومن روى ذلك؟

وما ثبت من ذلك؟

وما معنى هذه المعادلة، وكلام الله واحد بالنسبة إليه ﷻ؟

وهل هذه المفاضلة بتقدير ثبوتها - متعدية إلى الأسماء والصفات، أم لا؟

والصفات القديمة، والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع أنها

قديمة؟

ومن القائل بذلك، وفي أي كتبه قال ذلك؟ ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من

دليل عقلي، ونقل؟

فأجاب رحمته الله:

الحمد لله، أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح - كالبخاري ومسلم - فأخرجوا

فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ وروي عن الدارقطني أنه قال: لم يصح في فضل سورة

أكثر مما صح في فضلها.

وكذلك أخرجوا فضل «فاتحة الكتاب» قال رحمته الله فيها: «إنه لم ينزل في التوراة ولا

في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»<sup>(١)</sup> لم يذكر فيها أنه تعدل جزءاً من القرآن كما قال في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: «إنها تعدل ثلث القرآن».

ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلاث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم وقالوا: «أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»، وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن<sup>(٢)</sup> وروى مسلم<sup>(٣)</sup> أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن، وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده: إنها لتعدل ثلث القرآن» وأخرج عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن رجلاً قام في زمن رسول الله ﷺ يقرأ من السحر: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يزيد عليها الحديث» بنحوه<sup>(٤)</sup> وفي صحيح مسلم<sup>(٥)</sup> عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، قال: فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن. وفي لفظ له قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ حتى ختمها. وأما حديث الزلزلة، و﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ [الكافرون] فروى الترمذي<sup>(٦)</sup> عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾ عدلت له ربع القرآن، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل نصف القرآن و﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ﴾

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مسلم (٨١١).

(٣) البخاري (٥٠١٤) وهو من أفراد البخاري.

(٤) مسلم (٨١٢).

(٥) مرّ تخريجه.

(٦) البخاري (٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).

[الكافرون] تعدل ربع القرآن. رواهما الترمذي، وقال عن كل منهما: غريب<sup>(١)</sup>. وأما حديث «الفاتحة»<sup>(٢)</sup> فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ [الفاتحة] هي السبع المثاني والقرآن العظيم.

وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي كعب: «ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها - قال - فإني أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها» وقال فيه: كيف تقرأ في الصلاة؟ فقرأت عليه أم القرآن، فقال والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»<sup>(٣)</sup>.

ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر بن كريب مرسلًا وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ [الفلق] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ [الناس].

وفي لفظ قال لي رسول الله ﷺ: أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط، المعوذتان<sup>(٤)</sup> فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين، كما أخبر أنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثل الفاتحة، وهذا مما يبين لنا فضل القرآن على بعض.

## فصل

### عن التفاضل بين كلام الله تعالى

وأما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع كلام الله فهذا

السؤال يتضمن شيئين:

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ الكلام عليه.

(٤) مسلم (٨١٤).

أحدهما: أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض، أم لا؟

والثاني: ما معنى كون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن؟ وما سبب ذلك؟ فنقول:

أما الأول فهو مسألة كبيرة، والناس متنازعون فيها نزاعاً منتشراً، فطوائف يقولون: بعض كلام الله أفضل من بعض، كما نطقت به النصوص النبوية حيث أخبر عن الفاتحة أنه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها.

وأخبر عن سورة الإخلاص أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف وجعل آية الكرسي أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح أيضاً.

وكما ثبت ذلك في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم قال: فقلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر<sup>(١)</sup> ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم، وزاد فيه «والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفقتين تقدس الملك عند ساق العرش»<sup>(٢)</sup>.

وروى أنها سيدة أي القرآن.

وقال في المعوذتين: لم ير مثلهن قط.

وقد قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها، وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى، وأيضاً فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعاً كلام الله، مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.



[الحجر]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿٨٨﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأخبر أنه أحسن الحديث، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الحجر].

وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك.

وقد سمي الله القرآن كله مجيداً وكراماً وعزيزاً. وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة منه فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الطور]، وقال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣]، وقال: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته، ولا بدون قراءته، ولا يصلي بلا قرآن، فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه أو قيل: إنها سنة، فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساوٍ لقراءتها من كل وجه.

وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر، كما ثبت ذلك عن الصحابة - مثل سعد وسلمان وابن عمر - وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم، ومضت به سنة رسول الله ﷺ في كتابه الذي كتبه لعمر بن حزم، الذي لا ريب في أنه كتبه له، ودل على ذلك كتاب الله، وكذلك لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة.

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه، وإن كان ذلك ترجيحاً لأحد المتماثلين بلا مرجح.

وهذا خلاف ما علم من سنة الرب تعالى في شرعه بل وفي خلقه، وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية.

وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فدل على أن فيما أنزل حسن وأحسن سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها، أو كان غير ذلك.

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج<sup>(١)</sup> في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاث أقسام: ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعد، وثلث منه الأسماء والصفات وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات.

ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة.

قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني<sup>(٢)</sup> الشافعي في كتابه «الاصطلام».

وأما قولهم: إن سائر الأحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة.

قلت: سائر الأحكام قد تعلق بالقرآن على العموم وهذا على الخصوص، بدليل أن عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة قال: وقد قال أصحابنا: إن قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة، لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة، وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور ولا تصلح

(١) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي أبو العباس، فقيه الشافعية في عصره، مولده عام (٥٢٤٩هـ) ووفاته في بغداد عام (٣٠٦هـ) له نحو (٤٠٠) مصنف منها الأقسام والخصال، ولي القضاء بشيراز، وقام بنصرة المذهب الشافعي، فنشره في أكثر الآفاق حتى قيل: بعث الله عمر بن عبد العزيز على رأس المئة من الهجرة فأظهر السنة، وأمات البدعة ومنّ الله في المئة الثانية بالإمام الشافعي، فأحى السنة، وأخفى البدعة، ومنّ بابن سريج في المئة الثالثة فنصر السنن وحذل البدع، وكان حاضر الجواب، له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري، وله نظم حسن.

(٢) مّرت ترجمته.

جميع السور عوضاً عنها، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب، والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد، فإذا صارت هذه السورة أشرف السور، وكانت الصلاة أشرف الحالات، فتعينت أشرف السور في أشرف الحالات وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكره.

وكذلك ذكر ذلك من ذكره أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى ابن القاضي أبي حازم، ابن القاضي أبي يعلى، ابن الفراء، قال في تعليقه - ومن خطه نقلت - قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركناً في الصلاة أما الطريق المعتمد في المسألة فهو أنا نقول: الصلاة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة، فوجب أن يتعين لها أشرف السور، والفاتحة أشرف السور، فوجب أن تتعين.

قال: واعلم أنا نحتاج في تمهيد هذه الطريقة إلى شيئين:

أحدهما: أن الصلاة أشرف العبادات.

والثاني: أن الحمد أشرف السور.

واستدل على ذلك بما ذكره قال: وأما الدليل على أن فاتحة الكتاب أشرف، فالنص والمعنى، والحكم أما النص فما تقدم من أنها عوض من غيرها.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: فاتحة الكتاب شفاء من السم<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها:

التوراة والإنجيل والزبور، والفرقان<sup>(٢)</sup>.

ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

وأما المعنى فهو أن الله قابلها بجميع القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر] وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها.

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

قلت: هذا على قول من جعلها هي السبع المثاني، وجعل القرآن العظيم جميع القرآن، قال: ولأنها تسمى أم القرآن وأم الشيء أصله ومادته، ولهذا سمي الله مكة أم القرى لشرفها عليهن؛ ولأنها السبع المثاني ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به، والاستعاذة والدعاء من العبد، على ما قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: «قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي»<sup>(١)</sup> الحديث المشهور.

قال: ولأنه لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في شيء من الكتب يدل عليها أنها تيسر قراءتها على كل أحد ما لا يتيسر غيرها من القرآن وتضرب بها الأمثال.

ولهذا يقال: فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة وإذا كانت بهذه المثابة فغيرها لا يساويها في هذا فاختصت بالشرف، ولأنها السبع المثاني.

قال أهل التفسير: معنى ذلك أنها تثنى قراءتها في كل ركعة، قال بعضهم: ثنى نزولها على النبي ﷺ قلت: وفيه أقوال آخر.

قال: وأما الحكم فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ويكره الإخلال بها، ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى يدل عليه أن عند المنازعين - يعني أصحاب أبي حنيفة - أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو فنقول: لا يخلو إما أن تكون ركناً أو ليست بركن. فإن كانت ركناً وجب أن لا تجبر بالسجود، وإن لم تكن ركناً وجب أن لا يجب عليه سجود.

قلت: يعني بذلك: أن السجود لا يجب إلا بترك واجب في حال العمد، فإذا سهى عنه وجب له السجود، وما كان واجباً فإذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته؛ لأنه لم يفعل ما أمر به، بخلاف من سهى عن بعض الواجبات، فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو.

ومذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب، لأن من الواجبات ما إذا تركه سهواً لم تبطل الصلاة، كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء، ولو زاد

عمداً لبطلت الصلاة، لكن مالكاً وأحمد في المشهور عنهما يقولان: ما كان واجباً إذا تركه عمداً بطلت صلاته وإذا تركه سهواً فمنه ما يبطل الصلاة، ومنه ما ينجز بسجود السهو، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقاً، وترك التشهد الأول عندهما يبطل الصلاة عنده، ويجب السجود لسهوه.

وأما أبو حنيفة فيقول: الواجب الذي ليس بفرض كالفاتحة - إذا تركه كان مسيئاً ولا يبطل الصلاة. والشافعي لا يفرق في الصلاة بين الركن والواجب، ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة.

والمقصود هنا ذكر بعض من قال: إن الفاتحة أشرف من غيرها.

وقال أبو عمر بن عبد البر، وأما قول النبي ﷺ لأبي: هل تعلم سورة ما أنزل الله لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، فمعناه مثلها في جمعها لمعاني الخير، لأن فيها الثناء على الله ﷻ بما هو أهله وما يستحق من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره؛ لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه، فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهو محمود على ذلك، وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد، وفيها التعظيم له وأنه رب العالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان، وفيها تعليم الدعاء والهدى، ومجانبة طريق من ضل وغوى، والدعاء لباب العبادة، فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه قال: وقد قيل: إن معنى ذلك أنها لا تجزئ الصلاة إلا بها دون غيرها ولا يجزئ غيرها عنها<sup>(١)</sup>، وليس هذا بتأويل مجمع عليه<sup>(٢)</sup>.

قلت: يعني بذلك أن في هذا نزاعاً بين العلماء، وهو كون الصلاة لا تجزئ إلا بها وهذا يدل على أن الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو أنها أفضل السور.

ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على غيره من كلام الله

(١) في المطبوع منها.

(٢) انتهى كلام ابن عبد البر في الاستذكار (٤/١٨٦ - ١٨٧).

التوراة والإنجيل وسائر الكتب وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك، ليس فيهم من يقول: الجميع كلام الله فلا يفضل القرآن على غيره. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: ٢٣] فأخبر أنه أحسن الحديث.

وقال تعالى: ﴿مَنْ نَقَضَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [يوسف].

### فصل

وبالجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية، والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة، وأيضاً فإن القرآن، وإن كان كله كلام الله، وكذلك التوراة والإنجيل والأحاديث الإلهية التي يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى كقوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»<sup>(١)</sup> الحديث.

وكقوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»<sup>(٢)</sup> وأمثال ذلك، هي وإن اشتركت في كونها كلام الله، فمعلوم أن الكلام له نسبتان، نسبة إلى المتكلم به، ونسبة إلى المتكلم فيه، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين، وباعتبار نفسه أيضاً مثل الكلام الخبري له نسبتان، نسبة إلى المتكلم المخبر، ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه ع ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [المسد: ١] كلاهما كلام الله، وهما مشتركان من هذه الجهة، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه، المخبر عنه، فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه، وصفته التي يصف بها نفسه، وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه، وهذا كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه، ويخبر به عنه ويصف به حاله، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين.

### فصل

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل، واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض، وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض، بقي الكلام في كون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [المسد: ١] تعدل ثلث القرآن، ما وجه ذلك؟

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن، وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن؟

فيقال: أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها - والله أعلم - الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس بن سريج، فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» تعدل ثلث القرآن.

فقال: معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعد وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي<sup>(١)</sup> في هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ بهذا الوجه.

فروى قول ابن سريج هذا بإسناده عن زاهد عن الصابوني والبيهقي عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول: سألت أبا العباس بن سريج قلت: ما معنى قول النبي ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» تعدل ثلث القرآن؟، قال: إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام، فثلث أحكام، وثلث وعد ووعد، وثلث أسماء وصفات، وقد جمع في قل هو الله أحد الأثلاث وهو الصفات، فقليل: إنها تعدل ثلث القرآن.

الوجه الثاني - من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج بن الجوزي - أن معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة أفعاله.

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته، إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء ما خلا الله فلائنه ليس له كفاء، ولا له مثل.

قال أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف.

قال: والوجه الثالث: أن المعنى من عمل ما تضمنته من الإقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ القرآن ولم يعمل بما تضمنته.

(١) هذا ليس في «زاد المسير» فلعله في «فنون الأفتان في علوم القرآن» أو غير ذلك وابن الجوزي لم يترك فناً أو علماً إلا وله فيه مصنف، وبعد بحثي في عدة كتب في علوم القرآن لم أجده لا في الفنون ولا في «المصعد» ولعله في كتاب له مختص بشرح الحديث والله أعلم.

ذكره ابن عقيل، قال ابن عقيل: ولا يجوز أن يكون المعنى: من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله ﷺ: «من قرأ فله بكل حرف عشر حسنات»<sup>(١)</sup>.

قلت: كلا الوجهين ضعيف.

أما الأول فيدل على ضعفه وجوه:

**الأول:** أن نقول: القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة، بل فيه أمر بالأعمال الواجبة، ونهي عن المحرمات، والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة والعمل الواجب، والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التي فرضها الله، لم يقل أحد: بأنها ليست من الواجبات، وإن كان طائفة من الناس نازعوا في كون الأعمال من الإيمان، فلم ينازعوا في أن الله فرض الصلوات الخمس، وغيرها من شرائع الإسلام وحرم الفواحش: ﴿مَا ظَهَرَ مِنَّا وَمَا بَطَنَ وَالْإِيمَ وَالْبَغْيَ يَغْيِرِ الْحَقَّ وَأَن تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنَا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا قَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وإذا كان كذلك وقدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن.

**الثاني:** أن يقال: قول القائل: معرفة ذاته معرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع، ولو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذات مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذاك معرفته بالله البتة، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة الباطنية يقولون: يسلب عنه كل أمر ثبوتي وعدمي، فلا يقال: موجود ولا معدوم، ولا عالم وليس بعالم، ولا قادر ولا ليس بقادر، ولا نحو ذلك، وهؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد بضرورة العقل فإنهم متناقضون أما الأول: فلأن سلب النقيضين ممتنع، كما أن جمعهما ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجوداً ولا معدوماً. وأما تناقضهم لا بد أن يذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التي يتميز بها ليخبر عنها بهذا السلب، وأي شيء قالوه فلا بد أن يتضمن نفياً أو إثباتاً، بل لا بد أن يتضمن إثباتاً، وقد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع. ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا



الحد، بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستاني وغيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين، بل نسكت عن إضافة واحد منهم إليه، فلا نقول: هو موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، فيقال لهم: إعراض قلوبكم عن العلم به، وكف ألسنتكم عن ذكره لا يوجب أن يكون هو في نفسه مجرداً عن النقيضين، بل يفيد هذا كفركم بالله وكراهتكم لمعرفته، وذكره وعبادته، وهذا حقيقة مذهبكم ومن قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق كابن سبعين<sup>(١)</sup> والصدر القونوي<sup>(٢)</sup> وغيرهما: إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبى فهو من جنس هؤلاء. لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم، ثم يقولون هو مطلق، والمطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبى وثبوتي إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان.

وهؤلاء يقولون: الوجود الكلي المقسوم إلى واجب وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي ويسمونه «الحكمة العليا» و«الفلسفة الأولى» إنما يكون كلياً في الأذهان لا في الأعيان، فليس في الخارج قط وجود هو بعينه واجب، وهو بعينه ممكن ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب، وهو بنفسه يتصف به الممكن، بل صفة الواجب تختص به، وصفة الممكن تختص به، ووجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره، ووجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره، ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون لها فيها مشارك أو مماثل، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئاً من الذوات، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئاً من الصفات، بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فاسمه «الأحد» دل على نفي المشاركة والمماثلة.

واسمه «الصمد» دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك في الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة، وصفات التنزيه كلها، بل وصفات الإثبات يجمعها هذا المعنيان.

(١) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، ابن سبعين الإشبيلي، المرسي القرطبي، توفي عام (٦٦٩هـ) وسبق الترجمة له.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي توفي عام ٦٧٣هـ وسبق الترجمة له.

وقد بسط الكلام في التوحيد وأنه نوعان: علمي قولي وعملي قصدي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] اشتملت على التوحيد العملي نصاً، وهي دالة على العلمي لزوماً.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضاً في ركعتي الفجر بآية الإيمان التي في البقرة ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، في الركعة الأولى وآية الإسلام التي في آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَتَّلُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران].

والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه

السورة.

أحدهما: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له، والكمال من مدلول اسمه الصمد.

والثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة وهذا من مدلول اسمه الأحد، فهذان الاسمان العظيمان - الأحد، الصمد - يتضمنان تنزيهه من كل نقص وعيب وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله، وتضمنت أيضاً كل ما يجب إثباته من وجهين، من اسمه الصمد ومن جهة أن ما نفى عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً، فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي، فلا بد أن يتضمن ثبوتاً، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون صفة كمال.

والمقصود هنا: الكلام على معنى كون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث

القرآن، وبيان أن الصواب القول الأول.

**الوجه الثالث** الذي يدل على فساد القول الثاني أن يقال: قول القائل: معرفة أفعاله «إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته، ويبقى معرفة وعده ووعيده، وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو القسم الثاني من أقسام معاني القرآن، كما لم يذكر أمره ونهيه، وإن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر، وجزاء الأعمال، كما أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته، فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

**الوجه الرابع:** أن يقال: ما ذكره من نفي المثل عنه ومن نفي الولادة المذكور في غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى.

**الوجه الخامس:** أن يقال: هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله، فمعرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب. بل الأصل فيها صفات الإثبات، والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات، كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات.

ولهذا كان قول «سبحان الله» متضمناً تنزيه الرب وتعظيمه، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص، وفيها تعظيمه ﷻ كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته، فهذا أيضاً ضعيف، وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر كثرة الحروف وهو قول باطل، كما قد بين في موضعه، وذلك أن العمل بها إن أراد به العمل الواجب من التصديق بمضمونها، وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك، فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق، ومعلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي.

وأيضاً فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها، والأجر المذكور في الحديث هو لمن قرأها فلا بد أن يكون قد قرأها مع الإيمان بما تضمنته وأيضاً فالنبي ﷺ جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن، وقرأها على أصحابه، وأخبرهم أنه

قرأ عليهم ثلث القرآن، فكانت قراءته لها تعدل قراءته هو للثلث وكذلك الرجل الذي جعل يرددها.

وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن، وإنما يراد به ثلثه إذا قرأوه هم، لم يرد به الثلث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ثم إن كون المراد بذلك من قرأ الثلث بلا إيمان بها معنى ليس في اللفظ ما يدل عليه، وإنما يدل اللفظ على نقيضه.

وهذا التأويل وأمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذم الله عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب وهو نوع من الإلحاد في كلام الله ورسوله.

وقد ذكر أبو حامد الغزالي وجهاً آخر غير هذه الثلاثة فقال في كتابه «جواهر القرآن ودرره» أما قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ما أراك تفهم وجه ذلك، فتارة تقول؛ ذكر هذا للترغيب في التلاوة، وليس المعنى به التقدير، وحاشا منصب النبوة عن ذلك.

وتارة تقول: هذا بعيد عن الفهم والتأويل، فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية، فهذا القدر كيف يكون ثلثها؟ وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن، ونظرك إلى ظاهر ألفاظه، فتظن أنها تعظم وتكثر بطول الألفاظ، وتقصّر بقصرها، وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً إلى كثرتها.

فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً، وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي: معرفة الله، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع، وسورة الإخلاص تشمل على واحدة من الثلاث، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفاء، والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه.

نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال «الحج عرفة» أي هو الأصل، والباقي تبع.

قلت: آيات القرآن نوعان: علمية وعملية وفي الآيات ما يجمع الأمرين.

وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص، وسماها «جواهر القرآن» وجمع العمليات وسماها «درر القرآن» وجعل الشطر الأول من «الفتحة» من الجواهر والثاني من الدر، والآيات التي تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها، ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية، وجعل معاني القرآن ستة أصناف: ثلاثة أصول، وثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين.

وقال: سر القرآن ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى.

فالثلاثة المهمة: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المعنية<sup>(١)</sup> فأحدها: أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أقوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحااجة على الحق. ومقصوده وسره في جنبه الباطل الإفصاح والتحذير والتنفير وفي جنبه الحق الإيضاح والتثبيت والتقدير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والراحلة، والأهبة للاستعداد. قلت: ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰبِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح وأما الثلاثة الأخرى التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة، فإن ما

(١) كذا في الأصل، ولعلها: المعينة.

في القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة فهو من تفصيل الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح، وما فيه من المجادلة والمحااجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها.

وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال: القسم الجائي لمحااجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح، وكشف أباطيلهم وتخاييلهم، وأباطيلهم ثلاثة أنواع:

الأول: ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته، وأن له ولداً شريكاً، وأنه ثالث ثلاثة.

الثاني: ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر وكاهن وشاعر، وإنكار نبوته.

وثالثها: إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية.

وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا - وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين - فهذا من تمام الأدلة والآيات، فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورثيت آثاره، وتواترت أخباره، ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد.

ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال، مع ما في ذلك من الموعظة كقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ التَّقَىٰ فَمِمَّا تَقُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ لَكُمْ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مَتَابِعَتُهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَبُوتُهَا بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]. وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٥٥﴾﴾ أفلتر يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا

تَمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن نَعَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج]. وقوله: ﴿أَوْلَدٌ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية [الروم: ٩]. وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ [الحجر]. والمتوسم: المستدل بالسمة والسيما، وهي العلامة قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَرَفَنَّهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها، لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله، فإن ذلك أخفى.

وفي الحديث رواه الذي الترمذي وحسنه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر]»، قال مجاهد وابن قتيبة: للمتفرسين.

قال ابن قتيبة: يقال: توسمت في فلان الخير أي تبينته.

وقال الزجاج: المتوسمون في اللغة النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي عرفت.

وقوله: المثبتون في نظرهم، أي في نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما، بخلاف الذين قيل فيهم: ﴿وَكَأَنِّ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [يوسف].

وقال الضحاك: الناظرون.

وقال ابن زيد: المتقنون.

وقال قتادة: المعتبرون: وكل هذا صحيح، فإن المتوسم يجمع هذا كله<sup>(١)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].

(١) هذه الآثار في زاد المسير مرّ تخريجها.

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة، ثم قال: ﴿وَاتَّخَذْنَا لِيَأْمُرِ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] أي بطريق متبين للناس واضح وكذلك في موضع آخر لما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَأَوْعَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾ [الذاريات] وقال في سفينة نوح: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٥﴾ [القمر].

فأخبر أنه أبقى آيات، وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا، وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل، ويفيد الترغيب والترهيب.

ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل، ويستدل بأحكام الأفعال على علمه، لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته، لأن التخصيص مستلزم لإرادته، فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته، لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة.

ويستدل بتخصيص الأنبياء وأتباعهم بالنصر وحسن العاقبة، وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم، لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة: يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول، وبغض ما فعله الصنف الثاني، وأما الإرادة التي يقال فيها: إنها تخص أحد المثليين عن الآخر بلا سبب، فتلك هل يوصف الله بها؟ فيه نزاع.

فإن قيل: إنه لا يوصف بها فلا كلام.

وإن قيل: إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء ﷺ بهذا، وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص، بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام، وهؤلاء بالعقاب وأن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا، وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا.



ولبسط هذه الأمور موضع آخر.

لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة في الثلاثة الأول، ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه، ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص.

ويقول: إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها، ويجعل أهله من جنس خفراء<sup>(١)</sup> الحجيج، ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه، كما تكلموا على ما ذكره في هذا الكتاب «جواهر القرآن» وغيره من كتبه من معاني الفلسفة، وجعل ذلك هو باطن القرآن، وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك، فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة، كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها، والمقصود أن هذا الذي ذكره في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحسن من قول كثير من الناس فيها، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه، لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب، فإن النبي ﷺ أخبر بأن الله جزء القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن، وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء، ليس هو ستة: ثلاثة أصول، وثلاثة فروع.

وكذلك أخبر أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، لم يقل ثلث المهم منه، ولا ثلث أكثره، ولا أصوله، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف، وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة: ثلاثة مهمة، وثلاثة توابع، والسورة أحد الثلاثة المهمة وهذا خلاف الحديث.

وأيضاً: فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فإن القرآن كلام، والكلام إما إخبار وإما إنشاء والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق، فهذا تقسيم بين، وأما جعل علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل الصالح، وجعل علم الأدلة والحجج خارجاً عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر، فهذا مردود عند

(١) جمع خفير وهو الحارس.

جماهير السلف والخلف. وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول: إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط، لا بطريق الخبر النبوي، ولا بطريق النظر الاستدلالي، فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل.

وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتباً في رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء، ولكن عذر أبي حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك، ولم يعلم طرقاً عقلية غير ذلك، فنفى أن يعلم بطريق النظر فيه.

وأما الطرق الخبرية الثبوتية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ الرسول، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده، وظن - بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة - أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي، وظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية والعمل، فسلك ذلك، فلم يحصل له المقصود أيضاً، فرجع في آخره عمره إلى قراءة البخاري ومسلم.

وقد ذكر القاضي عياض أقوالاً في كون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن.

وكذلك المازري قبله. قال: قال الإمام - يعني أبا عبد الله المازري - قيل معنى ذلك: إن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام، وأوصاف الله جلّت قدرته.

و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تشمل على ذكر الصفات فكانت ثلثاً من هذه الجهة، قال: وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن<sup>(١)</sup>.

قلت: هذا هو قول ابن سريج - وهو الذي نصرناه، ذكره المازري في كلام ابن بطال كما سيأتي.

قال: وقيل: معنى ثلث القرآن لشخص بعينه قصده رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> وذكره ابن بطال أيضاً.

قال: وقيل: معناه إن الله يتفضل بتضعيف الثواب لقرائها، ويكون منتهى التضعيف

(١) المعلم بفوائد مسلم للمازري (١/٤٦١).

(٢) المعلم (١/٤٦١).

إلى مقدار ثلث ما يستحق من<sup>(١)</sup> الأجر على قراءة القرآن من دون تضييف أجر. قال: وفي بعض روايات هذا الحديث أن رسول الله ﷺ حشد الناس وقال: سأقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال المازري: وهذه الرواية تقدر في تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه<sup>(٢)</sup> قال القاضي عياض: قال بعضهم قال الله تعالى: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهْكَمْتَ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١٠١]، فهذا فصل الألوهية، ثم قال: ﴿إِنِّي لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] وهذا فصل النبوة، ثم قال: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤَيَّبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]. فهذا فصل التكليف، وما وراءه من الوعد والوعيد وعامة أجزاء القرآن مما فيه من القصص فمن فصل النبوة لأنها من أدلتها وفهمها أيضاً.

وهذا يدل على أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جمعت الفصل الأول.

قلت: مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف: الإلهيات، والنبوات، والشرائع.

وأن هذه السورة منها الإلهيات، وجعل صاحب هذا القول الوعد والوعيد والقصص من قسم النبوة، لأن ذلك مما أخبر به النبي ﷺ أو مما يدل على نبوته.

وهذا القول ضعيف أيضاً، فإنه يقال: والأمر والنهي أيضاً مما جاء به النبي، كما جاء بالوعد والوعيد، ويقال أيضاً: القصص تدل على الأمر والنهي كما تدل على النبوة، فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه، وعقوبته لمن عصاه، وهذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم. وأيضاً: فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به وبما أخبر به، وما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبي، وما دل على إثبات ما جاء به النبي يدل على الأمر والنهي الذي جاء به النبي فهما متلازمان.

ثم الإلهيات أيضاً هي مما جاء به النبي ﷺ فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل، وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة في النبوة دون الإلهيات فإنه إن عني أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب، وفيما أخبر به من الإلهيات والأمور المستقبلات ما هو كالقصص في ذلك وأبلغ.

(٢) المعلم (١/٤٦١).

(١) (من غير) في المطبوع.

وإن عني أن تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة، وعلى نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر، إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول.

وهذه الأمور كلها موجودة في الإلهيات وزيادة، فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله.

قد ذكر الله ذلك في غير موضع كقوله: ﴿وَسَأَلَ مَنِ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلاً منهم يقول لقومه: ﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. بل يفتح دعوته بذلك.

وذكر تعالى عن الأنبياء وأمهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين، كما قد بسط في غير موضع وأيضاً فالإلهيات التي تعلم منها قدرة الرب، وإرادته وحكمته، وأفعاله: منها يعلم النبي من المتنبئ، ومنها يعلم صدق النبي فهي أدل على صدق النبي من مجرد القصص، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل مع الإلهيات وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء، فالنبوة مرتبطة بالإلهيات أعظم من ارتباطها بغيرها، والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله وحده، وقد يذكرون المعاد مجملًا ومفصلاً، والقصص قد يذكر بعضهم بعضها مجملًا، وأما الإلهيات فهي الأصل، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه، فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة، الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، والأصول الكلية التي يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل: الأنعام والأعراف وذوات ﴿الر﴾ و﴿طس﴾ ﴿١﴾ و﴿حم﴾ ﴿١﴾ وأكثر المفصل، ونحو ذلك، والمدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل.

وأما قول من قال: إن هذا في شخص بعينه، ففي غاية الفساد لفظاً ومعنى.

ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار<sup>(١)</sup> - وكان قد ذبح في العيد قبل الصلاة - قبل أن يشرع لهم النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة، فلما قال النبي ﷺ إن الذبح يكون بعد الصلاة، فلما قال النبي ﷺ: «أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نذبح، فمن ذبح قبل الصلاة فليعد، فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله»<sup>(٢)</sup>.

ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة ولم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز، . وذكر له أن عنده عناقاً خيراً من جذعة فقال: «تعزى عنك ولا تعزى عن أحد بعدك»<sup>(٣)</sup>.

فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذوراً في ذبحه قبل الصلاة، إذ فعل قبل شرع الحكم فلم يكن ذلك الذبح منهيماً عنه بعد، مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن، وأما أمره لامرأة أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالماً مولاه خمس رضعات ليصير لها محرماً فهذا مما تنازع فيه السلف: هل هو مختص أو مشترك؟

وإذا قيل: هذا لمن يحتاج إلى ذلك - كما احتاجت هي إليه كان في ذلك جمع بين الأدلة.

وبالجملة فالشارع حكيم، لا يفرق بين متماثلين إلا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص ولا يسوي بين مختلفين غير متساويين، بل قد أنكر سبحانه على من نسه إلى ذلك وقبح من يحكم بذلك.

فقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۗ﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۗ﴾ [الجاثية]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرْمِينَ ۗ﴾ [٣٥] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۗ﴾ [القلم]، وقال تعالى:

(١) هو ابن عمرو بن عبيد بن عمرو بن كلاب بن دهمان، واسم أبي بردة، هانئ وله عقب، وهو خال البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في رواية موسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق، وأبي معشر، ومحمد بن عمر، وشهد أبو بردة غزوة بدر، وأحد والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات أبو بردة في خلافة معاوية، راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٥١ - ٤٥٢).

(٢) البخاري (٩٥٥).

(٣) البخاري (٩٥٥).

﴿ أَكْفَرًا مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر]، وقال تعالى: ﴿ يَحْزَنُونَ يَوْمَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَبِرُوا يَأْتِلِ الْآبُصَرِ ﴾ [الحشر: ٢].

وإنما يكون الاعتبار إذا سوى بين المتماثلين وأما إذا قيل: ليس الواقع كذلك فلا اعتبار. وقد تنازع الناس في هذا الأصل، وهو أنه هل يختص بالأمر والنهي ما يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط، بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر.

فقال بذلك جهنم بن صفوان ومن وافقه من الجبرية، ووافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر.

وأما السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر الكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا الأصل بل يقولون: هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه وأمره لأسباب ولحكمة له في التخصيص. كما بسط الكلام على هذا الأصل في مواضع وكذلك قول من قال: يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارئ ثلث القرآن بلا تضعيف: قول لا يدل عليه الحديث، ولا في العقل ما يدل عليه، وليس فيه مناسبة ولا حكمة فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن وأن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن، فإن كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف وإن لم يكن في هذا تضعيف لم يكن في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم.

ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما اختصت به السورة من الفضل، وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن، وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه، ولا حكمة فيه، والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص عملهم وإيمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين.

ومن علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق في البيان، وأنصح الخلق للخلق علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون، وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الإلهية وغير ذلك.

فمن وقر هذا في قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيته من العلم والإيمان، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فنسأل الله أن يجعلنا وإخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والإيمان.

وإذ قد تبين ضعف هذه الأقوال - غير القول الأول الذي نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والأصيلي وغيرهما - فنقول: قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبه إلى المتكلم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار ألفاظه الميينة لمعانيه.

والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السور سورة الفاتحة وقال: «إنه لم ينزل في التوراة والإنجيل ولا في القرآن مثلها»<sup>(١)</sup> والأحكام الشرعية تدل على ذلك، وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع، وفضل من الآيات آية الكرسي.

وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب: «أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟» قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْيَوْمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضرب بيده في صدره وقال: ليهنك العلم أبا المنذر»<sup>(٢)</sup>.

وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي.

وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة.

وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة، ولا أنها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزداد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن ابن كثير<sup>(٣)</sup> ليس هو مسنداً عن النبي ﷺ، ولم يسنده أحد إلى

(١) مرّ تخريجه.

(٢)

مرّ تخريجه.

(٣) هو عبد الله بن كثير المكي أحد القراء السبعة.

النبي ﷺ إلا البيزي وخالف بذلك سائر من نقله، فإنهم إنما نقلوه اختصاراً ممن هو دون النبي، وانفرد هو برفعه، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء فالمقصود أن من السنة في القرآن أن يقرأ كما في المصاحف، ولكن إذا قرئت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن، لكن عدل الشيء - بالفتح - يكون من غير جنسه، كما سنذكره إن شاء الله والثواب أجناس مختلفة، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلاً لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك، وكذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره، وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها.

والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ مقامه في ذلك، وإن كان أجرها عظيماً فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعبادة منها وقد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع وبين أن ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴿[الفاتحة].

هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وهو أجوب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن - دع ثلثه - ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقيم مقامه ولم يسد مسده وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقيم ثواب هذه الأعمال مقام هذه، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة، وليس عنده ما



يتغذى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة.

ولهذا قال الشيخ أبو مدين<sup>(١)</sup> رحمته الله: أشرف العلوم علم التوحيد، وأنفع العلم أحكام العبيد فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا يقال: المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة والقراءة أفضل من الذكر والذكر أفضل من الدعاء، فهذا أمر مطلق وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت.

والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به، والقراءة منهي عنها ونظائر هذا كثير.

فهكذا يعلم الأمر في فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وغيرها، فقراءة الفاتحة في أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب، والاجتزاء بها وحدها لا يمكن، بل تبطل معه الصلاة.

ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقرباً إذا فعلت الفرائض، لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب «الفتوحات المكية» ونحوه، من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل، والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه، فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد، كما بين.

وبين أن الحديث يناقض مذهبه من وجوه، كما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله. من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي، ولئن سألتني

(١) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين: صوفي من مشاهيرهم، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور وتوفي بتلمسان عام (٥٩٤هـ) وقد قارب الثمانين أو تجاوزها له «مفاتيح الغيب» و«ستر العيب».

لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه»<sup>(١)</sup> وقد بين في هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه، بل هو غيره. وأنه ما تقرب إليه عبده بمثل أداء المفروض، وأنه لا يزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوباً لله، فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به، ثم قال: «ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ففرق بين السائل والمسؤول، والمستعيز والمستعاذ به وجعل العبد سائلاً لربه مستعيذاً به.

وهذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها، بل المقصود هنا الكلام على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقد بينا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام. وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك لأن القرآن كلام الله. والكلام نوعان: أما إنشاء، وإما إخبار.

والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق. فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي، والخبر عن المخلوق هو القصص.

والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته، وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك: «فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله يحبها»<sup>(٢)</sup>.

وقال البخاري في باب الجمع بين السورتين في ركعة: وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ الكلام عليه.

بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها، فكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه وقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتهم أن أوكمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم ذلك تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبره الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة قال: إني أحبها، قال «حبك إياها أدخلك الجنة». وقول النبي ﷺ: «إنها تعدل ثلث القرآن» حق كما أخبر به، فإنه ﷺ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفثيه إلا الحق.

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان: أحدهما: منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه.

الثاني: اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم.

قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ﴿آلَمْ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف وميم حرف».

قال الترمذي: حديث صحيح<sup>(١)</sup>.

قالوا: ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر.

فيقال لهم: هذا حق كما أخبر به النبي ﷺ ولكن الحسنات فيها كبار وصغار والنبي ﷺ مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فإذا قرأ حرفاً كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات، لكن لم يقل: إن الحسنات في الحروف متماثلة، كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها.

والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن النبي ﷺ فهو إذا أنفق مداً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها.

ولكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مداً من الصحابة السابقين. ونظائر هذا كثيرة.

فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

وإذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء - بالفتح - هو مساويه، وإن كان من غير جنسه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥].

والصيام ليس من جنس الطعام، والجزاء، ولكنه يعادله في القدر، وكذلك قوله ﷺ: «لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً». وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أي فدية، والفدية ما يعدل بالمفدي وإن كان من غير جنسه ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي يجعلون له عدلاً، أي ندأ في الإلهية، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا، وإن لم يكن من جنسه، ولهذا قد يكون عند الرجل من الذهب وغيره من الأموال ما يعدل شيئاً عظيماً، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن، أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشتراؤه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص وإن كان التوحيد أعظم من ذلك، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهى عنه من الأفعال، أو احتاج إلي ما يؤمر به، ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي، ولا الأمر والنهي مسد القصص، بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه.

فإذا قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن، بل قد

يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص، فلا تسد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مسد ذلك ولا تقوم مقامه فلماذا لو لم يقرأ<sup>(١)</sup> ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها، بل يبقى فقيراً محتاجاً إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد، ولو قام بالواجب عليه.

فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب وإن كان قارئ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثاً يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد، كمن معه ثلاثة آلاف دينار فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره، وذلك محتاج إلى ما مع هذا، وإن كان ما معه يعدل ما مع هذا. وكذلك لو كان معه طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار، فإنه محتاج إلى لباس ومساكن، وما يدفع به الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة بتدبر والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك.

وفي الأثر: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»<sup>(٢)</sup>.

وكان بعض الشيوخ يرقى بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وكان لها بركة عظيمة فيرقى بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول: ليس ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ من كل أحد تنفع كل أحد وإذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وغيرها.

والإنسان الواحد يختلف أيضاً حاله. فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل

(١) كذا في الأصل، وصوابها زيادة «إلا» حتى يكون نفيًا وإثباتًا.

(٢) عزاه بعضهم لحسان بن عطية رحمه الله من قوله.

فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب، كما ثبت ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها. وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له، لعدم الأسباب المزكية للعمل، فإن الله إنما يتقبل من المتقين.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»<sup>(١)</sup> يقوله عن أصحابه من السابقين الأولين رضي الله عنهم. فإذا قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة.

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

### فصل

وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعداً، إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء.

فالتفاضل في صفاته تعالى إنما يعقل إذا أثبت له صفات متعددة كالعلم، والقدرة، والإرادة، والمحبة والبغض، والرضا، والغضب.

وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معانٍ متعددة، وأثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال: هل بعضها أفضل من بعض أم لا؟.

وكل قول سوى قول السلف والأئمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض، وأي شيء قاله في جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح.

فمن قال: إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية، كما يقول

(١) مرّ تخريجه.

ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة أتباع جهنم ابن صفوان - فهذا إذا قيل له: أيهما أفضل: نسبه التي هي الخلق إلى السماوات والأرض أم إلى بعوضة أم أيهما أفضل: نفي الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء، أم نفي الجهل بالكليات؟

لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد. فإنه إن قال: خلق السماوات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع.

قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وإن قال: بل ذلك أعظم وأكبر كما في القرآن، قيل له: ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر، إذ الخلق على قولك لا يزيد على المخلوق، فلم يبق إلا العدم المحض، فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل؟ وكذلك إذا قيل: نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة وإن قال: بل نفي الجهل العام أكمل من نفي الجهل الخاص.

قيل له: إذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء، بل كان النفيان عديمين محضين فكيف يعقل التفاضل في الشيء الواحد من كل وجه فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف، فإن ذلك ليس بشيء أصلاً، ولا حقيقة له في الوجود ولا فيه كمال ولا مدح، وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال، والكمال لا بد أن يكون موجوداً قائماً بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها، فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلاً.

ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها، كما قد بسط في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فنفي ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك. ونفي انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال.

ولهذا كانت السورة فيها الاسمان الأحد الصمد وكل منهما يدل على الكمال.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يدل على نفي النظر.

وقوله: ﴿الصَّمَدُ﴾ بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية.

ولهذا جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به في الإثبات غيره، بخلاف الصمد، فإن العرب تسمى السيد صمداً.

قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف، فقوله: ﴿الصَّمَدُ﴾ بيان لاختصاصه بكمال الصمدية.

وقد ذكرنا تفسير الصمد، واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله: ﴿الصَّمَدُ﴾ يقول: السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبعي إلا له، ليس له كفاء وليس كمثل شيء، سبحانه الواحد القهار، وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبي وائل وقد ذكره البخاري في صحيحه<sup>(١)</sup>.

ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال: الصمد السيد الذي انتهى سؤده.

وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما: الصمد الذي لا جوف له. وكلا القولين حق موافق للغة، كما قد بسط في موضعه.

أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور. وأما الآخر فهو أيضاً معروف في اللغة.

وقد ذكر الجوهرى وغيره أن الصمد لغة في الصمت وليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك.

والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة، والصفات السلبية



إنما تكون كاملاً إذا تضمنت أموراً وجودية، ولهذا كان تسييح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً: فقول العبد: سبحان الله، يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً، فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم.

وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك.

كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَنِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكَ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: ٤٤)، إلى قوله: ﴿إِذَا لَأْتَبَعُوا إِلَيْكَ ذِي الْأَرْشِيِّ سَبِيلًا﴾ (٤٤) ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ ۗ عَلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٤) ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤) وقوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤) [الصفات] وغير ذلك.

فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوجدانية، وهو من تمام الكمال، فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره، فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها، فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها ولهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حباً لله من المشركين الذي يحبون غيره، الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع، قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك»<sup>(١)</sup>.

وأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ  
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].

فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلهاً آخر وهذا من الشرك  
الأكبر.

والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل  
واحد، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين  
المخلصين لله أكمل.

وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور  
الوجودية في عبادتهم وطاعتهم ومعرفته ومحبتهم وذلك من زكاهم، كما أن الزرع  
كلما نقي عنه الدغل كان أزكى له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه، قال تعالى:  
﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت]، وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص، كما فسرها بذلك  
أكابر السلف.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَانُ هُمْ﴾  
[النور: ٣٠]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا كله  
مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن من نفى عن الله النقائص كالموت والجهل والعجز والصمم  
والعمى والبكم، ولم يثبت له صفات وجودية كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر  
والكلام، بل زعم أن صفاته ليس إلا عدمية محضة، وأنه لا يوصف بأمر وجودي، فهذا  
لم يثبت له صفة كمال أصلاً، فضلاً عن أن يقال: أي الصفتين أفضل؟.

فإن التفضيل بين الشيتين فرع كون كل منهما له كمال ما، ثم ينظر أيهما أكمل،  
فأما إذا قدر أن كلاهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلاً.

وكذلك من أثبت له الأسماء دون الصفات فقال: إنه حي عليم قدير سميع بصير  
عزيز حكيم - ولكن هذه الأسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم ولا قدرة ولا سمع  
ولا بصر ولا عزة ولا حكمة.

فإذا قيل له: أي الاسمين أفضل؟ لم يجب بجواب صحيح. فإنه إن قال: العليم

أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلاً، أو قال: العزيز أكمل من القدير؛ لأنه مستلزم للقدرة من غير عكس.

قيل: إذا لم يكن للأسماء عندك معانٍ موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا قدرة، ليس إلا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات، والذات المجردة ليس فيها ما يمكن أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل، والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض، فإن ذلك مما يعلمه كل واحد، ولا يشتبه على عاقل.

ولذلك من جعل بعض صفاته بعضاً، أو جعل الصفة هي الموصوف مثل من قال: العلم هو القدرة، والعلم والقدرة هما العالم القادر، كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم.

أو قال: كلامه كله هو معنى واحد قائم بذاته، هو الأمر بكل مأمور، والخبر عن كل مخبر به، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وإن معنى آية الكرسي، وآية الدين واحد، وإن الأمر والنهي صفات نسبية للكلام ليست أنواعاً، بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي، وإنما تنوعت الإضافة.

فهذا الكلام الذي تقوله الكلاية، وإن كان جمهور العقلاء يقولون: إن مجرد تصويره كاف في العلم بفساده. فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل كلام الله بعضه على بعض ولا مماثلة بعضه لبعض، لأن الكلام على قولهم شيء واحد بالعين لا يتعدد ولا يتبعض فكيف يمكن أن يقال: هل بعضه أفضل من بعض أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم؟

وإن قالوا: التماثل والتفاضل يقع في العبارة الدالة عليه، قيل: تلك ليست كلاماً لله على أصله ولا عند أئمتهم، بل هي مخلوق من مخلوقاته، والتفاضل في المخلوقات لا إشكال فيه.

ومن قال من أتباعهم: إنها تسمى كلام الله حقيقة وإن اسم الكلام يقع عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالذات بالإشتراك اللفظي، فإنه لم يعقل حقيقة قولهم،

بل قوله هذا يفسد أصلهم. لأن أصل قولهم: أن الكلام لا يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره، إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز أن يكون كلام الله مخلوقاً قائماً بغيره مع كونه كلام الله.

وهذا أصل الجهمية والمعتزلة الذي خالفهم فيه الكلائية وسائر المثبتة.

وقالوا: إن المتكلم لا يكون متكلماً حتى يقوم به الكلام وكذلك في سائر الصفات قالوا: لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم، ولا يكون المرید مريداً حتى تقوم به الإرادة، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو مخلوق منفصل عنه بطل هذا الأصل.

وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة: أنهم يصفون الله بما لم يقيم به، بل بما قام بغيره، أو بما لم يوجد، ويقولون: هذه إضافات لا صفات فيقولون: هو رحيم ويرحم، والرحمة لا تقوم به بل هي مخلوقة، وهي نعمته.

ويقولون: هو يرضى ويغضب والرضا والغضب لا يقوم به، بل هو مخلوق، وهو ثوابه وعقابه.

ويقولون: هو متكلم ويتكلم، والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم بغيره، وقد يقولون: هو مرید ويرید، ثم قد يقولون: ليس الإرادة شيئاً موجوداً، وقد يقولون: إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق، وقد يقولون: أحدث إرادة لا في محل هذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم، وهو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات من السلف والأئمة، وأهل الفقه والحديث والتصوف والتفسير، وأصناف نظار المثبتة كالكلائية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم، وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات.

وسئل:

عمن يقرأ القرآن هل يقرأ (سورة الإخلاص) مرة أو ثلاثاً؟ وما السنة في ذلك؟.

فأجاب: إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة، هكذا قال العلماء، لثلاث يزداد على ما في المصحف، وأما إذا قرأها وحدها، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

الحمد لله نحمده ونستعينه<sup>(١)</sup> ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده، ورسوله ﷺ تسليماً.

### فصل

في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ② ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾ ③ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ④، والاسم ﴿الصَّمَدُ﴾ فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة، وليست كذلك، بل كلها صواب، والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد: هو الذي لا جوف له.

والثاني: أنه السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة.

والثاني: قول طائفة من السلف والخلف، وجمهور اللغويين، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدھا في كتب التفسير المسندة، وفي كتب السنة وغير ذلك [تؤيد المعنيين] وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم.

وتفسير ﴿الصَّمَدُ﴾ بأنه الذي لا جوف له، معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً، وعن ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد وسعيد بن جبیر، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وقتادة، وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال: «هو الذي لا حشوله».

وكذلك قال ابن مسعود: «هو الذي ليست له أحشاء».

وكذلك قال الشعبي: «هو الذي لا يأكل ولا يشرب».

وعن محمد بن كعب القرظي، وعكرمة: «هو الذي لا يخرج منه شيء».

وعن ميسرة قال: «هو المصمت».

(١) وفي النسختين المطبوعتين «الحمد لله، نستعينه...».

قال ابن قتيبة: «كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء، والصمت من هذا».

قلت: لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنين إن شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق، واللغة.

وفي الحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية [الذي] رواه أحمد في «المسند»<sup>(١)</sup> وغيره - من حديث أبي سعد الصغاني: حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب: «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: «انصب لنا ربك: فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة قال: الصمد: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس بشيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث.

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهذا أيضاً مروى عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً<sup>(٢)</sup>، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد الذي كمل في سؤده.

وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «هو السيد الذي انتهى سؤده».

وعن أبي إسحاق الكوفي، عن عكرمة: «الصمد: الذي ليس فوقه أحد» ويروى هذا عن علي.

وعن كعب الأحبار: «الذي لا يكافئه من خلقه أحد».

وعن السدي أيضاً: «هو المقصود إليه في الرغائب، والمستغاث به عند المصائب»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٤٥١/٥) وأحمد (١٣٤/٥) ورجح إرساله وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (رقم ٩٨) بسند حسن.

(٢) وسيأتي قريباً موقوفاً، إما المرفوع فذكره ابن الجوزي في «تفسيره» أن ابن عباس رواه عن رسول الله ﷺ، ولم أجد من خرجه - وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» موقوفاً في قصة سؤال نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن معاني كلمات القرآن واستشهاده بإشعار العرب، وقال: رواه الطبراني وفي إسناده جويبر وهو متروك (٣٠٨/٦).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٤٥/٢٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «هو المستغني عن كل أحد، المحتاج إليه كل أحد»<sup>(١)</sup>.  
وعن سعيد بن جبير أيضاً: «الكامل في جميع صفاته وأفعاله» وعن الربيع: «الذي لا تعتربه الآفات».

وعن مقاتل بن حيان: «الذي لا عيب له».

وعن ابن كيسان: «هو الذي لا يوصف بصفته أحد».

قال أبو بكر الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم».

وقال الزجاج: «هو الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده»<sup>(٢)</sup> وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما:

ألا بَكَرَ<sup>(٣)</sup> الناعي بخيري بني أسد      بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد  
وقال الآخر<sup>(٤)</sup>:

عَلَوْتُهُ بحسامي ثم قلت له      خذها حذيف! فانت السيد الصمد

وقال بعض أهل اللغة: «الصمد: هو السيد المقصود في الحوائج» تقول العرب: صمدت فلاناً أصمده - بكسر الميم - وأصمده - بضم الميم - صمداً - بسكون الميم - إذا قصدته، المصمود صمداً كالقبض بمعنى المقبوض، والنقض بمعنى المنقوض، ويقال بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس في حوائجهم قال طرفة<sup>(٥)</sup>:

وإن يَلْتَقِ الحيُّ الجميْعُ تلاقيني      إلى ذُرْوَةِ البيتِ الرِّفيعِ المُصمِّدِ

(١) ذكره القرطبي أيضاً.

(٢) وفي النسختين المطبوعتين «قصد قصده، وتأويل صمود كل شيء له أن في كل شيء أثر صنعته»، قلت وقد أنشدو...

(٣) أورده ابن الجوزي في تفسيره وفيه «لقد بكر»، والبيت لسيرة بن عمرو الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٣١٦/٢) و«سمط اللآلي» (ص ٩٣٢) و«تفسير الطبري» (٣٠/٣٤٧) والقرطبي (٢٠/٢٤٥) واللسان «صمد».

(٤) راجع «اللسان»، والقرطبي (٢٠/٢٤٥)، والبيت لعمر بن الأسلع العبسي.

(٥) ديوانه (٣٠) وفيه: (البيت الكريم).

وقال الجوهري: «صمده يصمده: إذا قصده» والصمد: - بالتحريك - السيد لأنه يصمد إليه<sup>(١)</sup> في الحوائج، ويقال بيت مصمد - بالتشديد - أي مقصود.

وقال الخطابي: «أصح الوجوه: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج لأن الإشتقاق يشهد له» فإن أصل الصمد: القصد، يقال: اصمد صمداً فلان: أي اقصد قصده، فالصمد: السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج.

وقال قتادة<sup>(٢)</sup>: «الصمد: الباقي بعد خلقه».

وقال مجاهد ومعمر: «هو الدائم».

وقد جعل الخطابي وأبو الفرج ابن الجوزي الأقوال فيه أربعة: هذين<sup>(٣)</sup> والذين تقدما، وسنين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية.

وعن مرة الهمداني: «هو الذي لا يبلى ولا يغنى».

وعنه أيضاً قال: «هو الذي يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن عطاء<sup>(٥)</sup>: «هو المتعالي عن الكون والفساد».

وعنه أيضاً قال: «الصمد: الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر» يريد قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

(١) وفي الطبعة الحسينية «لأنه يقصد في الحوائج».

(٢) وسيأتي قريباً.

(٣) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٢٦٨/٩)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥٧٠/٤): وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراد كثير من هذه الأقوال في تفسير «الصمد»، «وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ، وهو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه» وقال البيهقي نحو ذلك.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» عن الحسين بن الفضل (٢٤٥/٢٠).

(٥) واصل بن عطاء المعتزلي، أبو حذيفة المعروف بالغزال، متكلم، أديب، بليغ، درس على الحسن البصري ثم اعتزل عنه، وعمل على نشر مذهب الاعتزال، وكون فرقة تسمى الواصلية، من آثاره «معاني القرآن» توفي سنة ١٣١هـ.



وقال الحسين بن الفضل<sup>(١)</sup>: «هو الأزلي بلا ابتلاء».

وقال محمد بن علي الحكيم الترمذي<sup>(٢)</sup>: «هو الأول بلا عدد، والباقي بلا أمد، والقائم بلا عمد».

وقال أيضاً: «الصمد: الذي لا تدرکه الأبصار، ولا تحويه الأفكار، ولا تبلغه الأقطار، وكل شيء عنده بمقدار».

وقيل: «هو الذي جلّ عن شبه المصوّرين».

وقيل: «هو بمعنى نفي التجزي والتأليف عن ذاته» وهذا قول كثير من أهل الكلام.

وقيل: «هو الذي أيسر العقول من الاطلاع على كفيته». وكذلك قيل: «هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان، ولا يشير إليه البنان».

وقيل: «هو الذي لم يُعط خلقه من معرفته إلا الاسم والصفة».

وعن الجنيد قال: «الذي لم يجعل لأعدائه سبيلاً إلى معرفته»، ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها.

فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال: «حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى بن نفيع الحرشي، حدثنا عبد بن عيسى يعني أبا خلف الخزاز، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْضَّمْدُ﴾ قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ الذي يصمد إليه الناس والأشياء<sup>(٣)</sup> إذا نزل بهم كربة أو بلاء».

حدثنا أبو زرعة<sup>(٤)</sup>، حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي، حدثنا محمد بن

(١) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي، الكوفي، أبو علي النيسابوري، المفسر الأديب، إمام عصره في معاني القرآن توفي سنة (٢٨٢هـ).

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الحكيم الترمذي، متصوف معروف، درس في شبابه التفسير، والحديث، والفقه، ثم مال إلى التصوف. وكان ذا رحلة ومعرفة وله مصنفات كثيرة من أشهرها «ختم الأولياء» و«نوادير الأصول في معرفة أخبار الرسول» عاش في القرن الثالث وبداية القرن الرابع.

(٣) وفي الفتاوى تصمد إليه الأشياء.

(٤) وفي النسختين «شريك بن عبد العزيز» بدل سويد بن عبد العزيز ولم نجده في كتب الرجال =

سواء، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، قال: ﴿الضَّكْمُ﴾ الذي يصمد العباد إليه في حوائجهم.

حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا سفيان بن حسين، عن الحسن، قال: ﴿الضَّكْمُ﴾: الحي القيوم الذي لا زوال له.

حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، قال: ﴿الضَّكْمُ﴾ الباقي بعد خلقه وهو قول قتادة.

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن شقيق في قوله: ﴿الضَّكْمُ﴾ قال<sup>(١)</sup>: «السيد الذي قد انتهى سؤده».

حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الضَّكْمُ﴾ قال: السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، هو الله ﷻ، هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له، ليس له كفؤ، وليس كمثل شيء، سبحان الله الواحد القهار<sup>(٢)</sup>.

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني، حدثنا محمد بن سعيد ابن سابق، حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿الضَّكْمُ﴾ قال: «الذي لم يلد ولم يولد».

= المتوفرة لدينا، وقد ورد اسم سويد بن عبد العزيز ضمن شيوخ عبد الرحمن بن الضحاك. (١) ذكره البخاري في «صحيحه» من قول أبي وائل تعليقا - وقال الحافظ ابن حجر: وصله الفريابي من طريق الأعمش عنه، وجاء أيضاً من طريق عاصم عن أبي وائل بذكر ابن مسعود فيه. (فتح الباري ٧٤٠/٨).

(قلت): كذا أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢٩٩/١) وقال الألباني: إسناده حسن، وأخرجه أيضاً من قول أبي وائل من رواية ابن نمير عن وكيع، وابن إدريس عن الأعمش عنه، ورجال إسناده رجال الصحيحين وأخرجه الطبري (٣٤٦/٣٠) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩) من وجه آخر عن الأعمش عنه ورجالها أيضاً ثقات.

(٢) وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤٦/٣٠) عن علي بن داود القنطري، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨) من طريق عثمان بن سعيد الدارمي كلاهما عن أبي صالح به، وسنده لا بأس به، وذكره ابن كثير في «تفسيره» بدون سند (٥٧٠/٤).

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن عليه، عن أبي رجاء، عن عكرمة في قوله: ﴿الضَّمْدُ﴾ قال: «الذي لم يخرج منه شيء».

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مندل بن علي عن أبي روق عطية بن الحارث، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ الذي ليس له أحشاء.

وروي عن سعيد بن المسيب مثله.

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي، حدثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش، عن صالح بن حيان عن عبد الله ابن بريده عن أبيه، قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ الذي لا جوف له.

وروي عن عبد الله<sup>(١)</sup> بن عباس وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايات، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير، ومجاهد في إحدى الروايات، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير، ومجاهد في إحدى الروايات، والضحاك مثل ذلك.

حدثنا أبي، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ المصمت الذي لا جوف له<sup>(٢)</sup>.

حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿الضَّمْدُ﴾ قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ الذي لا يطعم.

حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي أنه قال: ﴿الضَّمْدُ﴾ الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب<sup>(٣)</sup>.

حدثنا أبي وأبو زرعة قالوا حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا محمد بن ميسر - يعني أبا سعد الصغاني - حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن

(١) ستأتي رواياتهم قريباً.

(٢)

إسناده صحيح.

(٣) وأخرجه الطبري (٣٤٥/٣٠) وسيأتي وابن عاصم في «السنة» (٣٠٢/١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩).

كعب في قوله: ﴿الْضَّكْمُ﴾ قال: ﴿الْضَّكْمُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا يموت، وليس شيء يموت إلا يورث وأن الله لا يموت، ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كَفُؤًا أَحَدٌ﴾ قال لم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثلته شيء<sup>(١)</sup>.

حدثنا علي بن الحسين<sup>(٢)</sup> حدثنا محمود بن خدّاش، حدثنا أبو سعد الصغاني، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية عن أبي بن كعب: «إن المشركين قالوا: انسب لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة».

حدثنا أبو زرعة، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كَفُؤًا أَحَدٌ﴾. قال: إن الله لا يكافئه من خلقه أحد.

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الجرجسي، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «إن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وجدي بن أخطب، فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الْضَّكْمُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِلِدْ﴾ فيخرج منه<sup>(٣)</sup> الولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء».

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره<sup>(٤)</sup>: حدثنا أحمد بن منيع المروزي، ومحمود بن خدّاش الطالقاني فذكر مثل إسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبي ﷺ «انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين عن يزيد، عن عكرمة أن المشركين قالوا: لرسول الله ﷺ: «أخبرنا عن صفة ربك ما هو؟ ومن أي شيء هو؟ فأنزل الله هذه السورة»<sup>(٥)</sup>.

ورواه أيضاً عن أبي العالية<sup>(٦)</sup> وعن جابر بن عبد الله، حدثنا سريج، حدثنا

(١) وقد مر برواية أحمد، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨) وانظر تخريجه هناك.

(٢) وفي النسختين «علي بن الحصين» بالصاد. وهو خطأ.

(٣) وفي النسختين «فيخرج ابنه الولد» وما أثبتناه من الفتاوى أصح.

(٤) راجع «تفسير الطبري» (٣٠/٣٤٢). (٥) راجع «الطبري» أيضاً (٣٠/٣٤٢ - ٣٤٣).

(٦) الطبري أيضاً (٣٠/٣٤٣).

إسماعيل<sup>(١)</sup> بن مجالد عن مجالد: عن الشعبي، عن جابر فذكره قال: وقيل: هو من سؤال اليهود.

حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثنا ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد قال: «أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه، وقال اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سأله عنه قال: يقول الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا له: صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده؟ كيف ساعده؟ وكيف ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم فأتاه جبريل فقال له: مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سأله فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾<sup>(٢)</sup> [الزمر: ٦٧].

وروى الحكم بن معبد في كتاب «الرد على الجهمية» قال حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثنا ضرار<sup>(٣)</sup>، عن أبان، عن أنس، قال: «أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النار، والسماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك؟ قال: فلم يجبهم النبي ﷺ فأتاه جبريل فقال يا محمد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup> اللَّهُ الصَّمَدُ<sup>(٢)</sup> لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ<sup>(٣)</sup>

(١) جاء في الأصل «حدثنا شريح، ثنا إسماعيل بن مجاهد عن الشعبي» والتصحيح من تفسير الطبري، فقد رواه عن محمد بن عوف حدثني شريح قال ثنا إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر به، وشريح تصحيف من سريح (بالمهملة وآخره جيم) وهو ابن يونس، ثقة، وإسماعيل بن مجالد صدوق، يخطئ، وأبوه مجالد بن سعيد ليس بالقوي، فالحديث ضعيف، وأخرجه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» راجع «مجمع الزوائد» (١٤٦/٧) كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٣٥/٤)، حدثنا محمد بن عوف، ثنا إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي، عن جابر فذكره، قال وقيل هو من سؤال اليهود...

(٢) والحديث ضعيف - لضعف ابن حميد، وكون محمد بن إسحاق مدلساً، وقد عنعن، وشيخه هو محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مدني، قال الذهبي في لسان الميزان (٢٦/٤) لا يعرف وفي الأصل عن محمد بن سعيد وصححناه من تفسير الطبري: راجع (٣٤٣/٣٠) ونسبه السيوطي في (الدر المشور) (٦٧١/٨) إلى ابن المنذر أيضاً.

(٣) وفي النسختين «ثني يحيى بن عبد الله، ثني ضرار».

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾ ليس له عروق يتشعب إليها، ﴿الْضَّكْمُ﴾ ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب<sup>(١)</sup> ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ ليس له ولد ولا والد ينسب إليه، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ليس شيء من خلقه يعدل مكانه، يمسك السموات والأرض أن تزولا الحديث<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الأسود، حدثنا محمد بن ربيعة، عن سلمة بن سابور، عن عطية عن ابن عباس قال: ﴿الْضَّكْمُ﴾: الذي ليس بأجوف<sup>(٣)</sup>.

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿الْضَّكْمُ﴾: المصمت الذي لا جوف له<sup>(٤)</sup>.

حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن سفيان<sup>(٥)</sup> عن منصور مثله سواء.

حدثنا الحارث، حدثنا الحسن، حدثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا الربيع بن مسلم<sup>(٦)</sup> عن الحسن قال: ﴿الْضَّكْمُ﴾: الذي لا جوف له<sup>(٧)</sup>.

وبهذا الإسناد<sup>(٨)</sup> عن إبراهيم بن ميسرة قال: «أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن ﴿الْضَّكْمُ﴾ فقال: الذي لا جوف له»<sup>(٩)</sup>.

(١) هناك سقط في النسختين بقدر سطر كامل بعد قوله «ولا يشرب» ففيهما «ولا يشرب ليس شيء يعتدل مكانه...».

(٢) والحديث نسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٠/٨) إلى أبي الشيخ في العظمة وأبي بكر السمرقندي في فضائل «قل هو الله أحد». وهو في العظمة (٨٦).

(٣) راجع «تفسير الطبري» (٣٠٠/٣٤٤).

(٤) وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في «السنن» (٣٠١/١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨)، مر برواية ابن أبي حاتم وهو عند الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/٣٤٤).

(٥) وفي النسختين «ثنا وكيع عن منصور سواء» وهو خطأ لأن وكيعاً لم يلق منصوراً.

(٦) وفي النسختين «الربيع بن سلمة» وهو خطأ.

(٧) وهو في «تفسير الطبري» (٣٠٠/٣٤٥) وأخرجه ابن أبي عاصم بسند صحيح أيضاً (٣٠١/١).

(٨) وفي النسختين «وهذا الإسناد».

(٩) وراجع «الطبري» (٣٠٠/٣٤٥) وأخرجه ابن أبي عاصم عن إبراهيم بن ميسرة عن سعيد بن جبير، وقال الألباني: سنده ضعيف (٣٠٢/١).

حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: ﴿الصَّكْمُ﴾: الذي لا يطعم الطعام<sup>(١)</sup>.

ورواه يعقوب عن هشيم، عن إسماعيل عنه قال: «لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب».

حدثنا ابن بشار<sup>(٢)</sup> وزيد بن أخزم قالوا: حدثنا ابن داود، عن المستقيم بن عبد الملك، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿الصَّكْمُ﴾: الذي لا حشوله<sup>(٣)</sup>.

حدثنا الحسين، حدثنا أبو معاذ، حدثنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول: ﴿الصَّكْمُ﴾ الذي لا جوف له<sup>(٤)</sup>.

وروى عن ابن بريدة فيه حديثاً مرفوعاً<sup>(٥)</sup> لكنه ضعيف.

قال: وقال آخرون هو الذي لا يخرج منه شيء.

حدثنا يعقوب بن أبي عليه، عن أبي رجاء، سمعت عكرمة قال في قوله: ﴿الصَّكْمُ﴾ لم يخرج منه شيء: لم يلد ولم يولد<sup>(٦)</sup>.

حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي رجاء محمد بن يوسف<sup>(٧)</sup>، عن عكرمة قال: ﴿الصَّكْمُ﴾: الذي لا يخرج منه شيء.

وقال آخرون: لم يلد ولم يولد، وذكر حديث<sup>(٨)</sup> أبي بن كعب الذي رواه ابن أبي حاتم، والذي فيه: أنه سبحانه لا يموت ولا يورث.

قال: وقال آخرون: هو السيد الذي انتهى في سؤده.

- (١) وهو في «تفسير الطبري» (٣٤٥/٣٠) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.
- (٢) وفي النسختين (بشار).
- (٣) والحديث عند الطبري (٣٤٥/٣٠) وأخرجه ابن أبي عاصم (٣٠١/١).
- (٤) وأخرجه ابن أبي عاصم بإسناد جيد (٣٠٣/١).
- (٥) راجع (الطبري) (٣٤٥/٣٠) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.
- (٦) راجع «الطبري» (٣٤٥/٣٠) وراجع «مسلم» (٢٠١٦/٣).
- (٧) كذا في تفسير الطبري «وصحته «محمد بن سيف» وهكذا ورد اسمه في «تهذيب التهذيب» فيمن روى عنهم شعبة، وراجع «الكنى» للدولابي (١٧٣/١).
- (٨) انظر «تفسير الطبري» (٣٤٦/٣٠).

قال: وحدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، قال: ﴿أَلْصَكْمُ﴾ هو السيد الذي انتهى في سؤده<sup>(١)</sup>.

حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى قالوا: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: ﴿أَلْصَكْمُ﴾: السيد الذي انتهى في سؤده.

حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل مثله.

حدثنا أبو صالح: حدثنا معاوية، عن علي بن عباس في قوله: ﴿أَلْصَكْمُ﴾ قال: السيد الذي قد كمل في سؤده، وذكر مثل الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم كما تقدم.

قلت: الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً: قول من قال: إن ﴿أَلْصَكْمُ﴾ الذي لا جوف له، وقول من قال أنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل للثاني، ولفظ ﴿أَلْصَكْمُ﴾ يقال على ما لا جوف له في اللغة.

قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة صمد، الأدميون جوف.

وفي حديث آدم<sup>(٢)</sup>: أن إبليس قال عنه: أنه أجوف ليس بصمد.

وقال الجوهري: «الصمد» لغة في المصمت<sup>(٣)</sup> هو الذي لا جوف له. وقال الصماد: عفاصُ القارورة، وقال: ﴿أَلْصَكْمُ﴾ المكان المرتفع الغليظ، قال أبو النجم<sup>(٤)</sup>:

يغادر شعر الصمد كظهر الأجل.

وأصل هذه المادة: الجمع والقوة: ومنه يقال يَصْمُدُ المال: أي يجمعه، وكذلك

(١) راجع المصدر المذكور (٣٤٦/٣٠) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.

(٢) جاء في حديث طويل أخرجه ابن جرير الطبري (٢٠٣/١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٥٧) عن ابن مسعود وابن عباس - وسنده ضعيف.

(٣) راجع اللسان «صمد».

(٤) أبو النجم الراجز واسمه الفضل بن قدامة العجلي، من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر، توفي سنة ١٣٠هـ، انظر «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٤٠٠ - ٤٠٤)، وشطره في اللسان «صمد».



«السيد» أصله سَيُودٌ اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما قيل ميت وأصله مَيُوتٌ والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع، واللون الأسود هو الجامع للبصر. وقد قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال أكثر السلف ﴿وَسَيِّدًا﴾ حليماً<sup>(١)</sup>، وكذلك يروى عن الحسن وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وأبي الشعثاء<sup>(٢)</sup> والربيع بن أنس، ومقاتل.

وقال: أبو روق عن الضحاك: أنه الحسن<sup>(٣)</sup> الخلق.

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التَّقِيُّ<sup>(٤)</sup> ولا يسودُّ الرجلُ الناسَ حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتاً.

وقال عبد الله بن عمر: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية! فقيل له: ولا أبو بكر، ولا عمر؟ قال: كان أبو بكر وعمر خيراً منه، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية<sup>(٥)</sup>! قال أحمد بن حنبل: يعني به الحليم، أو قال: الكريم<sup>(٦)</sup> ولهذا قيل:

إذا شئت يوماً أن تسود قبيلة  
فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف (السيد) بأنه سيد قومه في الدين.

(١) كذا جاء حليماً (باللام) وهو الصواب، وذكر ابن الجوزي (٣٨٣/١) ثمانية أقوال في معنى السيد منها: الحليم التقى، روى عن ابن عباس وقال به الضحاك، ومنها الحكيم (بالكاف) ونسبه للحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وأبي الشعثاء، والربيع ومقاتل، ولم يذكر الطبري في تفسيره عن أحد أنه فسر السيد بالحكيم ولا نقل السيوطي ذلك عن أحد، راجع «الطبري» (٢٥٤/٣) و«الدر المثور» (١٨٩/٢) وابن كثير (٣٦١/١) واللسان «سود».

(٢) وفي النسختين «أبي الشعثاء بن أنس» وهو خطأ.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٣٨٣/١) وأخرجه أحمد في «الزهد» (٩٠) والخرائطي في «مكارم الأخلاق» قاله السيوطي في «الدر المثور» (١٩٠/٢)، وسنده لا بأس به. أبو روق هو عطية بن الحارث الهمداني، الكوفي، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٥٤/٣) بسند ضعيف.

(٥) ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٤١٨/٢) وقال: قيل أراد: أسخى وأعطى للمال، وقيل أحلم منه والأثر عند ابن عساکر في ترجمة معاوية.

(٦) وفي النسختين «الحلم» أو قال: «الكرم».

وقال ابن زيد<sup>(١)</sup>: هو الشريف.

وقال الزجاج: الذي يفوق قومه في الخير.

وقال ابن الأنباري: السيد هنا الرئيس، والإمام في الخير.

وعن ابن عباس ومجاهد<sup>(٢)</sup>: هو الكريم على ربه.

وعن سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم<sup>(٣)</sup>.

وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة: صماد، قال الجوهري: العفاص: جلد يلبسه رأس القارورة، وأما الذي يدخل في فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة: شددت عليها العفاص.

(قلت): وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في اللقطة: «ثم أعرف عفاصها ووكاءها»<sup>(٤)</sup>. والمراد بالعفاص<sup>(٥)</sup>: ما يكون فيه الدراهم كالحخوقة التي تربط فيها الدراهم، والوكاء<sup>(٦)</sup>: مثل الخيط الذي يربط به، وهذا من جنس عفاص القارورة، ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة، فيها الجمع والقوة، ويقال طعام عفص، وفيه عفوصة: أي تقبُّض، ومنه العفص الذي يتخذ منه الحبر.

وقد قال الجوهري: هو مؤلَّد ليس من كلام أهل البادية، وهذا لا يضُرُّ، لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم، لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صمام، فإن هذه المادية فيها معنى الجمع والسد.

قال الجوهري: صمام القارورة: سداها، والحجر الأصمُّ: الصلب المصمت،

(١) نقل هذه الأقوال ابن الجوزي في «تفسيره» (٣٨٣/١) وراجع اللسان «سود».

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٥٤/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير وفي أسناده بقية وفيه كلام.

(٤) أخرجه البخاري (٩٣/٣ - ٩٥) وأخرجه مالك في «الموطأ» (٧٥٧) وأحمد في «مسنده» (٤/١١٦ - ١١٧).

(٥) قال ابن الأثير في «النهاية» العفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة من جلد أو خرقه أو غير ذلك: من العفص: وهو الثنى والعطف، وبه سمي الجلد الذي يجعل على رأس القارورة عفاصاً، وراجع اللسان «عفص».

(٦) راجع اللسان «وكى».

والرجل الأصمّ: هو الذي لا يسمع، لانسداد سمعه، والرجل الصّمّة: الشجاع، والصّمّة: الذّكر من الحيات، وصميم الشيء: خالصه، حيث لم يدخل إليه ما يفرقه ويضعفه، ويقال صميم الحر، وصميم البرد، وفلان من صميم قومه، والصمصم: الصارم القاطع، الذي لا ينثني، وصمّم في السير وغيره أي مضى، ورجل صمصم<sup>(١)</sup>: أي غليظ.

ومنه في الاشتقاق الأكبر الصوم، فإن الصوم هو الإمساك.

قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم، لأن الإمساك فيه اجتماع، والصائم لا يدخل جوفه شيء، ويقال صامّ الفرس إذا قام في غير اعتلاف، قال النابغة<sup>(٢)</sup>:

حَيْلٌ صِيَامٌ وَحَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ      تَحْتَ الْعِجَاجِ، وَأُخْرَى تَعْلِكُ اللَّجْمَا

وكذلك السد والسداد. وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع، والجمع فيه القوة، فإن الشيء كلما اجتمع بعضه إلى بعض، ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلل، ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع: صمد، لقوته وتماسكه، واجتماع أجزائه والرجل الصمد هو السيد المصمود، أي المقصود، يقال قصدته، وقصدت له، وقصدت إليه، وكذلك هو مصمود، ومصمود له وإليه<sup>(٣)</sup>، والناس إنما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها، وإنما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعاً قوياً ثابتاً، وهو السيد الكريم، بخلاف من يكون هلوياً جزوعاً يتفرق ويعلق<sup>(٤)</sup> ويتمزق من كثرة حوائجهم ونقلها، فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه في حوائجهم.

فهم إنما سموا السيد من الناس صمداً، لما فيه من المعنى الذي لأجله يقصده الناس في حوائجهم، فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضافياً فقط - كلفظ القرب

(١) كذا في النسختين، وهو الصواب، وفي الفتاوى: رجل صمّ، وفي اللسان: رجل صمصم، وصمصم، وصمصام، وصمصامة، وصمصم، وصمصم، ومُصمّم، قال أبو ليبيد: الصمصم (بالكسر) الغليظ من الرجال، وكذا قال ابن الأثير في «النهاية». والصمصم من أسماء الأسد والصمة: الرجل الشجاع.

(٢) ديوان النابغة (٢٤٠) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٦٢) والبيت في «اللسان» أيضاً «صوم».

(٣) وفي النسختين «مقصود له وإليه». (٤) وفي النسختين «يعلق».

والبعد - بل هو معنى قائم بالسيد، لأجله يقصده الناس، والسيد من السؤدد والسواد، وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الأكبر فإن العرب تعاقب بين حرف العلة، والحرف المضاعف كما يقولون: تقضى البازي، وتقضض. والساد<sup>(١)</sup> هو الذي سد غيره، فلا يبقى فيه خلو، ومنه سداد القارورة، وسداد الثغر - بالكسر فيهما - وهو ما يسد ذلك، ومنه السداد بالفتح: وهو الصواب ومنه القول السديد، قال الله تعالى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

قالوا: قصداً حقاً، وعن ابن عباس: صواباً، وعن قتادة ومقاتل: عدلاً، وعن السدي: مستقيماً، وكل هذه الأقوال<sup>(٢)</sup> صحيح. فإن القول السديد هو المطابق الموافق، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لمخبره، لا يزيد ولا ينقص. وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل.

قال الجوهري: التسديد: التوفيق للسداد، وهو الصواب، والقصد في القول والعمل، ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد والقصد، والمُسَدَّد: المُقْموم، وسَدَّد رمحه: [قومه] وأمر سديد وأسد أي قاصد، وقد استد الشيء: استقام، قال الشاعر:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ      فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي<sup>(٣)</sup>

وقال الأصمعي: اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء، وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدل على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة، والقصد: العدل كما أنه السداد، والصواب، وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص، وهذا هو الجامع المطابق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

أي السبيل القصد، وهو السبيل العدل: أي إليه تنتهي السبيل العادلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل].

(١) راجع اللسان «سد».

(٢) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في «تفسيره» (٤٢٧/٦). وقول ابن عباس نسبة السيوطي في «الدر المنثور» (٦٦٧/٦) إلى الطستي في مسائله. وقول قتادة أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥٣/٣٣) ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٦٦٨/٦) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم أيضاً.

(٣) الشعر لمعن بن أوس في ديوانه (٣٤)، لسان العرب (٢٠٨/٣) مادة (سد).

أي الهدى إلينا هذا أصح الأقوال في الآيتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر].

ومنه في الاشتقاق الأوسط: الصدق. فإن حروفه حروف القصد، فمنه الصدق في الحديث لمطابقتها مخبره، كما قيل في السداد<sup>(١)</sup> والصدق<sup>(٢)</sup> بالفتح: الصلب من الرماح، ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج، والصندوق واحد الصناديق فإنه يجمع ما يوضع فيه.

ومما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه إذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان:

أحدهما: إن بين القولين تناسباً في اللفظ والمعنى، سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا، وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر، فإن المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى كما يقال: هذا الماء من هذا الماء، وهذا الكلام من هذا الكلام، وعلى هذا فإذا قيل: إن الفعل مشتق من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، كان كلا القولين صحيحاً، وهذا هو الاشتقاق الذي يقوم عليه دليل التصريف.

وأما المعنى الثاني في الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلاً للآخر، فهذا إذا عني به أن أحدهما تُكَلِّم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في أكثر المواضع<sup>(٣)</sup>، وإن عني به أن أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر.

والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها، والأوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب، والأكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف، وفي الجنس في الباقي، كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق، فإذا قيل حزر وعزر وازر، فإن الجميع

(١) وفي النسختين «كما قيل في السديد».

(٢) راجع اللسان «صدق» وفيه «الصدق» بالفتح) الصلب من الرماح وغيرها ورمح صدق: مستو، وكذلك سيف صدق».

(٣) وفي النسختين «في الأكثر من المواضع».

فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاي، في أن الثلاثة حروف حلقيه، وعلى هذا فإذا قيل: الصمد بمعنى المصمت، وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح، فإن الدال أخت التاء، فإن الصمت<sup>(١)</sup> السكوت، وهو إمساك، وإطباق للقم عن الكلام.

قال أبو عبيد: المصمت<sup>(٢)</sup>: الذي لا جوف له، وقد أصمته أنا، وباب مصمت قد أبهم إغلاقه، والمصمت من الخيل، البهيم<sup>(٣)</sup>: أي لا يخالط لونه لون آخر، ومنه قول ابن عباس<sup>(٤)</sup>: إنما حُرِّم من الحرير المصمت، فالمصمد والمصمت متفقان في الاشتقاق الأكبر، وليست الدال منقلبة على التاء، بل الدال أقوى، والمصمد أكمل في معناه من المصمت، وكلما قَوِيَ الحرف كان معناه أقوى، فإن لغة العرب في غاية الإحكام والتناسب، ولهذا كان الصمت إمساكاً عن الكلام مع إمكانه، والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فإنه إنما استعمل فيما لا تفرق فيه، كالصمد والسيد والصمد من الأرض وصماد القارورة، ونحو ذلك، فليس في هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من لفظ الصمد، فإن فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف، والمعاني المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل.

والمقصود هنا: أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده، وإنما يستعمل في غير الله في النفي، قال أهل اللغة: تقول: لا أحد في الدار، ولا تقول: فيها أحد، ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [٤٧] [المعارج]. وكقوله: ﴿لَسْتَ مِنْ أَكْثَرِ مِنَ الْأَنْسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، وفي الإضافة كقوله: ﴿فَأَبَعْتُمْ أَحَدَكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢].

وأما اسم ﴿الصَّكْمُ﴾ فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين، كما تقدم، فلم يقل: الله صمد، بل قال: ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ [١] فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض

(١) وفي النسختين «فإن الصمت السكوت». (٢) راجع اللسان «صمت».

(٣) وفي النسختين «البهيم» وهو خطأ، راجع اللسان «صمت».

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٩/٤)، وأحمد في «المسند» (٢١٨/١، ٣١٣، ٣٢١).

الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه، فإنه يقبل التفرق والتجزئة، وهو أيضاً محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ، ويتفرق، ويتقسم، وينفصل بعضه من بعض، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، كما قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

استعملها هنا في النفي أي ليس شيء من الأشياء كفواً له في شيء من الأشياء لأنه أحد.

وقال رجل للنبي ﷺ: أنت سيدنا فقال<sup>(١)</sup>: «السيد الله».

ودل قوله: «الأحد، الصمد» على أنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي قراءة<sup>(٢)</sup> الأعمش وغيره ولا يطعم بالفتح.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات].

ومن مخلوقاته الملائكة، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون، فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته. فلهذا فسر بعض السلف الصمد: بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب.

والصمد: المصمد الذي لا جوف له، فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد.

(١) أبو داود (١٥٤/٥) وأحمد في «مسنده» (٢٤/٤ - ٢٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٩) وسنده صحيح.

(٢) راجع «تفسير ابن الجوزي» (١١/٣).

ولذلك قال من قال من السلف: هو الذي لا يخرج منه شيء. وليس مرادهم أنه لا يتكلم، وإن كان يقال في الكلام إنه خرج منه، كما قال في الحديث: «ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه»<sup>(١)</sup> يعني القرآن.

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة: إن هذا لم يخرج من إل<sup>(٢)</sup>.

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه، ويبلغ إلى غيره، ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية<sup>(٣)</sup> ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين أن تفارق الصفة محلها، وتنتقل إلى غير محلها، فكيف بصفات الخالق جل جلاله، وقد قال تعالى في كلام المخلوقين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم وسمعت منه، ليس خروجها من فيه، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل إلى غيره، فخرج كل شيء بحسبه، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كلُّ أحد الضوء، وهو باق على حاله لم ينقص، فقول من قال من السلف: الصمد: هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه.

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً ولفظه: ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وأن البر ليذر على رأس العبد ما دام في صلاته، وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه، يعني القرآن. وفي رواية أحمد «بأفضل مما خرج منه» «المسند» (٢٦٨/٥). وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ويكره بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره، وقد روى هذا الحديث عن زيد بن أرقط عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ، وهو مرسل... ثم ذكروا لفظه: «أنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه، يعني القرآن» (١٧٦/٥ - ١٧٧) وأخرجه أحمد في «الزهة» (٣٥). ووصله الحاكم فقال عن جبير بن نفير عن أبي ذر عن النبي ﷺ (٥٥٥/١) وصححه وأقره الذهبي، وذكر الألباني الحديثين في «ضعيف الجامع الصغير» (رقم ٢٠٤١، ٤٩٩٥).

(٢) ذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢٢٩/٣ - ٢٣٠) وراجع «النهاية» لابن الأثير (٦١/١).

(٣) أتباع جهم بن صفوان (١٢٨هـ): قال بالإيجاب والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفتيان، وقال لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيهاً. راجع «الفرق بين الفرق» للبغدادي (١٩٩) «والممل والنحل» للشهرستاني (١٠٩/١).



ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين، وما كان من المتولد عيناً قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضاً قائماً بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بد له من محل يقول به، فالأول نفاه بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، فإن الأحد هو الذي لا كفوله ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فنفي سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، وبأنه خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق له، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني: نفاه بكونه سبحانه الصمد، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر، وإلى أن يخرج منهما شيء، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى، فإنه ﴿أَحَدٌ﴾، فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً، وهو «صمد» لا يخرج منه شيء فكل واحد من كونه أحداً، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً، ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأخرى.

وكما أن التوالد في الحيوان لا يكون إلا من أصلين - سواء كان الأصلان من جنس الولد، وهو الحيوان المتوالد أو من غير جنسه، وهو المتولد - فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين، سواء كانا خشبتين، أو كان حجراً وحديداً، أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿قَالُمُورِبَتٍ قَدْحًا﴾ [العاديات].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمْتُمَا لِلْمُقَوِّينَ ﴿٧٣﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٥﴾ [يس].

قال غير واحد من المفسرين<sup>(١)</sup>: هما شجرتان يقال لإحدهما، المرخ، والأخرى: العفار، فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى، وتقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، وقال بعض الناس في كل شجرة نار إلا العناب، ﴿فَإِذَا أَنشَرْنَا مِنْهُ ثُوقُودًا﴾ [يس: ٨٠] فذلك زنادهم.

وقد قال أهل اللغة<sup>(٢)</sup>: الجوهرى وغيره: الزند العود الذي يقدح به النار، وهو الأعلى، والزنده السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل زندان.

وقال أهل الخبرة بهذا: إنهم يسحقون الثقب الذي في الأنثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه، فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة، وسحق الأنثى بالذكر وقدهما به يقتضي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان في أنثاه بقدح، وحك فرجها بفرجه، يقوي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى، ويتولد منهما الولد، ويقال: علقت النار في المحل الذي يقدح عليه، الذي هو كالرحم للولد، وهو الحراق والصوفان، ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره، كما علقت المرأة من الرجل، وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني، والنار ليست من جنس الزنادين، بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين، فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان وبهيمة الأنعام، وغير ذلك مما يخلق من أبوين، ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل، وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الإنسان، وكالفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب.

### فصل

والمقصود هنا: أن التولد لا بد له من أصلين، وإن ظن ظان أن نفس الهواء

(١) راجع ابن الجوزي (٤٢/٧) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٣٦٨) «تفسير ابن كثير» (٣/٥٨٢) القرطبي (٥٩/١٥ - ٦٠).

(٢) راجع اللسان «زند».

الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته، من غير مادة تخرج منهما تنقلب ناراً فقد غلط، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منهما مادة بالحك، ولا تخرج النار بمجرد الحك.

وأيضاً فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وإنما ينزل الثقيل، فلولا أن هناك جزءاً ثقيلاً من الزناد: الحديد والحجر لما نزلت النار، ولو كان الهواء وحده انقلب ناراً لم ينزل، لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط، لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة ناراً قد ينقلب الهواء القريب منها ناراً، إما دخاناً وإما لهيباً.

والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين، كما خلق آدم من التراب الماء، وإلا فالتراب المحض الذي لم يخلط به ماء لا يخلق منه شيء، لا حيوان ولا نبات، والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضاً، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها، والجيب هو الطوق الذي في العنق، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيياً، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه: هو ذلك الجيب المعروف في اللغة.

وذكر أبو الفرج<sup>(١)</sup> وغيره قولين: هل كانت النفخة في جيب الدرع؟ أو في الفرج؟ فإن من قال بالأول، قال: في فرج درعها، وإن من قال هو مخرج الولد قال أنها كناية عن غير مذكور، لأنه إنما نفخ في درعها، لا في فرجها وهذا ليس بشيء، بل هو عدول عن صريح القرآن، وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع، فمراده أنه ﷺ لم يكشف

(١) انظر تفسير (٣٨٥/٥) وانظر تفسير الطبري (١٧٢/٢٨).

بدنها، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة، فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها.

والمقصود إنما هو النفخ في الفرج، كما أخبر الله به في آيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف.

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين، من نفخ جبريل ومن أمه مريم، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغمة، فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد، ولا كانت مريم حملت، وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ [مريم].

فلما نفخ فيها جبريل حملت به، ولهذا قيل في المسيح ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، باعتبار هذا النفخ، وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه، وهو جبريل، هو الروح الذي خاطبها، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، فقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، أو ﴿فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢].

أي من هذا الروح الذي هو جبريل، وعيسى روح من هذا الروح، فهو روح من الله، بهذا الاعتبار، ومن لابتداء الغاية.

والمقصود هنا: أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التي بينهما إذا التقيا كان بينهما مادة فتقلب، وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزاءها، وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد، أو الشجر بالشجر، كالمخ والعفار، فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزاءهما، ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير ناراً، والزندان كلما قدح أحدهما

بالآخر نقصت أجزاؤها بقوة الحك، فهذه النار استحالَت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر.

وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء، كالشمس والنار، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه، كالنار التي في رأس المصباح، وهذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب ناراً كالحطب والدهن، ويستحيل الهواء أيضاً ناراً، ولا ينقلب الهواء أيضاً ناراً إلا بنقص المادة التي اشتعلت، أو نقص الزندين، وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع: الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس، أو من النار، فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه، لا بد له من محل يقوم به ويكون قابلاً له، فلا بد في الشعاع من جسم مضيء، ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع.

وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا وضعت في النار، أو وضع فيها حطب، فإن النار تحيل أولاً المادة التي هي الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب ناراً، وإنما ينقلب بعد نقص المادة، وكذلك الريح التي تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشعل النار في الحطب، ومثل ما ينفخ في الكبر وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً، وما في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له، وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار، فإن اللهب هو الهواء انقلب ناراً، مثل ما في ذبالة المصباح، ولهذا إذا طفئت صار دخاناً، وهو هواء مختلط بنار كالبخار، وهو هواء مختلط بماء، والغبار هواء مختلط بتراب، وقد يسمى البخار دخاناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

قال المفسرون: بخار الماء، كما جاءت الآثار: «إن الله خلق السموات من بخار الماء»<sup>(١)</sup>.

وهو الدخان، فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار، ثم قد لا يكون فيه ماء،

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٢٤٥/٧) وأخرجه الطبري عن ابن إسحاق من قوله (١/١٩٣) وروي عن ابن عباس وابن مسعود موقوفاً بنحوه (١/١٩٤) وراجع «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٨٢).

وهو الدخان الصرف، وقد يكون فيه ماء، فهو دخان، وهو بخار كبخار القدر، وقد يسمى الدخان بخاراً، فيقال لمن استجمر بالطيب: تبخر، وإن كان لا رطوبة هنا، بل دخان الطيب سمي بخاراً.

قال الجوهري: بخار الماء<sup>(١)</sup>: ما يرتفع منه كالدخان، والبخور - بالفتح - ما يتبخر به، لكن إنما يصير الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً، كالحطب والدهن، فلم تتولد النار إلا من مادة، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة.

### فصل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ «التولد» من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصليين، ومن انفصال جزء من الأصل، وإذا قيل في الشيع والري: أنه متولد، أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض: أنه متولد، فلا بد في جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصليين، لكن العرض يحتاج إلى محل، لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضاً، بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً، كما تنقلب إلى نوع آخر، كانقلاب المنى علقه<sup>(٢)</sup> ثم مضغة، وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات.

وأما ما كان من أصل واحد: كخلق حواء من الضلع القصرى لآدم، وهو وإن كان مخلوقاً من مادة أخذت من آدم، فلا يسمى هذا تولداً، ولهذا لا يقال: أن آدم ولد حواء، ولا يقال أنه أبو حواء، بل خلق الله حواء من آدم، كما خلق آدم من الطين.

وأما المسيح فيقال: أنه ولدته مريم، ويقال: المسيح ابن مريم فكان المسيح جزءاً من مريم، وخلق بعد نفخ الروح في فرج مريم، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْخَيْرِ أَلْفٌ مِائَةٌ﴾ [التحریم].

وفي الأخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم، كما خلق آدم من المادة الأرضية،

(٢) وفي النسختين «كانقلاب الماء علقه».

(١) راجع اللسان «بخر».

وهي الماء والتراب والريح الذي أبيسه حتى صار صلصالاً، فلهذا لا يقال أن آدم ولد حواء، ولا آدم ولده التراب، ويقال في المسيح، ولدته مريم فإنه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل، وقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ﴾ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَعُلْمًا رَزَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم] إلى آخر القصة.

فهي إنما حملت به بعد النفخ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الأدميين، ففرق بين النفخ للحمل، وبين النفخ لروح الحياة.

فتبين أن ما يقال إنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد، ولا يكون إلا من أصلين، والرب تعالى صمد، فيمتنع أن يخرج منه شيء، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة، فيمتنع أن يكون له ولد.

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال: تولد الشعاع [عن الشمس]، وتولد العلم عن الفكر، وتولد الشيع عن الأكل، وتولدت الحرارة عن الحركة، ونحو ذلك، فهذا ليس من تولد الأعيان، مع أن هذا لا بُدُّ له من محل، ولا بد له من أصلين، ولهذا كان قول النصارى أن المسيح ابن الله - تعالى عن ذلك - مستلزماً لأن يقولوا: أن مريم صاحبة الله، فيجعلون له زوجة وصاحبة، كما جعلوا له ولداً<sup>(١)</sup> وبأي معنى فسروا كونه ابنه، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى، والأدلة الموجبة تنزيهه عن الصحابة، توجب تنزيهه عن الولد، فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازماً لهم، وقد بسط هذا في الرد على النصارى.

## فصل (٢)

وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ۗ﴾، وبقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦﴾ وَوَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصفات] وقوله:

(١) وفي النسختين «كما جعلوا له ولداً بأي معنى».

(٢) في الطبعة المنيرية «فصل في قول اليهود والنصارى في الرب جلّ وعزّ».

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ عِلْمَ رَبِّهِمْ فَغَوَّاهُمْ عَنْ عَمَلِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنسَوْا أَصْحَابَهُمْ فَسَمَوْا سَمَاوَاتٍ مِّن مِّن لَّهُنَّ سُبُوحًا مُّجِيدًا ۚ وَمَن يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ لَشَدِيدٌ عَلَيْهُ ۚ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ أَبْصَرُ ۙ﴾ [الأنعام: ١٦١].  
 يعلم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية<sup>(١)</sup> كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۙ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال السدي: قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل إن ولدك بكري من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ أخرجوا كل مختون من بني إسرائيل<sup>(٢)</sup>.

وقد قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۙ﴾ [الفرقان: ٢].  
 الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۙ﴾ [الأنبياء: ١٧].  
 لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون [الأنبياء: ١٧] يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون [الأنبياء: ١٨] ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين [الأنبياء: ٢٠] وقال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِ آلِهَةً تَنبَغُونَ إِلَٰهًا ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَحْدَهُ فَاذْهَبُوا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢١].  
 إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُنَّ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۙ﴾ [النحل: ٢٢].  
 هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا [النحل: ٢١] قل لو كان معه ماله كما يقولون إذا لابتغوا إلى نبي

(١) في النسختين «جميع أنواع الاتخاذات لا اصطفاءه».

(٢) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٣١٨/٢) والخبر في «القرطبي» (١٢٠/٦) وابن كثير (٣٥/٢).

ونسبه لابن أبي حاتم وابن جرير وراجع «تفسير الطبري» (١٦٤/٦).



الْمَرْثِ سَيْبًا ﴿٤٦﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَاكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿٤٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٩﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٥٠﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥١﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٥٣﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٤﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٥٥﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٥٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٨﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾ [الصفات]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَلَكَ وَالْمَرْثَى ﴿٦١﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى الْآخِرَةَ ﴿٦٣﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٤﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٥﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٦﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٧﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٨﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٦٩﴾ وَكَلِمَةَ الْآخِرَةَ ﴿٧٠﴾﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

قال بعض المفسرين: ﴿جُزْءًا﴾ أي نصيباً وبعضاً، وقال بعضهم: جعلوا لله نصيباً من الولد، وعن قتادة<sup>(١)</sup> ومقاتل: عدلاً، وكلا القولين صحيح، فإنهم يجعلون له ولداً، والولد يشبه أباه، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ [الزخرف: ١٧]. أي البنات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى﴾ [النحل: ٥٨]، فقد جعلوها للرحمن مثلاً، وجعلوا له من عباده جزءاً، فإن الولد جزء من الوالد، كما تقدم.

قال: «إنما فاطمة بضعة مني»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُمْ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَدَّلُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، قال الكلبي<sup>(٣)</sup>: نزلت في الزنادقة قالوا: إن الله وإبليس شريكان، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب.

(١) راجع الطبري (٥٦/٢٥) وانظر «الدر المنثور» (٣٦٩/٧).

(٢) البخاري (٤/٢١٠، ٢١٢، ٢١٩)، ومسلم (١٩٠٣/٢).

(٣) راجع «أسباب النزول» للواحدي (٢١٦) وراجع ابن الجوزي (٩٦/٣) والقرطبي (٥٣/٧) والبعقوي (١٦٦/٢).

وأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصفات: ١٥٨].

فقيل هو قولهم<sup>(١)</sup>: الملائكة بنات الله، وسمي الملائكة جنأ لاجتنانهم عن الأبصار، وهو قول مجاهد وقتادة.

وقيل<sup>(٢)</sup>: قالوا لحى من الملائكة يقال لهم الجنة، ومنهم إبليس: هم بنات الله، وقال الكلبي<sup>(٣)</sup> قالوا - لعنهم الله - بل تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة، وقوله: ﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَبِينْ وَبَنَتْ يَغْيِرُ عَلِيمًا﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قال بعض المفسرين - كالثعلبي: وهم كفار العرب قالوا: الملائكة والأصنام بنات الله، واليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله.

#### فصل (٤)

وأما الذين<sup>(٥)</sup> كانوا يقولون من العرب: أن الملائكة بنات الله، وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن، فولدت له الملائكة فقد نفاه الله بامتناع صاحبة، وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه ﴿أَلْصَكْمَدُ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَكُنْ لَمْ صَحِيحَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر، وتولد الأعراض والصفات، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد، فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائكة، ولا من الجن، ولا من الإنس، فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة، فلماذا احتج بذلك عليهم، وما حكي عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن، فهذا فيه نظر، وذلك أن كان قد قيل: فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة، وكذلك ما قالته النصارى: من أن المسيح ابن الله، وما قاله طائفة من اليهود أن العزيز ابن الله، فإنه قد نفاه - سبحانه - بهذا وبهذا.

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» وانظر «تفسير الطبري» (١٠٨/٢٣).

(٢) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٩١/٧).

(٣) نفس المرجع (٩٢/٧) رواه الطبري عن قتادة (١٠٨/٢٣) ونسبه ابن الجوزي لقتادة وللكلبي، وفي النسختين المطبوعتين «بل بذور تخرج منها الملائكة» وهو خطأ.

(٤) في المنيرية «فصل في عقائد العرب في الرب وتحقيق عقائد النصارى فيه جل وعز».

(٥) في النسختين «والذين كانوا يقولون من العرب».

فإن قيل: أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم، وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون: إن أقنوم الكلمة، ويسمونها الابن تدرع المسيح، أي اتخذه درعاً، كما يتدرع الإنسان قميصه، فاللاهوت تدرع الناسوت، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد.

قيل: قصدهم أن الرب موجود حي عليم، فالموجود هو الأب، والعلم هو الابن، والحياة هو روح القدس، هذا قول كثير منهم، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر، ويقول العلم هو الكلمة، وهو المتدرع، والقدرة هي روح القدس، فهم مشتركون في أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن.

ثم اختلفوا في التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران؟ وهل لهما مشيئة أو مشيئتان<sup>(١)</sup>؟ ولهم في الحلول والاتحاد، كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه، فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه، فإن قولهم ليس مأخوذاً عن كتاب منزل، ولا نبي مرسل، ولا هو موافق لعقول العقلاء، فقالت اليعقوبية<sup>(٢)</sup>: صار جوهرًا واحدًا، وطبيعة واحدة، وأقنومًا واحدًا، كالماء في اللبن.

وقالت النسطورية<sup>(٣)</sup>: بل هما جوهران، وطبيعتان، ومشيئتان، لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف.

وقالت الملكية<sup>(٤)</sup>: بل هما جوهر واحد، له مشيئتان، وطبيعتان، أو فعلان، كالنار في الحديد.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. هم اليعقوبية، وفي قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ﴾

- (١) في النسختين «هل هما نسبة أو نسبتان» بدل مشيئة أو مشيئتان.
- (٢) فرقة من النصارى قالوا بالأقنيم الثلاثة - راجع فيهم الفصل لابن حزم (٤٩/١) و«الملل والنحل» للشهرستاني (٦٦/٢).
- (٣) فرقة أخرى من النصارى، نسبة إلى نسطور الذي قال إن الله تعالى واحد ذو أقنيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، راجع الفصل (٤٩/١) «الملل والنحل» (٦٤/٢).
- (٤) فرقة ثالثة ويقال لهم الملكائية أيضاً قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، راجع الفصل (٤٨/١) و«الملل والنحل» (٦٢/٢).

أَبْنُ اللَّهِ ﴿[التوبة: ٣٠] هم الملكية، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] هم النسطورية.

وليس بشيء، بل الفرق الثلاث تقول المقالات التي حكاها الله ﷻ عن النصارى، فكلهم يقولون: إنه الله، ويقولون: إنه ابن الله، وكذلك في أمانتهم التي هم متفقون عليها، يقولون إله حق من إله حق، وأما قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فإنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. قال أبو الفرج الجوزي<sup>(١)</sup> في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

قال المفسرون: معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، كل واحد منهم إله.

وذكر عن الزجاج<sup>(٢)</sup>: الغلو: مجاوزة القدر في الظلم، وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة، فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الابن، والفرق الثلاثة متفقة على ذلك، وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه:

أحدها: أنه ليس في شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابناً، لا كلامه ولا غيره، فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه، وما نقلوه عن المسيح من قوله: عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس، لم يرد بالابن صفة الله التي هي كلمته، ولا بروح القدس حياته، فإنه لا يوجد في كلام الأنبياء إرادة هذا المعنى، كما قد بسط هذا في الرد على النصارى.

الوجه الثاني: أن هذه الكلمة التي هي الابن أهي صفة لله قائمة به، أم هي جوهر قائم بنفسه؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه:

(١) راجع تفسيره (٤٠٣).

(٢) نفس المرجع (٢/٢٦٠) وقال أبو عبيده في معنى الغلو: كل شيء زاد حتى يجاوز الحد من نبات أو عظم أو شباب. «مجاز القرآن» (١/١٤٣) وانظر الطبري (٦/٣٤ - ٣٥) ولسان العرب مادة «علا».

أحدها: أن الصفة لا تكون إلهاً يخلق ويرزق<sup>(١)</sup> ويحي ويميت، والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق، ويحي ويميت، فإذا كان الذي تدعوه ليس بإله فهو أولى أن لا يكون إلهاً.

الثاني: أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه، وإن قالوا: نزل عليه كلام الله أو قالوا: أنه الكلمة أو غير ذلك، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء.

الثالث: أن الصفة لا تتحد، وتندرج شيئاً إلا مع الموصوف، فيكون الأب نفسه هو المسيح، والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب، فإن قولهم متناقض، ينقض بعضه بعضاً، يجعلونه إلهاً يخلق ويرزق، ولا يجعلونه الأب الذي هو الإله، ويقولون: إله واحد، وقد شبه بعض متكلميهم - كيحي بن عدي<sup>(٢)</sup> - بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب، وله بكل صفة حكم، فيقال: هذا حق، لكن قولهم ليس نظير هذا، فإذا قلت إن الرب موجود حي عالم، وله بكل صفة حكم، فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها قائمة به، وإن كان المتدريج صفة دون صفة عاد المحذور، وإن قالوا: المتدريج الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين، وهذا ممتنع، فإن الصفات القائمة بموصوف واحد وهي لازمة له لا تفترق، وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي، بخلاف صفات الرب تبارك وتعالى.

الرابع: أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله، ولا شيئاً من صفاته، بل هو مخلوق بكلمة الله، وسمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الجبل المعتاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥١﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧٥﴾ [مريم].

ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالنوراة والإنجيل وستائر كلام الله لم يكن كلام الله، ولا شيء من صفاته خالقاً ولا رباً ولا إلهاً، فالنصارى إذا قالوا: إن المسيح هو

(١) وفي النسختين «إلهاً يرزق ويخلق».

(٢) أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره، كان أوحدهم ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية، ترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية، توفي سنة (٣٦٤هـ).

الخالق، كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة، ومن جهة جعله هو نفس الصفة، وإنما هو مخلوق بالكلمة، ثم قولهم بالتثليث وإن الصفات ثلاث باطل، وقولهم أيضاً بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها.

فلو قالوا: إن الرب له صفات قائمة به، ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولاً، كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات، وإن قالوا: إن الصفات أعيان قائمة بنفسها، فهذا مكابرة، فهم يجمعون بين المتناقضين.

وأيضاً فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل، فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير، والأقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة، ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم، وتارة يفسرونها بالعلم، وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم، واضطرابهم كثير، فإن قولهم في نفسه باطل، ولا يضبطه عقل عاقل، ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.

وأيضاً فكلمات الله كثيرة لا نهاية لها، كما قال ﷺ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف].

وهذا قول جماهير الناس من المسلمين، وغير المسلمين، وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلماً بمشيئته، وقول من قال: إنه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاماً قائماً بذاته حادثاً، وقول من قال كلامه مخلوق في غيره.

وأما من قال: كلامه<sup>(١)</sup> شيء واحد قديم العين، فهؤلاء منهم من يقول: أنه أمور لا نهاية لها مع ذلك، ومنهم من يقول: بل هو معنى واحد، ولكن العبارات عنه متعددة، وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله، وإنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة، ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات، فإذا امتنع<sup>(٢)</sup> أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد

(١) في النسختين «كلامه معناه شيء واحد».

(٢) في النسختين «فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله».

امتناعاً، لأن كلمات الله كثيرة، والمسيح ليس هو جميعها، بل ولا مخلوقاً بجميعها، وإنما خلق بكلمة منها، وليس هو عين تلك الكلمة: فإن الكلمة صفة من الصفات، والمسيح عين قائم بنفسه.

ثم يقال لهم: تسميتكم العلم والكلمة ولدأ وابتناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء، قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها، فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام، فلهذا سميت الكلمة ابناً.

قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالتنا، وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته، فيمتنع أن يوصف بالتولد، إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه، وهي ابن له، ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور في العقول واللغات، فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال أنها متولدة عنه، وأنها ابن له، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنة ومتولدة، وكذلك قدرته، وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات.

وثانيها: أن هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين، ولا بد أن يخرج من الأصل جزء، وأما علمنا وقولنا فليس عيناً قائماً بنفسه، وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصلين، ولا بد له من محل يتولد فيه، والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك، وتكون أصلاً للفروع ويحصل العلم والكلام في محل لم يكن حاصلًا فيه قبل ذلك.

فإن قلت: أن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها، وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى، وغيرهم فهو باطل في صريح العقل، فإن الذات التي لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها، والله تعالى يمتنع عليه أن

يكون متعلماً من خلقه، وكذلك الذات التي تكون عاجزة عن الكلام، يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة، والواحد منا لا يولد جميع علومه، بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها، فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى، فلا يقول أحد من بني آدم: أن الإنسان يولد علومه كلها، فلا يقول أحد: أنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة، بل الذي يقدره على النطق هو الذي أنطق كل شيء.

فإن قالوا: إن الرب يولد بعض عمله، وبعض كلامه دون بعض بطل تسمية العلم - الذي هو الكلمة مطلقاً - الابن، وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه، أو بعض كلامه، وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة، وهو أقنوم العلم مطلقاً، وذلك ليس متولداً عنه كله، ولا يسمى كله ابناً باتفاق العقلاء.

**وثالثها:** أن يقال: تسمية علم العالم وكلامه ولداً له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة، وهو باطل بالعقل، فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه، فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له، وتسميتها أبناءه، ومن قال من أهل الكلام القدريّة: أن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه، فهو كقوله أن الشيع والري متولد عن الأكل والشرب، لا يقول أن العلم ابنه وولده، كما لا يقول أن الشيع والري ابنه ولا ولده، لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعاني القائمة بالإنسان، وتلك لا يقال إنها أولاده وأبناؤه، ومن استعار فقال بنيات فكره، فهو كما يقال بنيات الطريق، ويقال ابن السبيل، ويقال لطير الماء: ابن ماء، وهذه تسمية مقيدة، قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد، وأيضاً فكلام الأنبياء ليس في شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابناً، فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم، وهذا مما يقر به علماء النصارى، وما وجد عندهم من لفظ الابن في حق المسيح وإسرائيل وغيرهما، فهو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق، والمراد به أنه مكرم معظم.

**ورابعها:** أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين، فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله، وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهرًا قائمًا بنفسه، فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب، وإن كان العلم والكلام جوهرًا



آخر، فيكون إلهان قائمان بأنفسهما، فتبين فساد ما قالوه بكل وجه .

**وخامسها:** أن يقال: من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو إن خلق من غير أب، فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه، وبهذا ناظر نصارى<sup>(١)</sup> نجران النبي ﷺ وقالوا: إن لم يكن هو ابن الله فقل لنا من أبوه؟ فعلم النصارى إنما ادعوا فيه النبوة الحقيقية، وإن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب، ليزيلوا به الشناعة التي لا يبلغها عاقل، وإلا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول، فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله، وأن الله أحبل مريم، والله هو أبوه، وذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها، وهو سبحانه الصمد، ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له، ولهذا يتألهونها كما أخبر الله عنهم، وأي معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره، ولا صار فيه معنى النبوة، بل قالوا: كما قال: بعض مشركي العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة، وإذا قالوا: اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء، فهذا هو المعنى الفعلي، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله، وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى، بل من لا ابتداء الغاية كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَرِحَ بِاللهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين: إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو مملوك له، ومن لا ابتداء الغاية كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، وقال في المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له، كما يقال كلام الله وعلم الله، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً، والمقدور قدرة، والمرحوم به رحمة، والمخلوق بالكلمة كلمة، فإذا قيل في المسيح أنه كلمة الله،

(١) انظر القصة في «تفسير ابن جرير الطبري» (٣/١٦٢ - ١٦٣) و«أسباب النزول» للواحدي (٩٠ -

فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن، ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر، وإلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاماً صفة للمتكلم يقوم به، وكذلك إذا قيل عن المخلوق: أنه أمر الله، فالمراد أن الله كونه بأمره، كقوله: ﴿أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سَجِيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٨٧) [هود].

فالرب تعالى أحد صمد، لا يجوز أن يتبعض ويتجزء، فيصير بعضه في غيره، سواء سمي ذلك روحاً أو غيره، فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له، وتبين أنه عبد من عباد الله.

وقد قيل: منشأ ضلال القوم أنه في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب، وبالابن عن العبد المربى الذي يربه الله ويربيه، فقال المسيح: عمدوا الناس باسم الأب والابن، وروح القدس، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبدته ورسوله المسيح، ويؤمنوا بروح القدس جبريل، فكانت هذه الأسماء لله، ولرسوله الملكي، ورسوله البشري، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنِ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقد أخبر تعالى: في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس، وهو جبريل عند جمهور المفسرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَمَا آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْجِبْتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل، بل هذا قول ابن عباس<sup>(١)</sup> وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا أَتَمَّ أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١٦) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» (١١٢/١) وأخرج الطبري أقوال قتادة والسدي والضحاك، وروى عن شهر ابن حوشب مرفوعاً بسند ضعيف (٤٠٤/١) قال ابن كثير في «تفسيره» والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما رواه البخاري تعليقاً أن النبي ﷺ قال لحسان: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك». وأخرجه أبو داود والترمذي، وفي الصحيحين أن حسان قال لأبي هريرة أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»، فقال اللهم نعم. وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم وجبريل معك» انتهى ملخصاً من «تفسير ابن كثير» (١٢٢/١).

الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٦﴾ [النحل: ١٧٦]،  
وروى الضحاك عن ابن عباس<sup>(١)</sup>: أنه الاسم الذي كان يحيى به الموتى.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم<sup>(٢)</sup>: أنه الإنجيل، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، فما ينزله الله في قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحاً، وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم؟ والمسيح عليه السلام من أولي العزم، فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدْسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس<sup>(٣)</sup> ثلاثة أوجه<sup>(٤)</sup>:

أحدها: أنه أيده به لإظهار أمره ودينه.

الثاني: لدفع بني إسرائيل عنه إذا أرادوا قتله.

الثالث: أنه أيده به في جميع أحواله.

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن في لغتهم ليس مختصاً بالمسيح، بل عندهم أن الله تعالى قال في التوراة لإسرائيل: أنت ابني بكري، والمسيح كان يقول: أبي وأبوكم فيجعله أبا للجميع، ويسمى غيره ابناً له<sup>(٥)</sup>، فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك، ولكن النصراني يقولون: هو ابنه بالطبع، وغيره ابنه بالوضع، فيفرون فرقاً لا دليل عليه، ثم قولهم هو ابنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلاً وسمعاً ما يبين بطلانه.

(١) تفسير ابن الجوزي (١/١١٣)، وأخرجه الطبري (١/٤٠٤) وذكره ابن كثير برواية ابن أبي حاتم (١/٤٠٥) وبه فسر أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/٣٦٨).

(٢) ابن الجوزي (١/١١٣) وأخرجه الطبري (١/٤٠٤) وذكره ابن كثير بروايته (١/٤٠٥).

(٣) سقط من النسختين «روح القدس».

(٤) راجع «تفسير ابن الجوزي» (١/١١٢ - ١١٣).

(٥) في النسختين «ويسمى غيره ابناً له كما يسمى هو ابناً له».

## فصل

وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته، وأنه صدر عنه عقل، ثم عقل، إلى تمام عشرة عقول، وتسعة أنفس، وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر، والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب وأهل الكتاب عقلاً وشرعاً، ودلالة القرآن على فساده أبلغ، وذلك من وجوه:

أحدها: أن هؤلاء يقولون بقدوم الأفلاك، وقدام هذه الروحانيات التي يثبتونها، ويسمونها المجردات والمفارقات، والجواهر العقلية، وأن ذلك لم يزل قديماً أزلياً، وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعولاً بوجه من الوجوه، ولا يكون مفعولاً إلا ما كان حادثاً، وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء، وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة، وسائر الأمم، ولهذا كان جماهير الأمم يقولون كل ممكن يمكن أن يوجد، وأن لا يوجد فلا يكون إلا حادثاً، وإنما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين: كابن سينا، ومن وافقه، زعموا: أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة، وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك، وهم جمهورهم، ومن كان قبل أرسطو، فهؤلاء موافقون لأهل الملل، ومن قال بقدوم الفلك كأرسطو وشيعته، فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها، لا يثبتون له علة فاعلة، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك، كل ذلك قديم واجب بنفسه، وإن كان له علة غائية، وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين، لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك.

الثاني: أن هؤلاء يقولون: إن الرب واحد، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد، ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلاً، ولا يعقل فيه معان متعددة، لأن ذلك عندهم تركيب، ولهذا يقولون: لا يكون فاعلاً وقابلاً لأن جهة الفعل غير جهة القبول، وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب، ومع هذا يقولون: أنه عاقل ومعقول وعقل، وعاشق ومعشوق وعشوق، ولذيذ وملتذ ولذة، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة، ويقولون: أن كل واحدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى، والصفة هي الموصوف، والعلم هو القدرة، وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر.

ومن المتأخرين منهم من قال: العلم هو المعلوم، فإذا تصور العاقل أقوالهم حق

التصور تبين له أن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان، لا في الأعيان، وقد بسط الكلام عليه، وبين فساد ما يقولونه في التوحيد والصفات، وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة في مواضع غير هذا، وإذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم: «إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد» أصل فاسد.

**الثالث:** أن يقال قولهم بصدور الأشياء من ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد.

**الرابع:** أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان، فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلاً.

**الخامس:** أنهم يقولون صدر عنه واحد، وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك، فيقال: إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه، فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً، فيلزم أن يكون كل ما في العالم إنما هو واحد عن واحد وهو مكابرة، وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحداً من كل وجه، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد.

ولهذا اضطرب متأخروهم، فأبو البركات<sup>(١)</sup> صاحب «المعتبر» أبطل هذا القول ورده غاية الرد، وابن رشد الحفيد<sup>(٢)</sup> زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول، والطوسي<sup>(٣)</sup> وزير الملاحدة يقرب من هذا، فجعل الأول شرطاً في الثاني، والثاني شرطاً في الثالث، وهم مشتركون في الضلال وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تنزل ولا تزال معه<sup>(٤)</sup> لم تكن مسبقة بعدم، وجعل الفلك أيضاً أزلياً، وهذا

(١) أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكاً البلدي البغدادين المعروف بأوحد الزمان، كان يهودياً فأسلم وكان في خدمة المستنجد بالله، وحظى عنده، له مشاركة في المنطق والفلسفة توفي سنة ٥٥٠هـ.

(٢) محمد بن أحمد بن أحمد، القرطبي، أبو الوليد المعروف بابن رشد الحفيد. عالم ذو الفنون، له مشاركة في الفقه، والطب، والمنطق، والفلسفة، والعلوم الرياضية والإلهية، صنف نحو خمسين كتاباً توفي سنة ٥٩٥هـ.

(٣) محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين الرافضي، عالم فيلسوف رياضي شارك في أنواع من العلوم، كان هولانكو يكرمه ويجله ويطيعه فيما يشير به، توفي سنة ٦٧٢هـ.

(٤) في النسختين «لم تنزل ولا تزال معه لكن مسبقة بعدم».

وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية، فكيف إذا ضم إليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل؟.

**الوجه السادس:** أن الصوادر المعلومة في العالم إنما تصدر عن اثنين، وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء، كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض. وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار، والبرودة عن البارد، والشعاع عن الشمس، وغير ذلك، فإنما هو صدور أعراض، ومع هذا فلا بد لها من أصلين.

وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة، وتلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل، وهذا الصدور والتولد والمعلولية التي يدعونها في العقول والنفوس والأفلاك يقولون أنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط، فهذا من أبطل قول قيل في الصدور والتولد، لأن فيه صدور جواهر عن جوهر واحد، وهذا لا يعقل، وفيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل، وهذا لا يعقل، وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس، وحركة الخاتم عن حركة اليد، وهذا تمثيل باطل، لأن تلك ليست علة فاعلة، وإنما هي شرط فقط، والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد، بل عن أصلين، والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه.

فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور، وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب، وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته، وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه أنه متولد عنه، وحيث فهم في دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء وهؤلاء.

ومن جعل من المنتسبين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملائكة، فقله في جعل الملائكة متولدين<sup>(١)</sup> عن الله شر من قول العرب وعوام النصارى، فإن أولئك أثبتوا ولادة حسية، وكونه صمداً يبطلها، لكن ما أثبتوه معقول، وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلاً من كل وجه أبطل مما ادّعت النصارى من تولد الكلمة عن الذات، فكان نفي ما ادعوه أولى من نفي ما ادعاه أولئك لأن المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لا يمكن

(١) في النسختين «متولدين عن شيء من قول العرب»

تصوره موجوداً في الخارج، فإنه يمتنع وجوده في الخارج (بل هو يفرض في الذهن وجوده في الخارج)<sup>(١)</sup>، وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود الخارجي ما يشبهه، كما إذا قدر مع الله إله آخر، وقدر أن له ولداً فإنه يشبه من له ولد من العباد، ومن له شريك من العباد، ثم يبين امتناع ذلك عليه، فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة.

والولادة التي ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة، أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية، إذ الولادة الحسية تعقل في الأعيان القائمة بنفسها، وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلاً، وأيضاً فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين، وهذا هو الولادة المعقولة، وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد، وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء، وهذا معقول. وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك، وهو لا يعقل، وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان، وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان، فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره، فقول هؤلاء أولى بالبطلان، وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقاً يتخذ شفيعاً معبوداً من دون الله، فمن أثبت قديماً دون الله يعبد، ويتخذ شفيعاً كان أولى بالكفر، ومن أنكر المعاد من قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله، فمن أنكره مع قوله بقدوم هذا العالم فهو أعظم كفراً عند الله تعالى.

وهذا كما أن النبي ﷺ لما نهى أمته عن مشابهة<sup>(٢)</sup> فارس المجوس والروم النصارى فنهيه عن مشابهة اليونان<sup>(٣)</sup> المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم، وإذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموماً عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك والمشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى، وأن يكون ذمه أعظم من ذلك.

(١) ما بين القوسين من النسختين المطبوعتين.

(٢) في النسختين «عن مشابهة فارس والروم النصارى».

(٣) كذا في النسختين، وهو الصواب، وفي الفتاوى «عن مشابهة الروم واليونان».

فهؤلاء الأمم (الذين هم أبعد عن الإسلام)<sup>(١)</sup> الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين، شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين، وذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل وأعظم علماً ودينياً، فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء، غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم، وأما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون وإن كانوا أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام، ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء، ولبسوا عليهم دينهم، وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم، كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان، لأنهم إنما ابتلوا بسيوف هؤلاء، وألسنة هؤلاء، وكان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفاً في العلم والجهاد، وكما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا.

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصارى يقولون إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته، بل يقولون: أنه خلق ذلك في ستة أيام، وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن، فضلاً عن أن يكون ذلك في ستة أيام، ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث، يعنون بحدوثه أنه معلول بعلة قديمة، فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله تعالى، لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل.

وأيضاً فمشركو العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعاً واحداً، فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطاناً، وينكرون أن يكون إبليس كان أبا الجن، وأن يكون الجن ينكحون ويولدون، ويأكلون ويشربون، فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول والنفوس، أو من أعراض تقوم بالأجسام كالقوى الصالحة، وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها، فإن العرب كانت تثبت الجن، وكذلك أكثر أهل الكتاب، وهؤلاء لا يثبتونها، ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة، وأيضاً فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله، ويقولون إنه يسمع دعاءهم ويجيبهم.

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيئاً من جزئيات العالم، ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين المطبوعتين.



أحداً، ولا يحدث في العالم شيئاً ولا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك، والدعاء عندهم يؤثر، لأنه تصرف النفس الناطقة في هيولي العالم.

وقد ثبت في الصحيح<sup>(١)</sup> من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما شتمه إياي فقله إني اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وهذا وإن كان متناولاً قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم]، إلى قوله: ﴿وَقَالُوا أَتُخَذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ﴿٨٩﴾﴾ [مريم]، فذكر الله هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى، فإن هؤلاء ينكرون الإعادة والابتداء أيضاً، فلا يقولون: إن الله ابتداء خلق السماوات والأرض، ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم، وأما شتمهم إياه بقولهم اتخذ ولداً فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم له، معلول له أعظم من لزوم الولد والده، والوالد له اختيار وقدرة في حدوث الولد منه، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له، بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه، فالتولد الذي يثبتونه أبلغ من التولد الموجود في الخلق، ولا يقولون: أنه اتخذ ولداً بقدرته، فإنه لا يقدر عندهم على تغيير شيء من العالم، بل ذلك لازم له لزوماً حقيقة أنه لم يفعل شيئاً، بل ولا هو موجود، وإن سموه علة ومعلولاً فعند التحقيق لا يرجعون إلى شيء محصل، فإن في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى.

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة والمعلول، من جنس قول غيرهم بالوالد والولد، وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الذم، وهذا تقصير عظيم، بل أولئك خير من هؤلاء، وهؤلاء إذا حققت ما يقوله من هو أقربهم إلى الإسلام، كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطاً في وجود العالم لا فاعلاً له،

وكذلك من سلك مسلكتهم من المدعين للتحقيق من ملاحظة الصوفية كابن عربي وابن سبعين، حقيقة قولهم إن هذا العالم موجود واجب أزلي، ليس له صانع غير نفسه، وهم يقولون: الوجود واحد، وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجوداً آخر، وكلامهم في المعاد والنبوات والتوحيد شر من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم في العالم، لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة.

### فصل

وقد احتج ب(سورة الإخلاص) من أهل الكلام المحدث من يقول: الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم<sup>(١)</sup>، ومحمد بن كرام، وغيرهما، ومن ينفي ذلك ويقول: ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان، وأبا الهذيل العلاف<sup>(٢)</sup> ونحوهما، فأولئك قالوا: هو صمد والصمد لا جوف له، وهذا إنما يكون في الأجسام المصمته، فإنها لا جوف لها، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة، وكما قيل: إن الملائكة صمد، ولهذا قيل أنه لا يخرج منه شيء، ولا يدخل فيه شيء، ولا يأكل ولا يشرب، ونحو ذلك، ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم، وقالوا: أصل ﴿الصَّكْمُ﴾ الاجتماع، ومنه تصميد المال، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع، وأما النفاة فقالوا: ﴿الصَّكْمُ﴾ الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام.

وقالوا أيضاً: (أحد) الذي لا يقبل التجزي والانقسام، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزي والانقسام، وقالوا: إذا قلت هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه، وهو سبحانه صمد، والصمد: الغني عما سواه، فالمركب لا يكون صمداً.

فيقال: أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء، وأنه يقبل التجزي والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعاً عقلاً، فإن هذا ينافي كونه صمداً، كما تقدم،

(١) هشام بن الحكم الشيباني، أبو محمد الكوفي، شيخ الإمامية في وقته تنسب إليه الفرقة الهشامية له مؤلفات، توفي سنة ١٩٩هـ.  
(٢) محمد بن الهذيل بن عبد الله العلاف، يعد رائد التأليف في علم الكلام عند المعتزلة، قال بفناء الجوهر. يعرف أتباعه بالهذيلية. توفي سنة ٢٢٦هـ.

وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة، ثم اجتمعت، أو قيل: أنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض، كما في بدن الإنسان وغيره من الأجسام، فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء، لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض، والله سبحانه منزّه عن ذلك، ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له، فإن هذا إنما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم، وما قبل العدم والفناء لم يكن واجب الوجود بذاته، ولا قديماً أزلياً، فإن ما وجب قدمه امتنع عدمه، وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته، فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم.

ولهذا قال من قال من السلف: ﴿الضَّمَدُ﴾ هو الدائم، وهو الباقي بعد فناء خلقه، فإن هذا من لوازم الصمدية، إذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له، بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه، وذلك محال، فلا يكون مستوجباً للصمدية، إلا إذا كانت لازمة له، وذلك ينافي عدمه، وهو مستوجب للصمدية، لم يصبر صمداً بعد أن لم يكن - تعالى وتقدس - فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع، وأنه مفعول محدث مصنوع، وهذه صفة مخلوقاته، وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً أو مفعولاً أو محتاجاً إلى غيره بوجه من الوجوه، فلا يجوز عليه شيء من ذلك، فعلم أنه لم يزل صمداً، ولا يزال صمداً، فلا يجوز أن يقال: كان متفرقاً فاجتمع، ولا أنه يجوز أن يتفرق، بل ولا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء.

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين، سنّهم وبدعيّهم، وإن كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك، فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول إنه مولود ووالد، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار، وقد قال المتفلسفة المنتسبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك.

وأما إثبات الصفات له، وأنه يرى في الآخرة، وأنه يتكلم بالقرآن وغيره، وكلامه غير مخلوق، فهذا مذهب الصحابة والتابعين له بإحسان، وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة، وكثير من الفلاسفة والباطنية.

وهؤلاء يقولون إن إثبات الصفات يوجب أن يكون جسماً وليس بجسم، فلا تثبت له الصفات، قالوا: لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم، ولا تعقل صفته إلا كذلك، قالوا: والرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة، فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئي بجهة، ولا يكون بجهة إلا ما كان جسماً، قالوا: ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسماً، فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقاً منفصلاً عنه.

وهذه المعاني مما ناظروا به الإمام أحمد في «المحنة» وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث<sup>(١)</sup> تلميذ حسين النجار، وهو من أكابر المتكلمين، فإن ابن أبي داود كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول: أن القرآن مخلوق، وهذا القول لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعضه الناس، فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة. وبشر المريسي لم يكن من المعتزلة، بل فيهم نجارية، ومنهم برغوث، وفيهم ضرارية، وحفص<sup>(٢)</sup> الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو، وفيهم مرجئة، ومنهم بشر المريسي، ومنهم جهمية محضة، ومنهم معتزلة وابن أبي داود لم يكن معتزلياً، بل كان جهمياً ينفي الصفات.

والمعتزلة تنفي الصفات، فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة، فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسماً، وهذا منفي عنه. وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبتته الله تعالى ورسوله، ويثبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله ورسوله.

فالأولى: طريقة الجهمية: من المعتزلة وغيرهم: ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون، أن قصدهم التنزيه، ومقصودهم بذلك أن الله لا يرى في الآخرة، وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاماً في غيره، وأنه ليس له علم يقوم به، ولا قدرة

(١) محمد عيسى الملقب برغوث، كان على مذهب النجار في أكثر مذاهبه وخالفه في تسمية المكتسب فاعلاً وخالفه أيضاً في المتولدات فزعم أنها فعل الله تعالى بإيجاب الطبع.

(٢) حفص الفرد كان من المجبرة وكان أولاً معتزلياً ثم قال بخلق الأفعال وله كتب.

ولا حياة، ولا غير ذلك من الصفات قال الإمام أحمد في خطبته في «الرد على الجهمية والزنادقة»<sup>(١)</sup>:

«الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنوره أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين<sup>(٢)</sup>، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب<sup>(٣)</sup> مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»<sup>(٤)</sup>.

والثانية: طريقة هشام وأتباعه، يحكى عنهم: أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص، ومماثلته للمخلوقات، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١١٢) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ (١) ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا نَبَسَاطُفُ فَتَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١١٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١١٤) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١١٥) ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا

(١) راجع الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٦).

(٢) في النسختين (تحريف الضالين).

(٣) في النسختين «فهم مختلفون في كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب».

(٤) في النسختين «من الفتن الضالين».

فَسِينًا وَكَذَلِكَ آيَوْمَ نُنسِئُ ﴿١٣٦﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْمِعُونَ بِأَنفُسِهِمْ أَفَرَأَى إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٥﴾﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ \* مُبِينٍ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل، وبيان ما اختلف فيه الناس، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة وإن من لم يتبع ذلك كان منافقاً، وإن من

اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقيماً معذباً، وإن الذين فرقوا<sup>(١)</sup> دينهم قد برئ الله ورسوله منهم.

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة، المتبعين ما أنزل إليهم من ربهم، وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبتة لنفسه في كتابه أثبتناه. وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفينا، وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ، وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ، وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة، بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها، وقد تنازع فيها الناس، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى إلا بعد الاستفسار عن معانيها، فإن وجدت معانيها مما أثبتة الرب لنفسه أثبتت، وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت، وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل، أو نفى به حق وباطل، أو كان مجملاً يراد به حق وباطل، وصاحبه أراد به بعضها، لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد، فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها<sup>(٢)</sup> ولا نفيها، كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى، فقل من تكلم بها نفياً أو إثباتاً إلا وأدخل فيها باطلاً، وإن أراد بها حقاً.

والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث، لاشتماله على باطل وكذب، وقول على الله بلا علم، وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه، ويقولون عليه بغير علم، وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله، ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول، بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة، ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل، لا يصح بعقل ولا سمع.

ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج<sup>(٣)</sup> عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال: وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض، وإنما بعث (الله) النبي ﷺ

(١) في النسختين «الذين فرقوا دينهم». (٢) في الحسينية «لا يطلق إلى إثباتها».

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي القاضي الشافعي، كان يلقب بالباز الأشهب، منه انتشر المذهب الشافعي، وكان فهرست كتبه يشتمل على أربعمئة مصنف. توفي سنة (٣٠٦هـ).

بإنكار ذلك، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه، وإنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة، فإن أول ما أحدثهما الجهمية والمعتزلة، وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى، أو أن يكون له كلام يتصف به، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً.

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم<sup>(١)</sup>، فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط، وقال: يا أيها الناس: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه.

وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع والألغاز المجملة: كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لا على إطلاق الإثبات، ولا على إطلاق النفي، وأهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظاً ومعاني، أما في النفي، وإما في الإثبات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم، الذي يجب اعتقاده، والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشككة التي لا ندري ما أريد بها. فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً، وما جاء به الرسول فرعا له ومشكلاً: إذا لم يوافقوه وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم، وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية، جميع كتبهم توجد على هذا الطريق، ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، وبين السبل المخالفة له، وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية، ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك، كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة، وألفاظ ومعان مشتركة.

فالواجب أن يُجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد.

(١) من أول القائلين بخلق القرآن، وضحى به خالد القسري في سنة ١١٨هـ.



ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى، كما يوجد في ألفاظ أهل الرأي والكلام والتصوف، وإنما يجوز أن يقال في بعض الآيات أنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة اليقينة، فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر، وجاء نص آخر إن ظاهره يخالف ذلك، يقال في هذا أنه يرد المتشابه إلى المحكم، أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل، ويجعل ما في القرآن والسنة مشكلاً متشابهاً فلا يقبل ما دل عليه.

نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور، وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ: إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعاً، كالفتن التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والعلمية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، كما قال مالك بن أنس: إذا قلَّ العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء.

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم، ولهذا قال أحمد في خطبته: (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم)، فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا إِلَهًُا سِوَا اللَّهِ عَدُوًّا لِمَن قَبَّلَ الْوُجُوهَ﴾ [البقرة: ١٧٥].

فأهل الهدى والفلاح: هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان، وأهل العذاب والضلال: هم المكذبون للأنبياء ويبقى<sup>(١)</sup> أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر، لكن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجُبَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ

(١) في النسختين «بني أهل الجاهلية».

حَقٌّ يَبْعَثُ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ [القصص]، فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا، وقد رويت آثاراً متعددة<sup>(١)</sup> في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة.

وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين، فإن الآخرة لا تكليف فيها، وليس كما قال. إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء: الجنة أو النار، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون، يقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله في صورة غير الصورة التي رآه فيها أول مرة، ويقول أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا وفي رواية فيسألهم ويثبتهم. وذلك امتحان لهم، هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة، كما يثبتهم في فتنة القبر، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون، فيكشف عن ساق، فإذا رآه خروا له سجداً، إلا من كان منافقاً فإنه يريد السجود فلا يستطيعه، يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي

(١) أخرج أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ موثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ثم ذكر سند آخر إلى أبي هريرة وذكر أنه روى عنه مثل هذا غير أنه قال: فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها سحب إليها» راجع «المسند» (٢٤/٤)، وقال الهيثمي ورواه الطبراني، ورجال أحمد في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح، وكذا رجال الطبراني فيهما، «مجمع الزوائد» (٢١٦/٧) وأخرجه البيهقي في الاعتقاد (٩٢) بالطريقين: وهو عند ابن حبان من حديث الأسود (١٨٢٧ - موارد)، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٢/٥) إلى إسحاق بن راهويه، وأبي نعيم في المعرفة، وابن مردويه، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» عن أبي هريرة موقوفاً عليه (٥٤/١٥)، وقد ثبت الحديث مرفوعاً والله أعلم.

هريرة<sup>(١)</sup> وأبي سعيد<sup>(٢)</sup> وقد أخرجاها في الصحيحين.

ومن حديث جابر<sup>(٣)</sup> قد رواه مسلم، ومن حديث ابن مسعود<sup>(٤)</sup> وأبي موسى<sup>(٥)</sup>.

وهو معروف من رواية أحمد وغيره، فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء، وأما قبل دار الجزاء امتحان وابتلاء<sup>(٦)</sup>. فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن<sup>(٧)</sup>، وحدثت البدع والفجور<sup>(٨)</sup>، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني الثالثة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»<sup>(٩)</sup>.

والبأس مشتق من البؤس قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وفي الصحيحين<sup>(١٠)</sup> عن النبي ﷺ: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال هاتان أهون».

(١) البخاري (١٩٤/١)، ومسلم (١٦٣/١ - ١٦٧).

(٢) البخاري (١٨١/٨)، ومسلم (١٦٧/١). (٣) مسلم (١٦٧/١).

(٤) أخرجه الحاكم مطولاً في كتاب الأحوال (٥٩١/٤ - ٥٩٢) وصححه وقال الذهبي: ما أنكره حديثاً على جودة إسناده! وأبو خالد شيعي منحرف، ورواه الطبري من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٠/١٠/٣٤٣)، (قلت) أبو خالد الدالاني اسمه يزيد بن عبد الرحمن، قال الذهبي: محدث مشهور، قال أبو حاتم: صدوق وقال أحمد: لا بأس به، وقال ابن حبان، فاحش الوهم، لا يجوز الاحتجاج به، راجع «الميزان» (٤٣٢/٤)، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٧/٨) إلى إسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والأجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية، وابن مردويه، والبيهقي في البعث.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير والأوسط» وقال الهيثمي: فيه فرات بن السائب وهو ضعيف «مجمع الزوائد» (٣٤٣/١٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» برواية ابن عساكر (٣٥٣/٨).

(٦) في النسختين «ما قبل دار الجزاء دار امتحان وبلاء».

(٧) في النسختين «في ظلمة البدع».

(٨) في النسختين «ووقع الشر بينهم» بعد قوله «الفجور».

(٩) مسلم (٢٢١٥). (١٠) البخاري (١٩٣/٥).

فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول في هذه الحال، وهم فيها في جاهلية.

ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، انزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية.

وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً، ولم يبع بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعض، ولا يعتدي عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوا في بعض مسائل الدين، وكذلك سائر أهل الأهواء، فإنهم يبتدعون بدعة، ويكفرون من خالفهم فيها، كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها، واستحلوا منه حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول ﷺ إما عادلون، وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم الذي يعتدي على غيره، وهؤلاء ظالمون<sup>(١)</sup> مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]<sup>(٢)</sup>.

(١) في النسختين «وهؤلاء يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون».

(٢) وجاء في الأصل والنسختين المطبوعتين (وما تفرق) خطأ.

وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً، كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل، فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول، وقالوا: هذه غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدعي أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يديها، ويذم من يخالفه من أنه معذور.

وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين، فابتدعوا كلاماً متشابهاً نفوا به الحق، فأجابهم أحمد لما ناظروه في المحنة، وذكروا الجسم ونحو ذلك، وأجابهم بأني أقول كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾.

وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث، ليس على أحد، أن يتكلم به البتة، والمعنى الذي يراد به مجمل، ولم تبيينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح. فقال ما أدري ما تقولون؟ لكن أقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾.

يقول: ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم، فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه، إذا لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه، أن لن ندر<sup>(١)</sup> معناه الذي عناه المتكلم، فإن عنى في النفي والإثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه، وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات ما وافق الكتاب والسنة وافقناه، وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات لم نوافق.

ولفظ «الجسم» و«الجوهر» ونحوهما لم يأت في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا كلام أحد - من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين - التكلم بها في حق الله تعالى، لا بنفي ولا إثبات، ولهذا قال أحمد في رسالته<sup>(٢)</sup> إلى المتوكل: (لا أحب الكلام في شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله، أو في حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود) وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون: ليس فيه كذا ولا كذا

(١) في النسختين «أن لم يدر معناه الذي عناه».

(٢) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٢١٧/٩) وذكر خير المحنة بطوله (٢٠٤/٩ - ٢٢٠).

ولا كذا، وهو كما قال، فإن لفظ<sup>(١)</sup> الجسم له في اللغة التي نزل بها القرآن معنى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ بُسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

قال ابن عباس<sup>(٢)</sup>: كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمنكيه وعنقه ورأسه، و﴿بُسْطَةً﴾ السعة.

قال ابن قتيبة<sup>(٣)</sup>: هو من قولك «بسطت الشيء» إذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته، قال بعضهم: والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة، إذ العادة أن من كان أعظم جسماً كان أكثر قوة، فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

قال الجوهري: قال أبو زيد الأنصاري، الجسم<sup>(٤)</sup>: الجسد، وكذلك الجسمان<sup>(٥)</sup> والجسمان، وقال الأصمعي: الجسم، والجسمان، والجسد والجثمان: الشخص، وقال جماعة: جسم الإنسان يقال له «الجسمان»<sup>(٦)</sup> وقد جسم الشيء أي عظم، فهو جسيم وجسام، والجسام بالكسر جمع جسيم.

قال أبو عبيدة: «تجسمت فلاناً من بين القوم»: أي اخترته، كأنك قصدت جسمه، كما تقول تأتيته أي قصدت أتبه وشخصه، وأنشد أبو عبيدة:

تجسمت من بينهم بمرفه

و«تجسمت الأرض»: إذا أخذت نحوها تريدها، وتجسم من الجسم.

وقال ابن السكيت: تجسمت الأمر: أي ركبته أجسمه وجسيمه، أي معظمه، وقال: وكذلك تجسمت الرمل والجبل أي ركبته أعظمه، والأجسم، الأضخم قال عامر بن الطفيل<sup>(٧)</sup>:

(١) في النسختين «فإن لفظ الجسم في اللغة التي...».

(٢) نقله ابن الجوزي في «تفسيره» (٢٩٤/١).

(٣) راجع «تفسير غريب القرآن» (٣١٤). (٤) راجع اللسان «جسم».

(٥) سقط كلمة «الجسمان» في «الفتاوى».

(٦) في «الفتاوى» «الجثمان» (بالمثلة) وهو خطأ.

(٧) عامر بن الطفيل العامري، من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم والبيت في اللسان «جسم». والشعر في ديوانه (٢١)، يراجع لسان العرب، مادة (جسم).

لقد علم الحي من عامر بأن لنا الذروة الأجساما

فهذا الجسم في لغة العرب، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم، ولا للنفس الخارج من الإنسان جسم، ولا لروحه المنفوخة فيه جسم، ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك، لا بدن الإنسان ولا غيره فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين، ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين، فلا يجوز أن يقال: هو جسم، ولا جسد.

(وأما أهل الكلام) فالجسم عندهم أعم من هذا، وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً واختلافاً لفظياً اصطلاحياً، فهم يقولون كل ما يشار إليه إشارة حسية فهو جسم، ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم: كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة، ثم منهم من قال: الجسم أقل ما يكون جوهراً، بشرط أن ينضم إلى غيره<sup>(١)</sup>، وقيل بل الجوهران، والجواهر فصاعداً، وقيل بل أربعة فصاعداً، وقيل بل ستة، وقيل بل ثمانية، وقيل بل ستة عشر، وقيل بل اثنان وثلاثون، وهذا قول من يقول إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التي لا تنقسم.

وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الأجسام مركبة من الهولي، والصورة لا من الجواهر الفردة.

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام:

ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا<sup>(٢)</sup>، وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار، لا يقولون بالجواهر الفرد ولا بالمادة والصورة، وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد، كما قال أبو المعالي وغيره: اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً، ومع هذا فقد شك هو فيه، وكذلك شك فيه أبو الحسين البصري<sup>(٣)</sup>، وأبو عبد الله الرازي.

ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من

(١) في النسختين «ينضم إليه غيره».

(٢) في الفتاوى «لا من هذا ولا من هذا، ولا من هذا ولا من هذا» أربع مرات.

(٣) محمّد بن علي بن الطيب، أبو الحسين البصري، شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف الكلامية كان فصيحاً بليغاً، عذب العبارة، يتوقد ذكاء، وله اطلاع كبير توفي سنة ٤٣٦هـ.

التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين، وأول من قال ذلك في الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة، وهذا من الكلام الذي ذمه السلف وعابوه، ولكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين إلا ما في كتب الكلام، ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين، والقول بالجواهر الفرد باطل. والقول بالهولي والصورة باطل، وقد بسط الكلام على هذه المقالات في مواضع آخر.

وقال آخرون: الجسم هو القائم بنفسه، وكل قائم بنفسه جسم، وكل جسم فهو قائم بنفسه، وهو مشار إليه، واختلفوا في الأجسام هل هي متماثلة أم لا؟ على قولين مشهورين.

وإذا عرف ذلك فمن قال: أنه جسم، وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل، وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل أن الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته، فمن أثبت لله مثلاً في شيء من صفاته فهو مبطل، ومن قال أنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل، ومن قال أنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة، ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات، ولا ترفع الأيدي إليه في الدعاء، ولا عرج بالرسول ﷺ إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا تعرج الملائكة والروح إليه فهذا قول باطل.

وكذلك كل من نفى ما أثبتته الله ورسوله وقال إن هذا تجسيم، فنفيه باطل، وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه (فإنه إن أراد إن هذا في اللغة يسمى جسماً فقد أبطل) (١) وإن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسماً مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة، أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً، والأجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة. وفي أنها مركبة، فلا يقولون: إن الهواء مثل الماء ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلاً لخلقه، إذا أثبتوا له ما أثبت له الكتاب والسنة؟ والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض الخلوقات، وكلاهما جسم كقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين.



مع أن كلاهما بشر، فكيف يجوز أن يقال: إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلاً لخلقه؟ والله تعالى ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ونكته الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الأجسام، ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، وأكثر العقلاء يخالفونه في هذا التلازم، وهذا التلازم متف باتفاق الفريقين، وهو المطلوب.

فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفي عن الله شرعاً وعقلاً، وبقي بحثهم في الجسم الاصطلاحي، هل هو مستلزم لهذا المحذور؟ وهو بحث عقلي، كبحث الناس في الأعراض<sup>(١)</sup> هل تبقى أو لا تبقى؟

وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين، بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله تعالى لا نفيًا ولا إثباتًا، فليس لأحد أن يبتدع اسماً مجملاً يحتمل معاني مختلفة، لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين، ولو كان قد نطق باللغة العربية، فكيف إذا أحدث للفظ معنى آخر؟.

والمعنى الذي يقصده إذا كان حقاً عبر عنه بالعبرة التي لا لبس فيها فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة، وأن الله ليس كمثل شيء، وهو سبحانه لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع، وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة، وإن كل ما يرى وتقوم به الصفات فهو جسم، فإن عليه أن يثبت ما أثبتته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته. كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

وقوله ﷺ في الاستخارة<sup>(٢)</sup>: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك»<sup>(٣)</sup>.

وقوله في الحديث الآخر: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق».

(١) في النسختين «في الأرض هل تبقى أو لا تبقى؟».

(٢) البخاري (٥١/٢).

(٣) في النسختين «اللهم أني أستخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق» وهو خلط بين حديثين.

ويقول كما قال<sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة عياناً كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته»<sup>(٢)</sup>، فشبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي كالمرئي.

فهذه عبارات الكتاب والسنة، عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله، فلازم الحق حق، لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيبينه بالألفاظ الشرعية، وإن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده، وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه، وإن قدر أنه في نفسه حق.

(ومسألة) تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام، وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة، وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعاني المشابهة، وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضوع.

لكن المقصود هنا: أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة، ولا مركبة لا من هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الإسلام قوله: إن الله جسم، ويناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية، ولو قدر أنه تبين له أن الأجسام متماثلة، وأن الجسم مركب، لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم، ويناظر على معناه الذي اعتقده بعقله، بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبس والذين يقولون: إن الجسم مركب من الجواهر، يدعي كثير منهم أنه كذلك في لغة العرب، لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا، يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ويقولون: هذا جسيم، أي كثير الأجزاء.

قال: والتفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الاسم، فإذا قيل: هذا أعلم أحلم، كان ذلك دالاً على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم، فلما قالوا:

(١) البخاري (١٣٩/١ - ١٤٣) ومسلم (٤٣٩/١).

(٢) رواه النسائي (٥٤/٣) وأحمد (٢٦٤/٤) عن عمار بن ياسر والحديث صحيح.

أجسم، لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب، فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب.

قالوا: وهذه تخليطة<sup>(١)</sup> في اللفظ، وإن كنا لا نكفره، إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف، وقد نازعهم بعضهم في قولهم هذا أجسم من هذا، وقالوا: ليس هذا اللفظ من لغة العرب، ما يحكى عن أبي زيد فيقال له: لا ريب أن العرب تقول هذا جسيم أي عظيم الجثة، وهذا أجسم من هذا أي أعظم جثة، لكن كون العرب تعتقد إن ذلك لكثرة الأجزاء التي هي الجواهر الفردة، إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة، والجواهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد، والذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه، والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة، يمتنع أن يكون اللفظ الشائع في اللغة التي ينطق بها خواصها وعوامها أرادها به هذا.

وقد علم بالاضطرار أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد، ولا بما يدل على ثبوته عنده، بل ولا العرب قبلهم، ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة، ولا أتباع الرسل، فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم إلا لما كان مركباً مولفاً؟ ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزي، أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة، ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته، ويقول: كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب؟ وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد، الفقهاء قاطبة تنكره، وكذلك أهل الحديث والتصوف.

ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام إلى بعض، كاستحالة العذرة رماداً، والخنزير ملحاً، ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تطهر أم لا تطهر؟ والقائلون بالجواهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التي كانت في

(١) في النسختين «تخطئة في اللفظ».

الأول هي بعينها في الثاني، وإنما اختلف التركيب، ولهذا يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين، ويقول: إن الماء يفارق غيره في التركيب فقط، وكذلك القائلون بالجواهر الفرد عندهم إنا لم نشاهد قط إحداث الله تعالى لشيء من الجواهر والأعيان القائمة بنفسها، وإن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها، وتغيير صفاتها من حال إلى حال، لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها، وهذا القول أكثر العقلاء ينكره، ويقول: هو مخالف للحس والعقل والشرع، فضلاً عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزماً لهذا المعنى.

ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه، وهو عرض قائم بغيره، وقد يراد به الشيء الغليظ، وهو القائم بنفسه، فنقول: هذا الثوب له جسم، أي غلظ، وقوله: ﴿وَزَادُمْ بَسَطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد يحتج به على هذا، فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر، فنقول المعنى: ﴿وَزَادُمْ بَسَطَةً﴾ في قدره، فجعل بدنه أكبر من بدن غيره، فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر، وكذلك قوله تعالى: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أي صورهم القائمة بأبدانهم، كما تقول: أعجبنى حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الأبدان، وقد يراد نفس الأبدان، وهم إذا قالوا: «هذا أجسم من هذا» أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة، إلا من أخذ ذلك عن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة، وأكثر التابعين فإن هذا لم يعرف في الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية، لما حضر جهنم بن صفوان، والجد بن درهم، ثم ظهر في المعتزلة.

فقد تبين أن من قال: الجسم هو المؤلف المركب، واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بني آدم، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه، وأنه جعل لفظ الحسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة، فقد غير معنى اللفظ في اللغة، وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل، وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ، ولا ما ادعاه من

المعنى العقلي، فاللغة لا تدل على ما قال، والشرع لا يدل على ما قال، والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ، وإنما يدل على المعنى المجرد، وذلك فيه نزاع طويل، ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه لا يحتاج نفيه إلى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي، بل الذين جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفي مسمى الجسم، لا يمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص ألبتة، فإنهم إذا قالوا: هذا من صفات الأجسام، فكل ما أثبتوه هو أيضاً من صفات الأجسام، مثل كونه حياً عليمًا قديراً، بل كونه موجوداً قائماً بنفسه فإنهم لا يعرفون هذا في الشاهد إلا جسماً، فإذا قال المنازع: أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا.

ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم، هل علم بالإجماع فقط، أو علم بالعقل أيضاً، فيه قولان: فمن قال إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص، هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله، مثل نفيه للنقائص، فإنه يجب تنزيه الرب عنها، وينفي عنه مماثلة المخلوقات فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له، وهذا النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① دلت على النوعين.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ مع قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ② ينفي المماثلة والمشاركة، وقوله: ﴿أَلْضَمُّدُ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال، فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى، وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها، بخلاف ما يوصف به الرب، ويوصف العبد بما يليق به: مثل العلم والقدرة والرحمة، ونحو ذلك، فإن هذه ليست نقائص، بل ثبت لله من هذه المعاني فإنه يشبث الله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات، فضلاً عن أن يماثله فيه، بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس، لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم، وكلاهما مخلوق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء) ①، فقد أخبر الله

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ي «تفسره» (١/١٧٤).

أن في الجنة لبناً وخمراً وعسلاً وماءً وحريراً وذهباً وفضة، وتلك الحقائق ليست مثل هذه، وكلاهما مخلوق، فالخالق أبعد عن مماثلة المخلوقات من المخلوق إلى المخلوق.

وقد سمى الله نفسه عليماً حليماً رؤوفاً، رحيماً، سميعاً، بصيراً، عزيزاً، ملكاً، جباراً، متكبراً، مؤمناً، عظيماً، كريماً، غنياً، شكوراً، كبيراً، حفيظاً، شهيداً، حقاً، وكيلاً، ولياً.

وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء فسمى الإنسان سميعاً بصيراً، وسمى نبيه رؤوفاً رحيماً، وسمى بعض عباده ملكاً، وبعضهم شكوراً، وبعضهم عظيماً، وبعضهم حليماً وعليماً، وسار ما ذكر من الأسماء مع العلم بأنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء.

### فصل

وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ «المركب» و«المؤلف» و«المنقسم» ونحو ذلك، قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده، فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن، وهو إثبات أحديته وصمديته، ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفياً وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحاً اصطلاحاً عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب، وليس ذلك من لغة العرب التي نزل بها القرآن، ولا من لغة أحد من الأمم، ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد، ونحو ذلك من الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة، ويجعل ما نفاه من المعاني التي أثبتتها الله ورسوله من تمام التوحيد.

واسم «التوحيد» اسم معظم جاءت به الرسل. ونزلت به الكتب فإذا جعل تلك المعاني التي نفاه من التوحيد، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول ﷺ أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل، ويسمي طائفته الموحدين، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات، ويسمون ذلك توحيداً، وطائفتهم الموحدين ويسمون علمهم علم التوحيد، كما تسمي المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلاً، ويسمون أنفسهم العدلية وأهل العدل.

ومثل هذه البدع كثيراً جداً يعبر باللفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراد الله ورسوله بتلك الألفاظ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله ﷻ، ورسوله ﷺ، بل عن شبه حصلت لهم، وأئمة لهم وجعلوا التعبير عنها باللفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم، ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول ﷺ لا مخالفون له، وكثير منهم لا يعرفون أن ما ذكروه مخالف للرسول ﷺ، بل ظن أن هذا المعنى الذي أراداه هو المعنى الذي أراداه الرسول ﷺ وأصحابه فهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين:

أحدهما: معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ باللفاظ الكتاب والسنة، بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه، فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين، مثل معنى التوحيد، ومعنى الواحد، والآخر، والإيمان، والإسلام، ونحو ذلك، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر، والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد، وواحد، ومن ذكر أن إلهكم واحد، ومن ذكر أنه لا إله إلا الله، ونحو ذلك.

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك، فإن معرفته أصل الدين وهو أول ما دعا الرسول ﷺ إليه الخلق، وهو أول ما قاتلهم إليه، وهو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به، وقد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله، ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال: «أَمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين<sup>(٢)</sup> أنه لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ

(١) مرّ تخريجه.

(٢) البخاري (١٢٥/٢ - ١٣٦)، ومسلم (٥٠/١).

الكتاب فَلْيَكُنْ أَوَّلُ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك [فأعلمهم أن الله تعالى قد فرضَ عليهم خمسَ صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك] <sup>(١)</sup> فأعلمهم أن الله تعالى افترضَ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم فترُدُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فيأياك وكرائمَ أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ.

فقال لمعاذ: «لِيَكُنْ أَوَّلُ ما تدعوهم إليه التوحيد»، ومع هذا كانوا من أهل الكتاب. كانوا يهوداً، فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن، وهذا الذي أمر به معاذاً موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَآخِضْهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ﴾ [البينة].

في الصحيحين <sup>(٢)</sup> عنه ﷺ أنه قال: «الإيمانُ بضعٌ وستون، أو بضعٌ وسبعون شعبةً، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياءُ شعبةٌ من الإيمان».

(فالمقصود) أن معرفة ما جاء به الرسول وما أَرادَه بالألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم بالإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها.

والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله، فيعرف معنى الأول، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل. ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني، ويرد إلى الأول. هذا طريق أهل الهدى والسنة، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس، يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم، فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم، ويقولون: نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم، ثم يتأولون القرآن عليه بما

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين. (٢) مرّ تخريجه.



يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولهذا قال الإمام أحمد: أكثر ما يُخطئ الناس من جهة التأويل والقياس.

وقال: يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس، وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار، فهي طريقة الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة.

### فصل

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والندّ قد دل عليه قوله سبحانه: أحد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وأمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة، والعقل يدل على ذلك. وقول القائل: الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم ولا يتفرق، أو ليس بمركب ونحو ذلك. هذه العبارات إذا عُني بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهذا حق، وأما إن عُني به أنها لا يشار إليه بحال، أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء، فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده، وإنما يقدر في الذهن تقديراً، وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ «الواحد» و«الأحد» نفيًا وإثباتاً لم ترد هذا المعنى. فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]. لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد الأحد، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَجْدَةً فَلَهَا النَّصْفُ﴾ [النساء: ١١]، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفوياً له، فإن كان الأحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء، فليس في الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين، وحينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفوياً للرب؛ لأنه لم يدخل في مسمى أحد.

وقد بسطنا الكلام على هذا بسطاً كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفات الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية)<sup>(١)</sup>.

(١) الكتاب طبع ناقصاً في مجلدين وحقق الآن في المملكة العربية السعودية في عدة رسائل علمية وهو تحت الطبع، وبقي قسم من الكتاب مفقود والله المستعان.

ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف - كالإمام أحمد وغيره - على نفي الصفات باسم الواحد.

قال أحمد<sup>(١)</sup>: قالوا: لا تكونون مؤحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء، قلنا نحن نقول كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا أن الله لم يزل بصفاته كلها ليس إنما نصف إلهاً واحداً؟ وضربنا لهم في ذلك مثلاً: فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذعٌ وكربٌ وليفٌ وسعفٌ وحوصٌ وجمارٌ واسمها شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها؟ فكذلك الله - وله المثل الأعلى - بجميع صفاته إله واحد، لا نقول: أنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة، ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم. حتى خلق له علماً، ولكن نقول لم يزل عالماً قادراً مالئاً، لا متى ولا كيف. ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسباباً:

أحدها: ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب<sup>(٢)</sup> لنا ربك فنزلت هذه السورة.

والثاني: إن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ: «إلام تدعون إله يا محمد؟ قال: إلى الله. قال: فصفه لي، أمِنْ ذَهَبٍ هو، أم من فضةٍ، أم من حديد؟ فنزلت هذه السورة». وروي ذلك عن ابن عباس<sup>(٣)</sup> من طريق أبي ظبيان، وأبي صالح عنه.

والثالث: أن بعض اليهود<sup>(٤)</sup> قال ذلك، قالوا: من أي جنس هو. وممن ورث الدنيا. ولمن يورثها؟ فنزلت هذه السورة، قاله قتادة والضحاك.

قال الضحاك وقاتدة ومقاتل: «جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد: صِف لنا ربك، لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا به من

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص ٤٧).

(٢) في النسختين «انعت لنا ربك» ولكن لفظ الحديث عند أحمد والترمذي «انسب».

(٣) ذكره البغوي عن ابن عباس بدون سند، وراجع «تفسير ابن الجوزي» (٢٦٦/٩).

(٤) راجع الطبري (٣٤٣/٣٠) البغوي (٥٤٤/٤)، و«الدر المنثور» (٦٧٠/٨ - ٦٧١).

أي شيء هو؟ ومن أيّ جنس هو: أمن ذهب؟ أم من نحاس هو أم من صُفْرٍ؟ أم من حديد؟ أم من فضة؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورث الدنيا؟ ولم يُورثها؟ فأنزل الله هذه السورة» وهي نسبة الله خاصة.

**والرابع:** ما روي عن الضحّاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي ﷺ بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب: منهم السيّد والعاقب، فقالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك من أي شيء هو؟ قال النبي ﷺ: «إن ربي ليس من شيء، هو بائن من الأشياء»، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات؟ وهل هو من مادة، فبين الله تعالى أنه أحدٌ، ليس من جنس شيء من المخلوقات، وأنه صمدٌ ليس من مادة بل هو صمد. لم يلد ولم يولد. وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى، فإن المولود من نظير مادته أكمل من ما خلق من مادة أخرى، كما خلُق آدم من الطين، فالمادة التي خلُق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو، ولهذا كان خلقه أعجب. فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيهاً، وهذا كما أنه إذا كان منزهاً عن أن يكون أحد كفوّاً له، فلأن يكون منزهاً عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى.

وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد، على النفي والاثبات، ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن، فالصمدية تُثبت الكمال المنافي للنقائص. والأحدية تُثبت الانفراد بذلك وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد، فلأن يُنزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى والأحرى. وإذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن يُنزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى والإنسان يخرج منه مادة الولد، ويخرج منه مادة غير الوالد، كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك. وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ أنهم لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتمخضون، وإنه يخرج منهم مثل رشح المسك، وإنهم يجامعون بذكر لا

يخفى، وشهوة لا تنقطع<sup>(١)</sup>، ولا متي<sup>(٢)</sup>، ولا منية، وإذا اشتهى<sup>(٣)</sup> أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير.

فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد، وأن يخرج منه شيء من الأشياء، كما يخرج من غيره من المخلوقات، وهذا أيضاً من تمام معنى «الصمد» كما سبق في تفسيره: أنه الذي لا يخرج منه شيء، وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد - فلا يكون من مثله - تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى.

وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورث، والله تعالى لا يموت ولا يورث، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ممن ورث الدنيا، ولمن يُورثها؟

وكذلك ما نقل من سؤال النصارى: صف لنا ربك: من أي شيء هو؟ فقال النبي ﷺ: «إن ربي ليس من شيء، هو بائن من الأشياء» وكذلك سؤال المشركين واليهود: أمن فضة هو؟ أم من ذهب هو؟ أم من حديد؟ وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التي يعبدونها من دون الله يكون لها موادٌ صارت منها، فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك.

وعبّاد البشر سواء كان البشر لم يأمرهم بعبادتهم، أو أمرهم بعبادتهم، كالذين يعبدون المسيح وعزيراً، وكقوم فرعون الذين قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، وقال لموسى: ﴿قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء].

وكالذي آتاه الله نصيباً من الملك الذي حاج إبراهيم في ربه إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت.

- (١) الطبراني في الكبير (٧٦٧٤) (٧٧٢١) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٦٨) وأسانيده لا تخلو من مقال وله شواهد في معناه.
- (٢) الطبراني في الكبير (٧٤٧٩) وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٦٥) والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٦٧) والحديث ضعيف والله أعلم.
- (٣) الترمذي (٢٥٦٣)، ابن ماجه (٤٣٣٨) أحمد (٩/٣، ٨٠) والدارمي (٧٣٣) والحديث صحيح.

وكالدجال<sup>(١)</sup> الذي يدّعي الإلهية، وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنه أعظم من فتنه الدجال.

وكالذين قالوا: ﴿لَا نَدْرُنُ الْإِهْتِكُ وَلَا نَدْرُنُ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوقَ وَيَعُوقَ وَشَرًّا﴾ لنوح: [٢٤]، وقد قال غير واحد من السلف: إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم بعد ذلك عبدوهم، وذلك أول ما عبت الأصنام، وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب، وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه<sup>(٢)</sup> عن ابن عباس، قال صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد. أما وُدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يعوث فكانت لمراد؛ ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لِحِمَيْرَ لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت.

ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت ذلك في الصحيح<sup>(٣)</sup> ومحمد عليه السلام خاتم الرسل، وكلا المرسلين بُعثَ إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التي صورت على صور الصالحين من البشر، والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين. وكذلك المشركون من أهل الكتاب، ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها، هذا غاية شركهم، فإن النصراني يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه؛ مثل مارجرس وغيره من القداديس، ويعبدون تلك الصور، ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين، وينذرون لها النذور، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين. والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين: تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعى ويُعبد فيظن داعيه أنه قد أتى، أو يظن أن الله صور ملكاً على صورته، فإن النصراني

(١) في النسختين «كالرجل» مكان «الدجال» وهو تصحيف.

(٢) في التفسير (٧٣/٦).

(٣) في حديث الشفاعة «أتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض» البخاري (١٤٧/٥) ومسلم

مثلاً يدعو في الأسر وغيره مارجرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء، وكذلك آخر غيره، وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن، فقال: هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعو. وإنما تلك شياطين أضلت المشركين.

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يُعظّمه وهو ميت، أو يستغيث به عند قبره ويسأله، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلمه ببعض ما سأله عنه، ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حياً. حتى أنني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له، هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال: هذا ملك صورته الله على صورتني، وجعل هذا من كرامات الصالحين، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين، ويتخذهم أرباباً، وإنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم<sup>(١)</sup>.

وإنما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين، وعبادة تماثيلهم، وهم المقصودون، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب، إمّا الشمس وإمّا القمر وإمّا غيرهما، وصورات الأصنام طلاس لتلك الكواكب، وشرك قوم إبراهيم - والله أعلم - كان من هذا، أو كان بعضه من هذا؛ ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن، وضعت الأصنام لأجلهم، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها، بل لأسباب اقتضت ذلك، وشرك العرب كان أعظمه الأول، وكان فيه من الجميع.

فإن عمرو بن لُحَيّ هو أول من غَيَّرَ دين إبراهيم ﷺ وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش، وكان هو سيد خزاعة.

وفي الصحيحين<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ أنه قال: (رأيت عمرو بن لُحَيِّ بن قمعة بن خندف يَجْرُ قُصْبَهُ في النار - أي أمعاءه - وهو أول من غيّر دين إبراهيم؛ وسيب السوائب، وبحر البحيرة). وكذلك - والله أعلم - شرك قوم نوح، وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين، فالشياطين يجرّ الناس من هذا إلى غيره؛ لكن هذا أقرب إلى الناس؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه، فيعكفون على قبره، ويقصدون ذلك منه، فتارة يسألونه، وتارة يسألون الله به، (وتارة يصلون)<sup>(٢)</sup>، ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت.

ولما كان هذا مبدأ الشرك سدّ النبي ﷺ هذا الباب، كما سد باب الشرك بالكواكب، ففي صحيح مسلم<sup>(٣)</sup> عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تَتَّخِذُوا القبورَ مساجدَ، فإنّي أنهاكم عن ذلك»<sup>(٤)</sup>.

وفي الصحيحين<sup>(٥)</sup> عنه أنه ﷺ ذَكَرَ له كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، وَأَوْلَئِكَ هُم شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي الصحيحين<sup>(٦)</sup> عنه أنه قال ﷺ في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَدِّثُ مَا فَعَلُوا» قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

وفي مسند أحمد وصحيح<sup>(٧)</sup> أبي حاتم عنه أنه قال ﷺ: «إن من شرار الناس من تدرَكُهُم الساعة وهم أحياء، والذين يتَّخِذُونَ القبورَ مَسَاجِدَ».

وفي سنن أبي داود<sup>(٨)</sup> وغيره عنه أنه قال ﷺ: «لا تَتَّخِذُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ تَبْلُغُنِي».

(١) البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٣/٢١٩١ - ٢١٩٢).

(٢) ما بين القوسين سقط من النسختين. (٣) مسلم (١/٣٧٧ - ٣٧٨).

(٤) مرّ تخريجه. (٥) البخاري (١٣٤١)، ومسلم (١/٣٧٦).

(٦) البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (١/٣٧٦ - ٣٧٧).

(٧) مرّ تخريجه.

(٨) أبو داود (٢٠٤٢) وأحمد في المسند (٢/٣٦٧) وهو صحيح.

وفي موطأ مالك<sup>(١)</sup> عنه أنه قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري ونناً يُعبَد، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبوراً أنبيائهم مساجد».

وفي صحيح مسلم<sup>(٢)</sup> عن أبي الهيثج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب ﷺ: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله: أمرني أن لا أدع قبراً مُشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته».

فأمره بمحو التمثالين: الصورة الممثلة على صورة الميت، والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره، فإن الشرك يحصل بهذا، وبهذا.

وقد ثبت عن عمر<sup>(٣)</sup> بن الخطاب ﷺ أنه كان في سفر فرأى قوماً يتتابون مكاناً للصلاة فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال:

(إنما هلك من كان قبلكم بهذا، إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد، من أدركته الصلاة فلْيَصِلْ، وإلا فلْيَمُضْ).

وبلغه<sup>(٤)</sup> أن قوماً يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها.

وأرسل إليه<sup>(٥)</sup> أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال، وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون، (قد ذكر فيه أخبار المسلمين)<sup>(٦)</sup> وأنهم إذا أُجذبوا كشفوا عن القبر فمُطَرُوا فأرسل إليه عمر يأمره إن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس؛ لئلا يُفْتَنُوا به، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله، وإن لم يبن عليها مسجداً. وكان بناء المساجد عليها أعظم.

لذلك قال العلماء: يحرم بناء المساجد على القبور، ويجب هدم كل مسجد بُني

(١) أخرجه مالك عن عطاء بن يسار مرسلًا (١٧٢) ووصله أحمد عن أبي هريرة (٢/٢٤٦) والحديث صحيح.

(٢) مسلم (١/٦٦٦).

(٣) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١/٥٦٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف». راجع «الدر المثور» (٧/٥٢٢).

(٥) راجع «تاريخ الطبري» (٤/٩٢ - ٩٣). (٦) ما بين القوسين سقط من النسختين.



على قبر، وإن كان الميت قد قبر في مسجد وقد طال مكثه سُوي القبر حتى لا تظهر صورته، فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته، ولهذا كان مسجد<sup>(١)</sup> النبي ﷺ أولاً مقبرةً للمشركين، وفيها نخل وخرب، فأمر بالقبور فنبشت، وبالنخل ففُطع، وبالخرب فسُويت، فخرج عن أن يكون مقبرة، فصار مسجداً.

ولما كان اتخاذ القبور مساجد، وبناء المساجد عليها محرماً، ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يكن يُعرف قطُّ مسجدٌ على قبر، وكان قبر الخليل ﷺ في المغارة التي دفن فيها<sup>(٢)</sup>، وهي مسدودة لا أحد يدخل إليها، ولا تُشدُّ الصحابةُ الرِّحَالُ لا إليه ولا إلى غيره من المقابر؛ لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُشدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»<sup>(٣)</sup>.

فكان يأتي من يأتي منهم إلى المسجد الأقصى يُصلُّون فيه، ثم يرجعون لا يأتون مغارة الخليل، ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة، حتى استولى النصارى على الشام في أواخر المائة الرابعة، ففتحو الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة، ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً، وأهل العلم ينكرون ذلك.

والذي يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبي ﷺ<sup>(٤)</sup>: (هذه طيبة أنزل فصلٌ، فنزل فصلٌ، هذا مكان أبيك إنزل فصل)، كذب موضوع، لم يصل النبي ﷺ تلك الليلة إلا في المسجد الأقصى خاصة، كما ثبت ذلك في الصحيح<sup>(٥)</sup>، ولا نزل إلا فيه.

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله، وقَدِمَهَا عمر بن

(١) أخرجه البخاري (١١١/١)، ومسلم (٣٧٣/١).

(٢) وفي النسختين «وكان الخليل في المغارة».

(٣) البخاري (٩٩٥)، ومسلم (٩٧٦/١ - ١٠١٤).

(٤) راجع ما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» من رواية النسائي وابن مردويه عن أنس (١٨٥/٥) ومن رواية البزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن شداد بن أوس (١٩٠/٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٣/١ - ٧٤) بعد ما عزاه للبزار والطبراني. وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي.

(٥) مسلم (١٤٥/١).

الخطاب لما فتح بيت المقدس، وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة، وقدمها مرّةً ثالثة حتى وصل إلى سرغ، ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل، ولا غيرها من آثار الأنبياء التي بالشام، لا ببيت المقدس، ولا بدمشق، ولا غير ذلك، مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون: في غربيّة الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام، وفي شرقيّه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام، وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل، فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها، ولا يزورونها، ولا يرجون منها بركة، فإنها محل الشرك.

ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً، وقد رأهم غير واحد على صورة الإنس، ويقولون لهم رجال الغيب، يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار، وإنما هم جنّ، والجنّ يسمون رجالاً. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَبْذُرُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝١﴾ [الجن].

والإنس سُمُّوا إنسا لأنهم يُؤنسون أي يرون. كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ [النمل: ٧] أي رأيتها.

والجنّ سُمُّوا جنّاً لاجتنانهم، يجتنون عن الأبصار أي يستترون. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الظُّلُّ﴾ [الأنعام: ٧٧].

أي استولى عليه فغطاه وستره، وليس أحد من الإنس يستتر دائماً عن أبصار الإنس، وإنما يقع هذا لبعض الإنس في بعض الأحوال: تارة على وجه الكرامة له؛ وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر.

والمقصود ههنا: أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبي، ولا رجل صالح مسجداً، ولا جعلوا مشهداً ومزاراً، ولا على شيء من آثار الأنبياء، مثل مكان نزل فيه أو صلى أو فعل فيه شيئاً من ذلك، لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الأنبياء والصالحين، ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة في مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه، بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقاً، بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب

وغيره ينهى عن قصد الصلاة في مكان صلى فيه رسول الله ﷺ اتفاقاً لا قصداً، وإنما نقل عن ابن عمر<sup>(١)</sup> خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله ﷺ، وينزل حيث نزل، ويصلي حيث صلى، وإن كان النبي ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل، بل حصل اتفاقاً، وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً صالحاً شديد الاتباع، فرأى هذا من الاتباع، وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلي سائر العشرة وغيرهم، مثل مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر، وقول الجمهور أصح.

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل، على الوجه الذي فعل، لأجل أنه فعل، فإذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة في ذلك المكان متابعة له. وأما إذا لم يقصد تلك البقعة فإن قصدها يكون مخالفة لا متابعة له.

وقال رحمه الله: (كون هذه السورة من المحكمات وكون كل مذهب يخالفها باطلاً هو حق لا ريب فيه، بل هذه السورة تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة وهي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله كما ذكره الفضيل بن عياض والإمام أحمد وغيرهم من أئمة الإسلام، وهي على نقيض مطلوب الجهمية أدل منها على مطلوبهم كما قررناه في موضعه، وإنما نذكر منه ها هنا ما ييسره الله).

لكن سائر الآيات المذكورة فيها أسماء الله وصفاته مثل آية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر ونحو ذلك هي كذلك، كل ذلك من الآيات المحكمات، لكن هذه السورة ذكر فيها ما لم يذكر في غيرها من اسمه «الأحد» «الصمد»<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وروى الترمذي وغيره عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن امرأة أبي أيوب عن أبي أيوب قال قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة

(١) أخرج ابن سعد في «طبقاته» (٤/١٤٥) عن عائشة قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منزله كما كان يتبعه ابن عمر، راجع «الحلية» (١/٣١٠) وانظر باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ من صحيح البخاري. «فتح الباري» (١/٥٦٧) - (٥٧١).

(٢) بيان تليس الجهمية (١/٤٦٠).

ثلث القرآن من قرأ قل هو الله أحد الله الصمد فقد قرأ ثلث القرآن»، قال الترمذي هذا حديث حسن فقد أخبر أنها ثلث القرآن (فإن قيل) الحديث المتقدم قد رواه مسلم أيضاً بلفظ آخر أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن قالوا وكيف نقرأ ثلث القرآن قال قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، فقوله تعدل ثلث القرآن بين أنها في نفسها ليست ثلثه ولكن تعدل ثلثه أي في الثواب (قلنا): لا منافاة بين اللفظين؛ فإنها ثلثه؛ باعتبار المعنى وهي تعدل ثلثه باعتبار الحروف أو هي بلفظها ومعناها ثلثه فتعدل ثلثه لأن ذلك اللفظ صريح في معناه وحيث قال: جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزأ من تلك الأجزاء فأخبر أن القرآن تجزأ ثلاثة أجزاء إنما هي جزء من تلك الأجزاء وهذا لا يصلح أن يراد به مجرد الثواب دون السورة، ولهذا كان النبي ﷺ يجمع بين اللفظين كما في الحديث الذي رواه أبو حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ قل هو الله أحد ثم دخل فقال بعضنا لبعض قال رسول الله ﷺ سأقرأ عليكم ثلث القرآن وإني لأرى هذا خبراً جاءه من السماء ثم خرج نبي الله ﷺ فقال إنني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا وإنها تعدل ثلث القرآن»، قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه والذي يبين أن قوله (تعدل) يدخل فيه حروفها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن قتادة بن النعمان: «أن رجلاً قام في زمن النبي ﷺ يقرأ من السحر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يزيد عليها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتلقاها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» وهذا أيضاً من حديث أبي سعيد رواه البخاري من حديث أبي سعيد نفسه وكذلك رواه أبو داود والنسائي (١) هـ.

وقال رحمه الله: (والصفة والوصف تارة يراد به الكلام الذي يوصف به الموصوف؛ كقول الصحابي في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ أحبها لأنها صفة الرحمن) (٢) هـ.

(١) الفتاوى التسعينية (٥/٢١٨ - ٢١٩) والأحاديث التي فيه كلها ثابتة صحيحة.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٥).

وقال في عموم معناها:

(وقد أنزل الله سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ﴾ [الكافرون] و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الواحدة في توحيد العلم، ولهذا كان القول فيها ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهي جملة إنشائية فعلية، والأخرى في توحيد العلم، وهي قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبهذا كان القول جملة خبرية اسمية، والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار، فالإخبار يكون عن العلم، والإنشاء يكون عن الإرادة) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (فإن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ كان القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي، لأن القرآن كلام الله والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار، والإخبار: إما عن الخالق، وإما عن المخلوق.

والإنشاء: أمر ونهي وإباحة، فقل «هو الله أحد» فيها ثلث التوحيد الذي هو خبر عن الخالق، وقد قال ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن وعدل الشيء - بالفتح - يكون ما ساواه، من غير جنسه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، وذلك يقتضي: أن له من الثواب ما يساوي الثلث في القدر، ولا يكون مثله في الصفة، كمن معه ألف دينار وآخر معه ما يعدها من الفضة والنحاس، وغيرهما، ولهذا يحتاج إلى سائر القرآن، ولا تغني عنه هذه السورة مطلقاً، كما يحتاج من معه نوع من المال إلى سائر الأنواع، إذ كان العبد محتاجاً إلى الأمر والنهي والقصص.

وسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد القولي العلمي، الذي تدل عليه الأسماء والصفات، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الله الصّمد] ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (ومعاني القرآن ثلاثة أصناف توحيد وقصص وأمر ونهي و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ متضمنة لثالث التوحيد ولا يستحب قراءتها ثلاثاً إلا إذا قرئت منفردة. وقال في موضع آخر: السنة إذا قرأ القرآن كله أن يقرأها كما في المصحف. وأما إذا قرأها منفردة أو مع بعض القرآن ثلاثاً فإنها تعدل القرآن وإذا قيل ثواب قراءتها

(١) بيان تليس الجهمية (١/٤٧٩ - ٤٨٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٨٥١ - ٨٥٢).

مرة يعدل ثلث القرآن فمعادلة الشيء للشيء يقتضي تساويها في القدر لا تماثلهما في الوصف كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلْتُ ذَلِكُمْ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] ولهذا لا يجوز أن يستغني بقراءتها ثلاث مرات عن قراءة سائر القرآن لحاجته إلى الأمر والنهي والقصص كما لا يستغني من ملك نوعاً شريفاً من المال عن غيره ويحسن ترجمة القرآن لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضل من ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون] وتلك أمر بأن يقال ما هو صفة الرب، وهذه أمر بأن يقال ما هو إنشاء خبر عن توحيد العبد، وكان النبي ﷺ يقدم ذلك الصنف، كقوله في الحديث الصحيح: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك الحق، ووعدك حق، والجنة حق والنار حق، والنيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»<sup>(٢)</sup>.

فهذا الذكر تضمن الأنواع الثلاثة، فقدم ما هو خير عن الله واليوم الآخر ورسوله، ثم ذكر ما هو خير عن توحيد العبد وإيمانه ثم ختم بالسؤال، وهذا لأن خبر الإنسان عن نفسه سلوك يشهد فيه نفسه، وتحقيق عبادة الله ﷻ، وأما الثناء المحض فهو لا يشهد فيه إلا الله ﷻ بأسمائه وصفاته، وما جرد فيه ذكر الله تعالى أفضل مما جرد فيه الخلق أيضاً، ولهذا فضلت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وجعلت تعدل ثلث القرآن، لأنها صفة الرحمن وذكره محضاً لم تشب بذكر غيره، لكن في ابتداء السلوك لا بد من ذكر الإنشاء ولهذا كان مبتدأ الدخول في الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد أنزل الله ﷻ سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(٢)</sup> إحداهما في توحيد القول والعلم، والثانية في توحيد العمل

(٢) مرّ تخريجه.

(١) الفتاوى (٣٠/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨٩/٢٢ - ٣٩٠).

والإرادة؛ فقال في الأول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال في الثاني: ﴿قُلْ يَتَّابِعُ الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون] فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة (سورة الإخلاص) و﴿قُلْ يَتَّابِعُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ ففي: ﴿قُلْ يَتَّابِعُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ عبادة الله وحده وهو دين الإسلام، وفي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ صفة الرحمن، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الإيمان، هذا هو التوحيد القولي وذلك هو التوحيد العملي (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (والتوحيد يتضمن توحيد القول والعلم، وتوحيد القصد والعمل فالأول: كما في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾.

والثاني: كما في سورة ﴿قُلْ يَتَّابِعُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ فلا بد من وصفه بما يستحقه من صفات الكمال، ولا بد من أن يعبد وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (إن السلف جعلوا سورة الإخلاص أصلاً في الرد على المشبهة والمعطلة من قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ (٤) هـ).

وقال رحمه الله: (ولما سأل المشركون النبي (٥) عن نسب ربه أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل (٦) هـ).

وقال في تفسير ﴿الصَّمَدُ﴾:

وقال رحمه الله: (ولهذا كانت الإشارة إليه من تمام دعائه، وذلك من تحقيق كونه ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي يصمد العباد إليه؛ فإن قصده بالباطن والظاهر والقلب وسائر الجسد

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١/٣٦٧) (١٥/١٦٤) نظرية العقد (١٠).

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/١٥).

(٤) مَرَّ تَخْرِيجِهِ. (٦) النبوات (٧١).

أكمل من قصده بالقلب فقط، فيكون الإشارة إليه من تمام كونه صمداً، ويكون اسم ﴿الصَّمَدُ﴾ مستلزماً لذلك، فكونه موجوداً يوجب المباينة التي تقتضي الإشارة إليه، وكونه صمداً مقصوداً يقتضي الدعاء المتضمن الإشارة إليه، والإشارة إلى غيره بالدعاء إشراك به، وإخراج له عن أن يكون أحداً) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

فالصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال ونفي النقائص، وهو العليم الكامل في علمه، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته.

ولنا مصنف مبسوط في تفسير هذه السورة، وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى ﴿الصَّمَدُ﴾ وأن عامة ما قالوه حق، كقول من قال منهم: «إن الصمد الذي لا جوف له» ومن قال منهم: «إنه السيد الذي انتهى سؤده» كما قيل: «إنه المستغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه»، وكما قيل: «إنه العليم الكامل في علمه، والقدير الكامل في قدرته» إلى سائر صفات الكمال.

وذكر تعالى في هذه السورة أنه أحد ليس له كفواً أحد، فنفي بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفواً، وبين أنه أحد لا نظير له) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، ولا يصفون أحداً من المخلوقين بخصائص الخالق - جل جلاله - بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له، وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء، ويسأله كل أحد وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء) ١. هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد دل عليها سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ فاسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ يجمع معاني صفات

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٠٧ - ٤٠٨).

(١) بيان تليس الجهمية (٢/٤٥٠).

(٣) الجواب الصحيح (٢/١٤٣).



الكمال، كما قد بسط ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع، وهو كما في تفسير ابن أبي طلحة، عن ابن عباس<sup>(١)</sup>، أنه المستوجب لصفات السؤدد - العليم الذي قد كمل في علمه، الحكيم الذي قد كمل في حكمته، إلى غير ذلك مما قد بين، وقوله ﴿أَحَدٌ﴾ يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (من معاني ﴿أَلْضَمَدُ﴾، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] ا.هـ<sup>(٣)</sup>).

وقال رحمه الله: (قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وسعيد بن جبير، وخلق من السلف: ﴿أَلْضَمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقال آخرون: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وكلا القولين حق؛ فإن لفظ ﴿أَلْضَمَدُ﴾ في اللغة يتناول هذا وهذا، والصمد في اللغة السيد؛ و﴿أَلْضَمَدُ﴾ أيضاً المصمد، والمصمد المصمت، وكلاهما معروف في اللغة.

ولهذا قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة صمد، والآدميون جوف، وهذا أيضاً دليل آخر، فإنه إذا كانت الملائكة - وهم مخلوقون من النور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار؛ وخلق آدم مما وصف لكم»<sup>(٤)</sup> فإذا كانوا مخلوقين من نور؛ وهم لا يأكلون ولا يشربون؛ بل هم صمد ليسوا جوفاً كالإنسان، وهم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ويصعدون وينزلون كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، وهم مع ذلك لا تماثل صفاتهم وأفعالهم صفات الإنسان وفعله؛ فالخالق تعالى أعظم مباينة لمخلوقاته من مباينة الملائكة للآدميين؛ فإن كليهما مخلوق والمخلوق أقرب إلى مشابهة المخلوق من المخلوق إلى الخالق صلى الله عليه وسلم ا.هـ<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: (ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله، فهذان المعنيان

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (١٦/٩٨ - ٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٥١٥).

(٤) مرّ تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٥/٣٥٣ - ٣٥٤).

جمعا التنزيه، وقد دل عليهما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾، فالاسم (الصمد) يتضمن صفات الكمال، والاسم (الأحد) يتضمن نفي المثل كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة) ١.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿١﴾﴾ والصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهذه السورة هي نسب الرحمن) ١.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضوع) ١.هـ<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: (ثم يقال: قد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ﴿الصَّمَدُ﴾ وقد قال عامة السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم: إن ﴿الصَّمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له، وقالوا أمثال هذه العبارات التي تدل على أن معناه أنه لا يتفرق، واللغة تدل على ذلك؛ فإن هذا اللفظ وهو لفظ ﴿الصَّمَدُ﴾ يقتضي الجمع والضم، كما يقال: صمدت المال إذا جمعته، وقد قال من قال من حذاق أهل الكلام وغيرهم: إن هذا تفسير المجسمة؛ لأن الأجسام نوعان: أجوف، ومصمت، كالطعام منها أجوف ومنها مصمت، فالحجر ونحوه مصمت، قالوا: هذا يقتضي أنه جسم صمت لا جوف له.

وهذا يدل على أن صمديته تنافي جواز التفرق والانحلال عليه.

فلا يخلو إما أن تكون هذه الآية قد دلت على ذلك، أو لم تدل عليه، فإن كانت دلت على ذلك وعلى أنه مصمت لا جوف له يمتنع عليه التفرق بطل قولك إن كل جسم يصح عليه التفرق والانحلال؛ وإن لم تكن دلت على ذلك فأنت لم تذكر دليلاً عقلياً على امتناع التفرق عليه ولا نصاً ولا إجماعاً وإذا كان ذلك لم تكن حجتك تامة؛ فإن هذه إحدى مقدمات الدليل، فإذا لم يكن مدلولاً عليها لم يكن المذكور دليلاً، وإذا لم يكن دليلاً لم يصح نفي كونه جسماً بهذا الدليل) ١.هـ<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: (كما نزه عنه نفسه في (سورة الاخلاص) كما تقدم التنبيه عليه

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٨٦).

(٤) بيان تلييس الجهمية (٢/٢٤٨).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٢٩).

(٣) الصمدية (٢/٢٢٨).

بقوله: ﴿اللَّهُ الضَّكُّدُ﴾ (١) فإن الصمد فيه من معنى الاجتماع والقوة والسؤدد ما ينافي الانقسام والافتراق) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (فكل ما سوى الله فقير إليه دائماً، لا يستغني عنه طرفة عين، وهذا من معاني اسمه ﴿الضَّكُّدُ﴾. ف﴿الضَّكُّدُ﴾ الذي يحتاج إليه كل شيء وهو مستغني عن كل شيء، وكما أن غنى الرب ثبت له لنفسه، لا لعله (جعلت غنياً، وكذلك) فقر المخلوقات وحاجتها إليه ثبت لذواتها، لا لعله جعلتها مفتقرة إليه) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد ثبت لفظ (الكامل) فيما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الضَّكُّدُ﴾ (٢) إن ﴿الضَّكُّدُ﴾ هو المستحق للكمال، وهو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكم الذي قد كمل في حكمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله ﷻ).

وهذه الصفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفو ولا كمثلته شيء، وهكذا سائر صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى؛ بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس، بل هم مفتورون عليه، فإنهم كما أنهم مفتورون على الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفتورون على أنه أجل وأكبر، وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الضَّكُّدُ﴾ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوكِدْ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٣)، فالصمد: السيد المستوجب لصفات الكمال، والأحد الذي ليس له كفو ولا مثال) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها: إثبات مفصل، ونفي مجمل، إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفي النقص والتمثيل، كما دل على ذلك سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الضَّكُّدُ﴾ (٢) وهي تعدل ثلث

(٢) الرد على المنطقيين (٣٤٦).

(٤) الجواب الصحيح (٧٣/١).

(١) بيان تليس الجهمية (٩٥/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٧٢/٦).

القرآن (كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح)، وقد كتبنا تصنيفنا (مفرداً) في تفسيرها وآخر في كونها تعدل ثلث القرآن.

فاسمه الصمد يتضمن صفات الكمال: كما روى الوالبي، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: [هو] العليم الذي كمل في علمه، والقدير الذي كمل في قدرته، والسيد الذي كمل في سؤده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد، هو الله (ﷻ) هذه صفته (لا تنبغي إلا له).

والأحد يتضمن نفي المثل عنه، والتنزيه الذي يستحقه (الرب) يجمعه نوعان: (أحدهما) نفي النقص عنه، و(الثاني) نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال، فإثبات صفات الكمال له مع نفي مماثله غيره له يجمع ذلك، كما دلت عليه هذه السورة) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

### وقال في معنى (الأحد) و(الصمد):

(وقد قدمنا أن كلا النوعين يوجب اختصاص الرب ﷻ بأنه الأحد وبأنه الصمد؛ فإن كونه (أحداً) يوجب أن لا يشرك به في العبادة ولا الاستغاثة فلا يدعى غيره، والاسم ﴿الصَّمَدُ﴾ جاء معرفاً ليبين أنه هو الصمد الذي يستحق أن يصمد إليه نوعي الصمد، وهذان الاسمان لم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة التي قد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنها تعدل ثلث القرآن، مثل ما روي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أبعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة، فشق ذلك عليهم، وقالوا أيننا يطيق ذلك يا رسول الله، قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه البخاري، وروي عنه أيضاً عن قتادة بن النعمان: «أن رجلاً كان في زمن النبي ﷺ يقرأ في الفجر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها لا يزيد عليها، فيما أصبح أتى رجل إلى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله فلاناً بات الليلة يقرأ من السحر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها لا يزيد عليها، كأن الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: فوالذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: «خرج

إلينا رسول الله ﷺ قال: اقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمها، وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «أعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن، قالوا وكيف يقرأ ثلث القرآن قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن» وعن عائشة أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فسألوه فقال إنها صفة الرحمن ﷻ، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ أخبروه أن الله يحبه» رواه البخاري ومسلم.

وقد قال من قال من العلماء هي ثلث القرآن؛ لأن القرآن ثلاثة أقسام: قسم توحيد، وقسم قصص، وقسم أمر ونهي، وهذه فيها التوحيد، وهذا الذي قاله إنما يتم إذا كانت جامعة للتوحيد، والأمر كذلك؛ فإن هذين الاسمين يستلزمان سائر أسماء الله الحسنى وما فيها من التوحيد كله قولاً وعملاً، والنبي ﷺ ذكر هذين الاسمين فقال: «الله الواحد الصمد تعدل ثلث القرآن» وذلك أن كونه أحداً وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغن بنفسه عن كل شيء، وأنه بحيث لا يجوز عليه التفرق والفناء وأنه لا نظير له في شيء من صفاته ونحو ذلك مما ينافي الصمدية، وهذا يوجب أن يكون حياً، عالماً قديراً، قدوساً سلاماً مهيمناً عزيزاً، جباراً متكبراً) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وبينا أن سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الله الصمد ﴿١﴾ تنزهه عن الممتنع من هذين؛ فاسمه ﴿أحد﴾ منع التشبيه الممتنع عليه، واسمه ﴿الصمد﴾ منع الانقسام والتركيب الممتنع عليه ولكن هؤلاء النفاة غلوا في ذلك وتعدوا حدود الله فيه فزادوا على الحق من الباطل شيئاً كثيراً، كما أن من المثبتة من غلا في الإثبات وتعدى حدود الله حتى زاد على إثبات الحق زيادات باطلة، والله يهدينا الصراط المستقيم، وليس هذا موضع الشرح والبسط لما تضمنته هذه السورة العظيمة من أصول التوحيد والإيمان؛ فإنها كثيرة عظيمة، إذ (الأحدية) و(الصمدية) ينتظمان أصول التوحيد والإيمان والدين في أسماء الله وصفاته في دينه، إذ دينه الحق يتبع ما هو عليه سبحانه في نفسه.

ولما كان الدين عند الله هو الإسلام، والإسلام هو الاستسلام لله وحده، وله ضدان الإشراك والاستكبار، فالمستكبر استكبر عن الإسلام له، والمشرك استسلم لغيره وإن كان قد استسلم له، فمعنى ﴿أَحَدٌ﴾ يوجب الإخلاص لله المنافي للشرك، ومعنى ﴿الصَّمَدُ﴾ يوجب الاستسلام لله وحده المنافي للاستكبار؛ فإن الصمد يتضمن صمود كل شيء إليه وفقره إليه.

وأيضاً فدين الله واحد، لا تفرق فيه، و﴿الصَّمَدُ﴾ يناسب اجتماعه، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد، ودينه واحد، وعباده المؤمنون مجتمعون يعتمون بحبله غير مفترقين، واسمه ﴿أَحَدٌ﴾ يقتضي التوحيد، و﴿الصَّمَدُ﴾ يقتضي الاجتماع وعدم التفرق، فإن ﴿الصَّمَدُ﴾ فيه معنى الاجتماع وعدم التفريق، والتوحيد أبداً قرين الاجتماع؛ لأن الاجتماع فيه الوحدة، والتفرق لا بد فيه من التثنية والتعدد كما أن الإشراك مقرون بالتفرق، قال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿مُذِبِينَ إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الروم]، ولهذا كان شعار الطائفة الناجية هو السنة والجماعة، دون البدعة والفرقة؛ فإن أصل السنة توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وأصل البدع الإشراك بالله شركاً أصغر أو أكبر) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (يوضح هذا ما قد قدمنا أن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ نفى أن يكون له مثل في شيء من الأشياء، فهو ينفي التشبيه الباطل، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ ينفي أن يجوز عليه التفرق والانقسام وما في ذلك من التركيب والتجسد، وذلك لأنه سبحانه وصف نفسه بالصمدية كما وصف بالأحدية وهو سبحانه (ليس كمثله شيء) في جميع صفاته بل هو كامل في جميع نعوته كما لا يشبهه في شيء؛ فهو كامل الصمدية، كما أنه كامل الأحدية) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وكان الأئمة كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما إذا أرادوا أن يذكرُوا ما يستحقه الله من التنزيه ذكروا (سورة الإخلاص) التي تعدل ثلث القرآن، وأنها مستوفية كل ما ينفي في هذا الباب؛ ولهذا لما ناظرت الجهمية الإمام

(١) بيان تلبس الجهمية (٢/٣٠٩ - ٣١٠). (٢) بيان تلبس الجهمية (٢/٦٩).

أحمد كأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث وغيره من البصريين والبغداديين، وذكروا الجسم وملازمه، ذكر لهم أحمد (سورة الإخلاص) فإن ما فيها من التنزيه هو الحق دون ما أدخلوه في لفظ الجسم من الزيادات الباطلة.

وذلك أن ما يذكرونه يدور على أصلين نفي التشبيه ونفي التجسيم الذي هو التركيب والتأليف؛ ولهذا يذكر من العقائد التي يبغى فيها التنزيه: الاعتقاد السليم من التشبيه والتجسيم، فأصل كلامه كله يدور على ذلك، ولا ريب أنهم نزهاوا الله بنفي هذين الأمرين عن أمور كثيرة يجب تنزيهه عنها، وما زادوه من التعطيل وإنما قصدوا به التنزيه والتقديس وإن كانوا في ذلك ضالين مضلين.

(سورة الإخلاص) تستوفي الحق من ذلك؛ فإن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ وهذان اسمان ﴿أَحَدٌ﴾ و﴿الصَّمَدُ﴾ لم يذكرهما الله إلا في هذه السورة، وهما ينفيان عن الله ما هو متنزه عنه من التشبيه والتمثيل، ومن التركيب والانقسام والتجسيم؛ فإن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ ينفي المثل والنظير كما تقدم الكلام على ذلك في أدلته السمعية، وبيننا أن الأحد في أسماء الله ينفي عنه أن يكون له مثل في شيء من الأشياء، فهو أحد في كل ما هو له، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ ينفي عنه التفرق، والانقسام والتمزق وما يتبع ذلك من تركيب ونحوه؛ فإن اسم ﴿الصَّمَدُ﴾ يدل على الاجتماع.

وكذلك كل واحد من معنييه اللذين يتناولهما هذا الاسم، وهو: أن ﴿الصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي كمل سؤدده ويصمد إليه في الأمور، والصمد هو الذي لا جوف له، كما يقال: الملائكة صمد والآدمي أجوف، والمصمت ضد الأجوف فإن اسم السيد يقتضي الجمع والقوة؛ ولهذا يقال: السواد هو اللون الجامع للبصر، والبياض اللون المفرق للبصر، ويقال للحليم: السيد؛ لأن نفسه تجتمع فلا تفرق وتتميز من الغيظ والواردات عليها، وكذلك هو الذي يصبر على الأمور، والصبر يقتضي الجمع والحبس والضم؛ وضده الجزع الذي يقتضي التفرق، وكذلك التعزي والتعزز، وعزته فتعزى أو هو لا يتعزى وهو ضد الجوع؛ فإن التعزز والتعزي يقتضي الاجتماع والقوة، والجزع يقتضي التفرق والضعف.

والإنسان له في سؤدده وعزته حالان: (أحدهما) أن يستغني بنفسه عن غيره ويعز

بنفسه عن غيره فلا يحتاج إلى الغير الذي يحتاج إليه غيره لغناه و لا يخاف منه لعزته، و(الثاني) أن يكون هو قد احتاج إليه غيره ويكون قد أعز غيره فغلبه وأعزه فمنعه، فيكون الناس قد صمدوا له أي قصدوه وأجمعوا له، وهذا هو الصمد السيد، وذلك إنما يكون من كمال سؤدده و صمديته التي تنافي تفرقه وتمزقه وضعفه.

ولفظ ﴿الصَّكْمَدُ﴾ يدل على أنه لا جوف له، وعلى أنه السيد؛ ليس كما تقول طائفة من الناس: أن ﴿الصَّكْمَدُ﴾ في اللغة إنما هو السيد، ويتعجبون مما نقل عن الصحابة والتابعين من أن ﴿الصَّكْمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له؛ فإن أكثر الصحابة والتابعين فسروه بهذا، وهم أعلم باللغة وبتفسير القرآن، ودلالة اللفظ على هذا أظهر من دلالتها على السؤدد؛ وذلك أن لفظ (ص م د) يدل على الاجتماع والانضمام المنافي للتفرق والخلو والتخويف، كما يقال صمد المال و صمده وتصمد إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض، ومنه في الاشتقاق الأكبر الصمت والمصمت؛ فإن التاء والذال أخوان متقاربان إلى بعض في المخرج، والاشتقاق الأكبر هو ما يكون فيه الكلمتان قد اشتركت في جنس الحرف، فالكلمتان اشتركت في الصاد والتاء، والتاء والذال أخوان، يقال صمت يصمت صماتاً، واصمت اصماتاً، وهو جمع وضم ينافي الانفتاح والتفريع؛ ولهذا يقال للعظام ونحوها من الأجسام؛ منها أجوف، ومنها مصمت.

فظهر أن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ يوجب تنزيهه عن ما يجب نفيه عنه من التشبيه ومماثلة غيره له في شيء من الأشياء، واسمه ﴿الصَّكْمَدُ﴾ يوجب تنزيهه عما يجب نفيه من الانقسام والتفرق ونحو ذلك مما ينافي كمال صمديته، ﴿عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عَلَواً كَبِيراً﴾ ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (إن أهل اللغة قالوا: اسم (الأحد) لم يجيء اسماً في الإثبات إلا لله؛ لكنه مستعمل في النفي والشرط والاستفهام، كقوله تعالى في نفس السورة التي ذكرها: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدًا﴾ ١١٠) وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ ١٢) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ١٣) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ١٤) قُلْ إِنِّي لَنْ



يُجِيرِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٧﴾ [الجن]: وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿١٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿١٩﴾ [الكهف] وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْرَى ﴿٢٠﴾ [الليل]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ [الحجر: ٦٥] ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴿١٨١﴾ [هود: ٨١] هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ فبين أنه أحد صمد، واسمه الأحد يتضمن نفي المثل، واسمه الصمد تضمن جميع صفات الكمال، كما بينا ذلك في الكتاب المصنف في تفسير قل هو الله أحد) هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ قال ابن عباس: ﴿الصَّمَدُ﴾ العليم الذي كمل في علمه، العظيم الذي كمل في عظمته، التقدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته، السيد الكامل في سؤده.

وقال ابن مسعود وغيره: هو الذي لا جوف له، و﴿أَحَدٌ﴾ الذي لا نظير له، فاسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه (الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثل له، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن) هـ<sup>(٣)</sup>.

وفي تفسير ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾:

(﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾)

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد) هـ<sup>(٤)</sup>.

وفي تفسيره ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾:

(١) بيان تليس الجهمية (١/٤٩٣ - ٤٩٤). (٢) منهاج السنة (٢/٥٢٩ - ٥٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٢٥٠ - ٢٥١). (٤) الجواب الصحيح (٤/١٥٣).

(فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾<sup>(١)</sup> وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ۝﴾، فلم يكن أحد يكافيه في شيء من الأشياء: فلا يساويه شيء ولا يماثله شيء، ولا يعادله شيء) ا.هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ۝﴾ فنفي أن يكون أحد كفوًا له) ا.هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ۝﴾ أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مثل، أو لم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيئته وشامخ سلطانه؟ فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك: كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك، فرد بما بين الله في كتابه من نفسه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفو) ا.هـ<sup>(٣)</sup>.

#### وفي تفسير الآية (٣، ٤) قال:

(فقوله سبحانه: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ نفي لهذا كله؛ فلأن هؤلاء كلهم مولودون؛ والله لم يولد، ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] بخلاف سائر الأنبياء، كقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥] وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَنَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود، والله لم يولد، والثانية نسبته إلى مريم، بأنه ابنها ليس هو ابن الله.

وأما قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ الآية [النساء: ١٧٢] وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]: فإنه حكى قولهم الذي

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٣٥).

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٦٣).

قالوه، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه، فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح بن مريم.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا﴾ ﴿١﴾ نفي للشركاء والأنداد، يدخل فيه كل من جعل شيئاً كفواً لله في شيء من خواص الربوبية، مثل خلق الخلق، والإلهية كالعبادة له، ودعائه ونحو ذلك.

فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد في أحد من البشر الإلهية؛ باتحاد أو حلول أو غير ذلك (أ. هـ<sup>(١)</sup>).

وفي معنى لم يلد:

(فقال تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن - التي هي صفة الرحمن، ولم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها، حتى أفرد الحفاظ مصنفات في فضلها، كالدارقطني، وأبي نعيم، وأبي محمد الخلال<sup>(٢)</sup>)، وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة - قال فيها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّكْمُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ﴿٤﴾، وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة في التوحيد، كالإمام أحمد، والفضيل بن عياض، وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم.

نفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء، وهي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن، بل والنبات ونحو ذلك؛ فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه: إما أصل، وأما فرع، وإما نظير، أو اثنان من ذلك، أو ثلاثة.

وهذا في الآدميين والجن والبهائم ظاهر.

وأما الملائكة: فإنهم وإن لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥﴾ ففَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴿٦﴾ [الذاريات]، قال بعض السلف: لعلكم تتذكرون، فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤٤٨ - ٤٤٩).

(٢) مصنف الخلال طبع بتحقيقين، وأما البقية فلا أعرف عنها شيئاً.

ولهذا كان في هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين .

فإن قوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ رد لقول من يقول: أن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر، مثل من يقول: الملائكة بنات الله، أو يقول: المسيح، أو عزيز ابن الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ الْرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٦﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٢﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥١﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٠﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٤٩﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًّا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَالُوا هُوَ اللَّهُ يُؤْتِكُونَ ﴿٢٦﴾ أَنْخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهِبْنَهُمْ رُهْبًا كَبِيرًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [التوبة] وقد أخبر أن هذا مضاهاة لقول الذين كفروا من قبل .

وقد قيل: إنهم قداماؤهم، وقيل: مشركو العرب، وفيهما نظر، فإن مشركي العرب الذين قالوا هذا ليسوا قبل اليهود والنصارى. وقدمائهم<sup>(١)</sup> منهم، فلعله الصابئون المشركون، الذين كانوا قبل موسى والمسيح بأرض الشام ومصر وغيرها، الذين يجعلون الملائكة أولاداً له، كما سئبته .

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّمَانَةُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقٰنَ﴾ [النحل: ٦٢] وهو قول من قال من العرب: إن الملائكة بنات الله .

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتٰنٌ عَمَّا كَتَبَ تَقَرُّونَ ﴿٥١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحٰنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ أَرِ

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب الرفع .

أَتَّخَذَ مَعًا بَنَاتِي وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّتًا آسِهْدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ ﴿١٩﴾ [الزخرف].

وهذا القدر الذي عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات، فظيره في النصارى؛ فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولداً، فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرَّتْ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهٗ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٧﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء].

فنهى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وعن أن يقولوا على الله إلا الحق، وذكر القول الحق في المسيح، ثم قال لهم: ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ لأنهم كفروا بالله بتثليثهم، وكفروا برسله بالاتحاد والحلول، فكفروا بأصلي الإسلام العام، التي هي الشهادة لله بالوحدانية في الألوهية، والشهادة للرسول بالرسالة، وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته؛ لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح، وعبدوا الملائكة والمسيح.

ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالشُّبُهَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران] فذكر الملائكة والنبيين جميعاً.

وقد نفى في كتابه عن نفسه الولادة، ونفى اتخاذ الولد جميعاً، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١] وقال: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ [الفرقان: ٢] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمْ يَلِدْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالنَّجْمِ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

ومعلوم أن الذين خرقوا له بنين وبنات بغير علم، والذين قالوا: ولد الله، وإنهم لكاذبون، والذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله: لم يرد عقلاؤهم ولادة حسية، من جنس ولادة الحيوان بانفصال جزء من ذكره في أنثاه، يكون منه الولد، فإن النصراني والصابئين متفقون على نفي ذلك، وكذلك مشركو العرب، ما أظن عقلاؤهم كانوا يعتقدون ذلك، وإنما وصفوا الولادة العقلية الروحانية، مثل ما يقوله النصراني: إن الجوهر الذي هو الله من وجه، وهو الكلمة من وجه، تدرعت بإنسان مخلوق من مريم، فيقولون تدرع اللاهوت بالناسوت فظاهرة، - وهو الدرع والقميص - بشر، وباطنه - وهو المتدرع - لاهوت، هو الابن الذي هو الكلمة لتولد هذا من الأب الذي هو جوهر الوجود.

فهذه مركبة عندهم من أصلين:

أحدهما: أن الجوهر الذي هو الكلمة تولد من الجوهر الذي هو الأب، كتولد العلم والقول من العالم القائل.

والثاني: أن هذا الجوهر اتحد بالمسيح وتدرع به، وذلك الجوهر هو الأب من وجه، وهو الابن من وجه، فلهذا حكى الله عنهم تارة أنهم يقولون: المسيح ابن الله، وتارة أنهم يقولون: إن الله هو المسيح بن مريم.

وأما حكايته عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلَكُّوْهُ﴾ [المائدة: ٧٣] فالمفسرون يقولون: الله والمسيح وأمه، كما قال: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْكَلْبَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولهذا قال في سياق الكلام: ﴿مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] أي غاية المسيح: الرسالة، وغاية أمه: الصديقة، لا يبلغان إلى اللاهوتية؛ فهذا حجة هذا. وهو ظاهر.

ومن الناس من يزعم أن المراد بذلك الأقانيم الثلاثة، وهي الأب والابن وروح القدس، وهذا فيه نظر.

(فأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمُ بَيْنِينَ وَبَنَدَتْ يَغْيِرَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُمْ وَتَعَلَّى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [١١٠] بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلْدٌ وَلَا لَهَ تَكْفٍ لَهُ صَاحِبَةُ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فإن قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، كما ذكر مثل ذلك في البقرة، وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه، كما تحتمله العربية لولا السياق، لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البين والبنات له، ومن كونه اتخذ ولداً.

وهذا ينتفي بضده كونه أبداع السموات، ثم قال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلْدٌ﴾ وذكر ثلاث أدلة على نفي ذلك.

أحدها: كونه ليس له صاحبة؛ فهذا نفي الولادة المعهودة: وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ نفي للولادة العقلية، وهي التولد؛ لأن خلق كل شيء ينافي تولدها عنه، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشبهه - والله أعلم - أن يكون لما ادعت النصراني أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم، والصابئة القائلون بالتولد والعلة، لا يجعلونه عالماً بكل شيء - ذكر أنه بكل شيء عليم، لإثبات هذه الصفة له، رداً على الصابئة، ونفيها عن غيره رداً على النصراني.

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس - التي يزعمون أنها الملائكة - أظهر في كونهم يقولون إنه ولد الملائكة، وأنهم بنوه وبناته فالعقول بنوه، والنفوس بناته: من قول النصارى.

ودخل في هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام، حتى إنني أعرف كبيراً لهم سئل عن العقل والنفوس: فقال بمنزلة الذكر والأنثى، فقد جعلهم كالابن والبنت، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة؛ فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ.

وهؤلاء يقولون: إن هذه الأرواح التي ولدها متصلة بالأفلاك: الشمس والقمر والكواكب، كاتصال اللاهوت بجسد المسيح، فيعبودونها كما عبدت النصارى المسيح، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة؛ وهم أحق بالشرك من النصارى؛ فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله، وليس هو إياه، ولا صفة من صفاته، والنصارى يزعمون أنهم ما يعبدون إلا ما اتحد بالله، لا لما ولده من المعلولات.

ثم من عبد الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم: اتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم؛ فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام.

ولهذا كان الخليل إمام الحنفاء: مخاطباً لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم واعترافهم بأصل الجميع.

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في موضع، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم نمرود، وعلماءهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم، الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها، وجزائر البحر قبل النصارى، وكانوا بهذه البلاد، في أيام بني إسرائيل، وهم الذين كانوا يقاتلون بني إسرائيل، فيغلبون تارة ويغلبون تارة، وسنحاريب وبخت نصر ونحوهما: هم ملوك الصابئة بعد الخليل، والنمرود الذي كان في زمانه.

فتبين بذلك ما في القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هذه الأمة والكفار والمنافقين فيها: من إثبات الولادة لله، لأن ذلك وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة



القرآن على هذه المقالات؛ لأن ذلك يحتاج إلى تصور مقاتلهم بالمعنى لا بمجرد اللفظ، وإلى تصور معنى القرآن، والجمع بينهما، فتجد المعنى الذي عنوه قد دلّ القرآن على ذكره وإبطاله.

وأما اتحاد<sup>(١)</sup> الولد فيفسر بعين الولادة، وهو من باب الأفعال، لا من باب الصفات، كما يقوله طائفة من النصارى في المسيح (١.هـ)<sup>(٢)</sup>.

(١) كذا في الأصل ولعلها بالخاء والذال معجمتين.

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٤٣٨ - ٤٤٧).

## سورة الفلق

وقال في سبب نزولها:

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ .

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها (نزلت) بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحره: سحره لبيد بن الأعصم اليهودي<sup>(١)</sup> ١. هـ<sup>(٢)</sup> .

وفي تفسير الآية (٢) قال:

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ ، ولا فرق في ذلك بين إبليس وغيره) ١. هـ<sup>(٣)</sup> .

وقال في الاستعاذة:

(وأما قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ فيشترك فيه النوعان، فإنه يستعاذ من الشر الموجود أن لا يضر، ويستعاذ من الشر الضار المفقود أن لا يوجد) ١. هـ<sup>(٤)</sup> .

وقال شيخ الإسلام، ناصر السنة، قامع البدعة تقي الدين أحمد بن تيمية، نفعنا المولى بعلومه - وهو مما كتبه في القلعة:

(١) البخاري (١٩٢/١٠ - ١٩٩ - الفتح)، مسلم (١٧١٩/٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٠/١٠). (٣) منهاج السنة (١٢٠/١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨٩/١٨).

## فصل

في ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١)، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْيَمِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، والفلق: فعل بمعنى مفعول، كالتقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق.

قال الحسن: الفلق كل ما انفلق من شيء، كالصبح والحب والنوى.

قال الزجاج: وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر<sup>(١)</sup>.

وقد قال كثير من المفسرين: انفلق الصبح، فإنه يقال: هذا أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح<sup>(٢)</sup>.

وقال بعضهم: الفلق الخلق كله<sup>(٣)</sup>، وأما من قال: إنه واد في جهنم<sup>(٤)</sup> أو شجرة في جهنم<sup>(٥)</sup>، أو أنه اسم من أسماء جهنم<sup>(٦)</sup>، فهذا أمر لا تعرف صحته، لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمه، بخلاف ما إذا قال: رب الخلق أو رب كل ما انفلق، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنيار، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به.

وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق.

وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب. فإن الغاسق قد فسر بالليل، كقوله: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ إِذْ لَوْكَ الشَّمْسُ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وهذا قول أكثر المفسرين، وأهل اللغة. قالوا: ومعنى ﴿وَقَبَ﴾ دخل في كل

شيء.

- (١) زاد المسير (٢٧٣/٩).
- (٢) زاد المسير (٢٧٢/٩) ولكنه قال واللغويون قالوا: ويقال.
- (٣) ابن جرير (٣٥١/٣٠)، زاد المسير (٢٧٣/٩) ذكره عن ابن عباس والضحاك.
- (٤) زاد المسير (٢٧٣/٩) عن وهب والسدي وابن السائب وكذا رواية عن ابن عباس.
- (٥) زاد المسير (٢٧٣/٩)، عن عبد الله بن عمرو وفي نسخة عبد الله بن عمر وهو في القرطبي كذلك.
- (٦) زاد المسير (٢٧٣/٩) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي.

قال الزجاج<sup>(١)</sup> «الغاسق» البارد، وقيل: الليل غاسق لأنه أبرد من النهار.

وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: يا عائشة تعوذني بالله من شره، فإنه الغاسق الذي وقب»<sup>(٢)</sup>.

وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أن الغاسق النجم»<sup>(٣)</sup> وقال ابن زيد: هو الثريا<sup>(٤)</sup>، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر، ثم فسروا وقوبه بسكونه.

قال ابن قتيبة<sup>(٥)</sup>: ويقال: الغاسق القمر إذا كسف واسود. ومعنى وقب: دخل في الكسوف، وهذا ضعيف، فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه، بل مع ظهوره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى «هو مسجدي هذا»<sup>(٦)</sup> مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً.

وكذلك قوله عن أهل الكساء «هؤلاء أهل بيتي»<sup>(٧)</sup>، مع أن القرآن يتناول نساءه، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة. والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنشر بالنهار ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة

(١) زاد المسير (٢٧٤/٩).

(٢) الترمذي (٣٣٦٦)، أحمد (٢٠٦/٦) الحاكم (٥٤١/٢) وهو صحيح.

(٣) رواه ابن جرير (٣٥٢/٣٠) وضعف ابن كثير رفعه.

(٤) زاد المسير (٢٧٤/٩ - ٢٧٥).

(٥) زاد المسير (٢٧٤/٩).

(٦) مرّ تخريجه.

(٧) مرّ تخريجه.

والفواحش وغير ذلك، فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون  
الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله  
بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته، وأبو معشر البلخي له «مصحف  
القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه. فذكر سبحانه  
الاستعاذة من شر الخلق عموماً، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب،  
وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر، والحسد.

فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة، لكن بالاستعانة بالأشياء كالنفث في العقد،  
والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضاً إما بالعين، وإما بالظلم وباللسان واليد، وخص  
من السحر النفاثات في العقد، وهن النساء، والحاسد الرجال في العادة، ويكون من  
الرجال ومن النساء.

والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء هو شر منفصل عن  
الإنسان، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس.

وفي سورة الناس ذكر ﴿الْوَسْوَسِ الْخَنَّاسِ﴾ [٤] فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من  
الكفر والفسوق والعصيان ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي  
تضره من الكفر والفسوق والعصيان، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه.

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، ولهذا قيل فيها  
برب الفلق، وقيل في هذه برب الناس، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من  
الخير ما في الظلمة من الشر.

وفالق الحب والنوى بعد انعقادها يزيل ما في عقد النفاثات فإن فلق الحب  
والنوى أعظم من حل عقد النفاثات.

وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه.

فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا  
بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق  
الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم.

والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق.

والرب الذي خلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتداء بإتمامه عليه، وخلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام المقدره، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي. وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

### فصل

#### في سورة الفلق والناس

في ﴿أَلْفَلَقِ﴾ أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص، فإنه فسر بالخلق عموماً، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى وهو غالب الخلق، وفسر بالفجر، وأما تفسيره بالمنار أو بجب، أو شجرة فيها، فهذه مرجعه إلى التوقيف. و«الغاسق» قد روي في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، وقال لها: يا عائشة تعوذى بالله من هذا، فهذا الغاسق إذا وقب»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن قتيبة: «الغاسق» القمر إذا كسف فاسود ومعنى وقب دخل في الكسوف.

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن «الغاسق» الليل ﴿وَقَبَ﴾ دخل في كل شيء فأظلم، و«الغسق» الظلمة.

وقال الزجاج «الغاسق»، البارد، فقيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار، أو يقال: الغسق السيلان والإحاطة، وغسق الليل سيلانه وإحاطته بالأرض. وإذا فسر بالقمر، فقد يقال: وقوبه أي دخوله. وهو دخوله في الكسوف، ولا منافاة بين تفسيره بالليل وبالقمر، فإن القمر آية الليل، فهنا ثلاث مراتب الليل مطلقاً، ثم القمر مطلقاً، ثم القمر حال كسوفه وهذا مناسب لما ذكر في المستعاذ به، فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق، وخصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا وقب، الذي هو دخول الظلام.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٥٠٤ - ٥٠٨). (٢) سبق تخريج هذا الحديث.

وقال ابن زيد: الغاسق: الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وقد تقع عند طلوعها، ويشبهه - والله أعلم - أن يكون من الحكمة في ذلك أن النور هو جنس الخير، والظلمة جنس الشر، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه، فإن النبي ﷺ قال: «إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده»<sup>(١)</sup> والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب، أو مظنته، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب لأهل الأرض.

ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة، والصدقة والعتاقة، والدعاء لدفع العذاب، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب كالزلزلة، وظهور الكواكب، وغير ذلك وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك.

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر، فإذا كانت في شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيداً.

وإذا كان في العقرب وهو هبوطه كان نحساً، فهذا في علمهم، وكذلك في عملهم من السحر وغيره: القمر أقرب المؤثرات، حتى صنفوا «مصحف القمر» لعبادته وتسبيحه، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب، انتقالاً من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام:

الأول: من شر المخلوقات عموماً، وقول الحسن: إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم: إنه جهنم: ذُكِرَ للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام.

والثاني: شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب. كالثريا وسلطانة الذي هو القمر، ودخل في ذلك سحر التمرسحات<sup>(٢)</sup> الذي هو أعلى السحر وأرفعها.

الثالث: شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام.

(١) البخاري (١٠٦٠)، ومسلم (٩٠١). (٢) كذا في الأصل.

و«الرابع» الحاسد، وهي النفوس المضرة سفهاً، فانظم بذلك جميع أسباب الشرور، ثم خص في «سورة الناس» الشر الصادر من الجن والإنس، وهو الأرواح المضرة.

### فصل

وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخر، وهو أن المستعاذ منه هو الشر، كما أن المطلوب هو الخير: إما من فعل العبد، وإما من غير فعله، ومبدأ فعله للشر هو الوسواس، الذي يكون تارة من الجن، وتارة من الإنس وحسم الشر بحسم أصله ومادته أجود من دفعه بعد وقوعه، فإذا أعيد العبد من شر الوسواس الذي يوسوس في الصدور، فقد أعيد من شر الكفر والفسوق والعصيان.

فهذا في فعل نفسه، وتعم الآية أيضاً فعل غيره لسوء معه.

فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد.

وأما الشر الصادر من غيره فسورة «الفلق» فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً والله أعلم<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٥٣٣ - ٥٣٦).



## سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايِ  
الْحَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

وقال في معنى الوسوسة:

(وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾  
مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايِ الْحَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ  
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ والقول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن المعنى: من شر الموسوس  
من الجنة ومن الناس - من شياطين الإنس والجن) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله: (فقد بين الصادق المصدوق أن من الرؤيا ما هو من حديث النفس،  
ومنها ما هو من وسوسة الشيطان، وقد أمرنا سبحانه أن نستعيذ من هذين الوسواسين في  
قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايِ  
الْحَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾) ١. هـ<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾  
إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايِ الْحَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾  
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ وقد قيل: إن المعنى: من الذي يوسوس في صدور الناس:  
من الجنة ومن الناس، وأنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس، فسماهم ناساً، كما  
سماهم رجالاً قاله الفراء، وقيل: المعنى: من شر الموسوس في صدور الناس من  
الجن، ومن شر الناس مطلقاً. قاله الزجاج. ومن المفسرين كأبي الفرج بن الجوزي من  
لم يذكر غيرهما<sup>(٣)</sup> وكلاهما ضعيف، والصحيح أن المراد القول الثالث، وهو [أن]

(٢) الرد على المنطقيين (٤٨٢).

(١) الرد على المنطقيين (٥٠٦).

(٣) زاد المسير (٢٧٩/٩).

الاستعاذة من شر الموسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فأمر بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن) ١. هـ<sup>(١)</sup>.

وقال رحمه الله:

### فصل

في ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) إلى آخرها. قوله: ﴿مِنَ الشَّرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَّاسِ﴾ (٢) الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٣) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٤): فيها أقوال، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين، ولم يذكر الثالث، وهو الصحيح.

وهو أن قوله من الجنة والناس لبيان الوسواس، أي الذي يوسوس من الجنة، ومن الناس في صدور الناس؛ فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإيحاؤهم هو وسوستهم، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر، بل قد يشاهد، قال تعالى: ﴿فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لَيْبِي لَهَا مَا وُورَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٥) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٦) [الأعراف].

وهذا كلام من يعرف قائله، ليس شيئاً يلقي في القلب لا يدرى ممن هو، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، وأما آدم فقد رآه.

وقد يرى الشياطين والجن كثير من الإنس، لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنُّ لَهْمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وفي التفسير والسيرة: أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس.

وكذلك قوله: ﴿كَشَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧) [الحشر].

وفي حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟.

قال: نعم، . شر من شياطين الجن<sup>(١)</sup>.

وأيضاً: فالنفوس لها وسوسة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ فَسَسَّوْهُ﴾ [ق: ١٦].

فهذا توسوس به نفسه لنفسه، كما يقال: حديث النفس، قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»<sup>(٢)</sup>. أخرجاه في الصحيحين.

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس.

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة، وسوسة الإنس وإلا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن؟!.

وأما قول الفراء<sup>(٣)</sup>: إن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس: الطائفتين من الجن والإنس، وأنه سمي الجن ناساً كما سماهم رجالاً<sup>(٤)</sup>، وسماهم نفراً فهذا ضعيف؛ فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويحه إلى الجن والإنس، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع.

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان، وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس وإنما يعرف هذا بخبر، ولا خبر هنا، ثم قد قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس، وكيف يكون قسيم الشيء قسماً منه، فهو يجعل الناس قسيم الجن، ويجعل الجن نوعاً من الناس وهذا كما يقال: أكرم العرب من العجم والعرب، فهل يقول هذا أحد؟!.

- (١) النسائي (٢٧٥/٨) مختصراً وأحمد (١٧٨/٥، ١٧٩) والبخاري (١٦٠ - كشف) والطبراني (٧٨٧/١) وضعفه ابن كثير في تفسيره وكذا صاحب المجموع (١٠٩/١).
- (٢) البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧). (٣) معاني القرآن (٣٠٢/٣) بالمعنى.
- (٤) معاني القرآن (٣٠٢/٣) بالمعنى.

وإذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً، وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد، كما يقال إنسان من طين وماء دافق، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس، وقد قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤًا رِبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء، مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس.

والرسول ﷺ مبعوث إلى الجنسين، لكن لفظ الناس لم يتناول الجن، ولكن يقول: ﴿يَمَعَشَرُ الْمَلِئِينَ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وكذلك قول الزجاج: إن المعنى ﴿مِنْ سَرِّ أَلْوَسَوَاسٍ﴾ الذي هو الجنة، ومن شر الناس فيه ضعف، وإن كان أرجح من الأول، لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس، ولا يستعيذ إلا من بعض الجن؟!.

وأيضاً فالوسواس الخناس إن لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله: ﴿مِنْ الْجَنَّةِ﴾ ومن ﴿النَّاسِ﴾ فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس.

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى، كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس. ويكفي أن المسلمين كلهم يقرؤون هذه السورة من زمن نبيهم ولم يُنْقَلْ هذان القولان إلا عن بعض النحاة. والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا بل إنما فيها القول الذي نصرناه، كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، قال: إن في الجن شياطيناً، وإن في الإنس شياطيناً، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فبين قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿أَلْوَسَوَاسٍ الْخَنَاسِ﴾، قال: الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس<sup>(١)</sup>، فبين ابن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال: شياطين الإنس أشد على الناس من شياطين الجن: شيطان الجن يوسوس ولا تراه، وهذا يعاينك معاينة.

وعن ابن جريج<sup>(١)</sup> ﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قال: إنهما وسواسان فوسواس من الجنة فهو ﴿الْخَنَّاسِ﴾، ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله: ﴿وَالنَّاسِ﴾. وهذا القول الثالث وإن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه، فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان، فمعناه أحسن، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره.

وأيضاً فإنه ذكر في الآية ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ﴿٣﴾.

فإن كان المقصود أن يستعيز الناس بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم، والوسواس أصل كل شر يضرهم؛ لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان، وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم، وإذا لم يكن لأحدهم ذنب، فكل ما يصيبه نعمة في حقه، وإذا ابتلي بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته ويأجره، إذا قدر عدم الذنب مطلقاً، لكن هذا ليس بواقع منهم، فإن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٧﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿[الأحزاب]، فغاية المؤمنين والأنبياء فمن دونهم هي التوبة، قال الله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿[البقرة]﴾.

وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَاكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، وقال موسى: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف.

فكان الوسواس مبدأ كل شر، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم، وملكهم وإلههم من شره، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم، فهو جزاء على أعمالهم، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيزوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً، كما استعاذوا في

(١) عزاه صاحب الدر (٤٢٠/٦) لابن المنذر.

سورة الفلق، بل من شر الذي يكون مبدأه في نفوسهم، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس يستعينوا<sup>(١)</sup> به ليعيذهم، وليعيذ منهم، وهذا أعم المعنيين، فذلك يحصل بإعادته من شر الوسواس الموسوس في صدور الناس، فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً، وبإغواء بعضهم بعضاً، وبإعانة بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان. فما حصل للإنسي شر من إنسي إلا كان مبدأه من الوسواس الخناس، وإلا فما يحصل من أذى بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلاً، كإقامة الحدود وجهاد الكفار، والاقتصاص من الظالمين، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الإنس، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس، وهي نعمة من الله في حق عباده، حتى في حق المعاقب، فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمناً، وإلا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة إلى عذاب من لم يعاقب في الدنيا.

ولهذا كان محمّد ﷺ رحمة في حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة، وباعتبار أنه في نفسه رحمة، فمن قبلها وإلا كان هو الظالم لنفسه، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه، وقتل من قتل منهم، فكان تعجيل موته خيراً من طول عمره في الكفر له وللناس، فكان محمّد ﷺ رحمة للعالمين بكل اعتبار، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين، وهم من الناس، وإن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم، فلم تبق الاستعادة من الناس إلا مما يأتي به الوسواس إليهم، فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيز، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيز، فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الاستعادة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلاً للمقصود، وكان حسماً للمادة، وأقرب إلى العدل، وكان مخرجاً لأنبياء الله وأوليائه أن يستعاذ من شرهم، وأن يقرنوا بالوسواس الخناس، ويكون ذلك تفضيلاً للجن على الإنس وهذا لا يقوله عاقل.

(١) كذا في الأصل.

فإن قيل: فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس، فإنه تابع لوسواس الجن.

قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجن، ونوع من نفوس الإنس، كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتِسُوًّا بِهِ فَقَسَمْنَا﴾ [ق: ١٦].

فالشر من الجهتين جميعاً، والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة، يقال: فلان يوشوش فلاناً، وقد وشوشه إذا حدثه سرأ في أذنه.

وكذلك الوسوسة، ومنه وسوسة الحلي لكن هو بالسين المهملة أخص.

﴿يَرْبِّي النَّاسَ﴾ الذي يرببهم بقدرته ومشيتته وتدبيره، وهو رب العالمين كلهم، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الذي يأمرهم وينهاهم، فإن الملك يتصرف بالكلام، والجماد لا ملك له، فإنه لا يعقل الخطاب، لكن له مالك، وإنما الملك لمن يفهم عنه، والحيوان يفهم بعضه عن بعض، كما قال: ﴿عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا التَّمَلُّ أَدخُلُوا﴾ [النمل: ١٨]، فلهذا كان له ملك من جنسه، ومن غير جنسه كما كان سليمان ملكهم، والإله: هو المعبود الذي هو المقصود بالإرادات، والأعمال كلها، كما قد بسط الكلام على ذلك.

وقد قيل: إنما خص الناس بالذكر، لأنهم مستعيذون أو لأنهم المستعاذ من شرهم، ذكرهما أبو الفرج، وليس لهما وجه، فإن وسواس الجن أعظم، ولم يذكره، بل ذكر الناس؛ لأنهم المستعيذون، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم، ومن الجنة؛ فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم، والذي يرد عليهم.

### فصل

وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما، فإن الوسواس أصل كل كفر وفسوق

وعصيان فهو أصل الشر كله، فمتى وقى الإنسان شره وقى عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس ووقى عذاب الله في الدنيا والآخرة، فإنه إنما يعذب على الذنوب، وأصلها من الوسواس، ثم إن دخل في الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله: ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسٍ﴾ استعاذة من الوسواس الذي يعرض له، والذي يعرض للناس بسببه، فقد وقى ظلمهم، وإن كان إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه.

قال تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْتٍ فَرِنَ اللَّهُ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِتْرٍ فَرِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. والوسواس من جنس الحديث والكلام.

ولهذا قال المفسرون في قوله: ﴿مَا تَوَسَّسَ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] قالوا: ما تحدث به نفسه.

وقد قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»<sup>(١)</sup>.

وهو نوعان: خير، وإنشاء.

فالخير: إما عن ماضٍ، وإما عن مستقبل.

فالماضي يذكره به، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً، أو أن أموراً ستكون بقدر الله، أو فعل غيره، فهذه الأمانى والمواعيد الكاذبة.

والإنشاء: أمر ونهي وإباحة.

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر، وتارة ينشئ الخير<sup>(٢)</sup> وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس.

قال تعالى في النسيان: ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقَعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «ينسى الخير» أو «ينشئ الخير».



الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال فتى موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي الثوب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى».

فالشيطان ذكره بأمر ماضية، حدث بها نفسه، مما كانت في نفسه من أفعاله، ومن غير أفعاله، فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى ولم يدر كم صلى، فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر وشغلها بأمر آخر حتى نسي الأول.

وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأمانى فكقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وفي هذه الآية أمره ووعده.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ ﴿١١٥﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٦﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١١٧﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٣٧﴾ [البقرة]، ففي هذه أيضاً أمره ووعده، وقال موسى لما قتل القبطي: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وقد قال غير واحد من الصحابة كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم: «إن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان»، فجعلوا ما يلقي في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة من الشيطان، وإن لم يكن صاحبها آثماً؛ لأنه استفرغ وسعه، كما لا يَأْثَمُ بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان، ولا بما يحدث به نفسه.

وقد قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْلَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد قال الله: قد فعلت، والنسيان للحق من الشيطان، والخطأ من الشيطان. قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام].

وقد قال ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»<sup>(١)</sup>.

ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لأصحابه: «ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان».

وقال «إن الشيطان أتى بلائاً فجعل يهديه كما يهذى الصبي حتى نام»<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ وكل بلائاً أن يوقظهم عند الفجر، والنوم الذي يشغل عما أمر به، والنعاسُ من الشيطان وإن كان معفواً عنه.

ولهذا قيل: النعاس في مجلس الذكر من الشيطان وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان، والنائم لا قلم عليه.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا ثلاثة، رؤيا من الله، ورؤيا من الشيطان ورؤيا ما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في النوم»<sup>(٣)</sup>، وقد قيل: إن هذا من كلام ابن سيرين، لكن تقسيم الرؤيا إلى نوعين: نوع من الله ونوع من الشيطان صحيح عن النبي ﷺ بلا ريب، فهذان النوعان من وسواس النفس، ومن وسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق، فيقع في الباطل، فإذا كان من المتقين كان كما قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب، وقد يكون لطيفاً، وقد يكون كثيفاً إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق. قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المطففين]»<sup>(٤)</sup>.

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٤) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب، هذا جزاء على الذنب. والغين اللطف من ذلك، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»<sup>(١)</sup>.

فالشيطان يلقي في النفس الشر، والملك يلقي الخير، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: «فلا يأمرني إلا بخير» أي استسلم وانقاد، وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم، ويقول: إن الشيطان لا يسلم، لكن قوله في الرواية الأخرى: فلا يأمرني إلا بخير، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر، وهذا إسلامه، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته، لا عن إيمانه بالله، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره.

وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله، بل يعاقبه على ذلك، فيحتاج لانقهاره معه إلى أن لا يشير عليه إلا بخير لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه، ولهذا قال ﷺ: «إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير» وقال ابن مسعود: أن للملك لمة، وإن للشيطان لمة، فلمة الملك إبعاد بالخير، وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق<sup>(٣)</sup>.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أوليائه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة، كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل.

وعكس هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبَنَّكَ لَفَدَّ كِدْتُ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٥].

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) مرّ تخريجه.

والتثبت جعل الإنسان ثابتاً لا مرتاباً، وذلك بإلقاء ما يثبتته من التصديق بالحق والوعد بالخير. كما قال ابن مسعود: لمة الملك وعد بالخير وتصديق بالحق. فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدَّقه، وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت، فهذا يثبت بالكلام، كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت، وقد يكون التثبيت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسده» فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي في قلبه من التصديق بالحق والوعد بالخير، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور.

وقد ذكر إخراجهم للمؤمنين من الظلمات إلى النور في غير آية كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقال: ﴿كَتَبْنَا نَزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١].

وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير».

وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات إلى النور، والجزاء من جنس العمل، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والصلاة هي الدعاء، إما بخير<sup>(١)</sup> يتضمن الدعاء، وإما بصيغة الدعاء، فالملائكة يدعون للمؤمنين.

(١) كذا في الأصل، والصواب: بخير.

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه: أَللّهُم اغفر له، اللهم ارحمه ما لم يحدث».

فبين أن صلاتهم قولهم: «اللهم اغفر له اللهم ارحمه» وفي الأثر «إن الرب يصلي فيقول: سبقت - أو غلبت - رحمتي غضبي».

وهذا كلامه سبحانه هو خبر وإنشاء يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب وتغلبه، وهو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل، كما يدعو الملائكة وغيرهم من الخلق، بل طلبه بأمره وقوله، وقسمه، كقوله: لأفعلن كذا، وقوله: كن فيكون، وقوله: لأفعلن كذا. قسم منه كقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ﴾ [ص: ٨٥]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خُوفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]، وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

فإن هذا وعد خبر ليس فيه قسم، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم.

وقوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِرَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. ونحو ذلك وعد مجرد.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فأخبر أنه يوحى إلى البشر تارة وحياً منه، وتارة يرسل رسولاً فيوحى إلى الرسول بإذنه ما يشاء.

والملائكة رسل الله، ولفظ الملك يتضمن معنى الرسالة فإن أصل الكلمة ملاك على وزن مفعول، لكن لكثرة الاستعمال خفت، بأن ألقىت حركة الهمزة على الساكن قبلها، وحذفت الهمزة، وملاك مأخوذ من المالك والملاك، بتقديم الهمزة على اللام، واللام على الهمزة، وهو الرسالة، وكذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام.

قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

أبلغ النعمان عني مألماً أنه قد طال حبسي وانتظاري

وهذا بتقديم الهمزة، لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة وهذا أجود، فإن نظيره في الاشتقاق الأكبر لاك يلوك إذا لأك الكلام، واللجام.

والهمزة أقوى من الواو، ويليه في الاشتقاق الأوسط أكل يأكل، فإن الآكل يلوك ما يدخله في جوفه من الغذاء والكلام والعلم ما يدخل في الباطن ويغذى به صاحبه.

قال عبد الله بن مسعود: إن كل آدب يحب أن تؤتي مآدبته، وإن مآدبة الله القرآن، والآدب المضيف، والمآدبة الضيافة، وهو ما يجعل من الطعام للضيف<sup>(٢)</sup>.

فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم وقوتها، وهو أشد انتفاعاً به، واحتياجاً إليه من الجسد بغذائه.

وقال علي عليه السلام: الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها<sup>(٣)</sup>.

وقد قال عليه السلام: إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني<sup>(٤)</sup>.

وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى الشفاء في القلوب والأبدان.

وفي الصحيحين عنه عليه السلام قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»<sup>(٥)</sup>.

(١) الشعر لعدي بن زيد في ديوانه (٩٣).

(٢) روى الدارمي (٣١٨٩) (٣١٩٧) عن عبد الله بن مسعود أثريين قرييين من هذا.

(٣) مرّ تخريجه. (٤) مرّ تخريجه.

(٥) مرّ تخريجه.

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض، تارة تشربه فتبتت، وتارة تحفظه، وتارة لا هذا، ولا هذا، والأرض تشرب الماء وتغتذي به حتى يحصل الخير، وقد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى]، وإذا كان ما يوحيه إلى عباده تارة يكون بوساطة ملك وتارة بغير وساطة، فهذا للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَنَا بِمَنْزُورٍ أَن أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنِ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ [المائدة]، وإذا كان قد قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨]، فذكر أنه يوحى إليهم، فإلى الإنسان أولى، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، وقد قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ [الشمس]، فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بوساطة الشيطان وهو إلهام وسواس، والتقوى بوساطة ملك وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوى، والأمر لا بد أن يقترن به خبر.

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة، وهذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي، وبين الوسوسة، فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان.

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى الله فهو من الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم. وهذا فرق مطرد لا ينتقض، وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان فقال: ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعد بالله منه وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانها عنه.

وقد تكلم النظار في العلم الحاصل في القلب عقب النظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال، كما ذكر ذلك أبو حامد<sup>(١)</sup> «في مستصفاه» وغيره قول الجهمية وقول

(١) المستصفى في علم أصول الفقه للغزالي مطبوع عده طبعات.

القدرية، وقول الفلاسفة، وكثير من أهل الكلام لا يذكر إلا القولين: قول الجهمية، وقول القدرية، وذلك أنهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تكلم في هذا، وهم لا يعرفون إلا هؤلاء، والمسألة هي من فروع القدر، فإن الحاصل في نفس حادث فيها، فالقول فيه كالأقوال في أمثاله.

ومذهب جهم ومن وافقه كأبي الحسن الأشعري، وكثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن الله خالق كل شيء، وأن الله خالق أفعال العباد، لكنه لا يثبت سبباً ولا قدرة مؤثرة، ولا حكمة لفعل الرب، فأنكر الطبائع والقوى التي في الأعيان، وأنكر الأسباب والحكم فلماذا لم يجعل لشيء سبباً. بل يقول: هذا حاصل بخلق الله وقدرته. ولم يذكروا له سبباً، وهم صادقون في إضافته إلى قدره، وأنه خالقه خلافاً للقدرية، لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب ومعرفتها.

وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم فبنوه على أصلهم، وهو أن كل ما تولد عن فعل العبد فهو فعله لا يضاف إلى غيره، كالشيع والري وزهوق الروح، ونحو ذلك فقالوا: هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر.

والمتفلسفة بنوه على أصلهم: في أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة، فقالوا: يحصل في نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين، وهذا القول خطأ، والذي قبله أقرب منه والأول أقرب، وليس في شيء منها تحقيق الأمر في ذلك، وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين يلقون في قلوبهم الخير والشر، فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود: لمة الملك تصديق بالحق، ولمة الشيطان تكذيب بالحق.

وكما قال النبي ﷺ في القاضي: «أنزل الله عليه ملكاً يسدده»<sup>(١)</sup>.

وكما أخبر الله أن الملائكة توحى إلى البشر ما توحىه وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك، كما لا يشعر بالشیطان الموسوس، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحيًا، ويكلمه بملك يوحى بإذنه ما يشاء، والثالث التكليم من وراء حجاب.



وقد قال بعض المفسرين: المراد بالوحي هنا الوحي في المنام، ولم يذكر أبو الفرج غيره، وليس الأمر كذلك، فإن المنام تارة يكون من الله، وتارة يكون من النفس، وتارة يكون من الشيطان، وهكذا ما يلقي في اليقظة، والأنبياء معصومون في اليقظة والمنام.

ولهذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً، كما قال ذلك ابن عباس وعبيد بن عمير، وقرأ قوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ آيَاتٍ آذِّنُكَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وليس كل من رأى رؤيا كانت وحياً، فكذلك ليس كل من ألقى في قلبه شيء يكون وحياً، والإنسان قد تكون نفسه في يقظته أكمل منها في نومه كالمصلي الذي يناجي ربه، فإذا جاز أن يوحى إليه في حال النوم فلماذا لا يوحى إليه في حال اليقظة، كما أوحى إلى أم موسى، والحواريين، وإلى النحل؟!.

لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في يقظة، ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك، فإن الوسواس غالب على الناس، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فهرس الجزء السابع

### الموضوع

### الصفحة

#### تفسیر سورة الغاشية

- ٥ ..... تفسير قوله: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ خَشِيعَةً﴾ ① عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ② تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ③ ﴿٤﴾
- ٧ - ٥ ..... بيان أن ذلك يكون في الآخرة على الصواب
- ٧ ..... الكلام على قوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ ④ ﴿٧٦﴾
- ٧ ..... تفسير قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ⑤ ﴿١٥﴾

#### تفسیر سورة الفجر

- ٨ ..... تفسير قوله: ﴿وَالْيَالِ عَشْرِ﴾ ①
- ٨ ..... لو نذر اعتكاف عشر ذي الحجة لزمه اعتكاف يوم النحر
- ٨ ..... تفسير قوله: ﴿وَتُؤَمِّدُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾ ②
- ١٠ - ٨ ..... الكلام على قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ...﴾ ③
- ٩ ..... ليس كل من وسع عليه أكرمه ولا كل من ضيق عليه أهانه
- ١٠ ..... الكلام على الكرامة وبيان أن حقيقتها لزوم الاستقامة
- ١١ - ١٠ ..... الكلام على قوله: ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ ④ ﴿٢٢﴾
- ١٣ - ١١ ..... الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ⑤ ﴿٢٧﴾ أَرْجِيحُ إِلَيْكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ⑥ ﴿٢٨﴾
- ١٣ - ١٢ ..... بيان أن النفوس ثلاثة أنواع

#### تفسیر سورة البلد

- ١٤ ..... تفسير قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ① ... ﴿١﴾
- ١٥ - ١٤ ..... الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ② ﴿١﴾ الآيات
- ١٥ - ١٤ ..... الكلام على صفتي القدرة والعلم لله ﷻ
- ١٨ - ١٥ ..... الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ③ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ④ ﴿١﴾
- ١٥ ..... الهداية محلها القلب
- ١٦ ..... الحزن الذي هو الألم على فوات مطلوب أو حصول مكروه من الدنيا منهي عنه

- ١٨ ..... ليس في الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين
- ١٩ - ١٨ ..... الكلام على قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠)
- ٢٠ - ١٩ ..... الكلام على قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾
- ٢٠ ..... القسمة رباعية في الصبر والرحمة

### تفسير سورة الشمس

- ٢٩ - ٢٧ - ٢١ ..... تفسير قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) و﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ (٢)
- ٢١ ..... الكلام على قوله: ﴿وَالنَّجْمَاتُ وَمَا بَنَّهَا﴾ (٥) و﴿وَالْأَرْضُ وَمَا حَمَلَهَا﴾ (٦)
- ٢٤ - ٢١ ..... الكلام على قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) و﴿فَالهَمَّهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨)
- ٢٢ ..... بيان أن كلا النوعين من الله: الهدى العام والهدى الخاص
- ٢٤ - ٢٣ ..... بيان أن الناس يعملون على مواقع القدر
- ٣٠ - ٢٩ - ٢٧ - ٢٤ ..... الكلام على قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) و﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠)
- ٢٤ ..... بيان أن الزكاة تجمع بين إزالة الشر وزيادة الخير وهذا هو العمل الصالح
- ٢٦ - ٢٤ ..... بيان أن الصواب في المعنى: قد أفلح من زكّى نفسه وخاب من دسّسها
- ٣٠ - ٢٦ ..... بيان أن القرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر
- ٢٦ ..... لا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر
- ٢٩ - ٢٥ ..... تفسير قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠)
- ٢٧ ..... إذا أضيف الفعل إلى الزمان فالمقصود أن ذلك يكون فيه
- ٢٨ ..... القسم بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله
- ٢٨ ..... بيان أقسام الإقسام في القرآن والكلام عليها
- ٢٨ ..... بيان أن الله تعالى لا يقسم إلا بمعظم من مخلوقاته - إذا أقسم بالمخلوقات -
- ٤٠ - ٢٩ ..... بيان ما تضمنته السورة من الرد على القدرية المجوسية والقدرية المشركية وغيرهم
- الكلام على أصول الدين في مسائل العلم القديم والقدر وخلق أفعال العباد والجبر والإرادة والحكمة وغير ذلك، وبيان مذاهب أهل البدع في ذلك والرد عليهم
- ٤٠ - ٣٠
- ٣٣ - ٣٢ ..... الكلام على طريقة: أبي الحسين البصري وأبي عبد الله الرازي
- ٣٣ ..... مذهب أهل السنة أن العبد فاعل لفعله حقيقة
- ٣٤ - ٣٣ ..... نص الأئمة على نكار إطلاق القول بالجبر نفيًا وإثباتًا
- ٣٤ ..... للمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر
- ٣٤ ..... من أنكروا الأمر والنهي فهو أكفر من اليهود والنصارى والمجوس

## الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٥	بيان مذهب القدرية الإبليسية وتفنيده
٣٥	إبليس أول من عارض النص بالقياس
٣٦	من آفات الجدال بغير علم أن صاحبه يرد باطلاً بباطل
٣٦ - ٣٧	بيان أن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة علمها وعملها
٣٧	المرجئة أصلح في أصول الدين من القدرية، وهم خير منهم في الجملة
٣٧	بيان أن سورة الشمس فيها الرد على هذه الطوائف كلها
٣٨ - ٣٩	الكلام على أهم أسباب اختلاف طوائف الأمة
٣٩ - ٤٠	الكلام على مسألة التحسين والتقييح عند أهل السنة وأهل البدعة
٤٠ - ٤١	بيان الحكمة من ذكر ثمود في هذه السورة دون غيرهم من الأمم المكذبة
٤١	بيان أن عذاب كل أمة كان بحسب ذنوبهم وجرائمهم

## تفسير سورة الليل

٤٢	الكلام على قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾...﴾ الآيات
٤٢ - ٤٧	الكلام على قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾﴾
٤٥ - ٤٧	بيان الحكمة من كونه قال: ﴿عَلَيْنَا﴾ ولم يقل: (إلينا)
٤٧	تفسير قوله: ﴿لَا يَصْلَيْنَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾﴾
٤٨ - ٥٩	الكلام على قوله: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾﴾
٤٨	الرد على قول الرافضي أن المراد به أبو الدحداح
٤٨	الكلام على فضل الصديق وإنفاقه في سبيل الله وبيان أنه أحق الأمة بالدخول في هذه الآية
٤٩ - ٥٩	تفسير قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿١٤﴾﴾
٥٢ - ٥٢	بيان أن الفضل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجب من المعاوضات
٥٢	من عليه ديون ونحوها فقدم الصدقة على قضائها هل ترد صدقته؟ على قولين:
٥٣	بيان أن أبا بكر كان أبعد الناس من النعمة التي تجزى وأولاهم بالنعمة التي لا تجزى
٥٣ - ٥٩	بيان أن أبا بكر أكمل في وصف التقوى من علي <small>عليه السلام</small>
٥٨	ذكر بعض خصائص الصديق <small>عليه السلام</small>

## تفسير سورة الضحى

٦٠	الضحى يعم النهار كله
----	----------------------

٦٠ ..... الكلام على قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿٧﴾

٦١ ..... قوله: ﴿فَأَمَّا آلِيَمَّهَ فَلَا قَهَرَ﴾ ﴿١﴾ ... الآيات متناول لجميع الأمة

### تفسير سورة الشرح

٦٢ ..... تفسير قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾

٦٥ - ٦٢ ..... تفسير قوله: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ﴿٨﴾

٦٥ - ٦٤ ..... بيان أن دعاءه ﷺ في الصلاة كان قبل الخروج منها

٦٤ ..... بيان ضعف قول من قال: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ أي فرغت من الصلاة

٦٥ ..... لم يقل مسلم أن الدعاء بعد الخروج من الصلاة أقوى منه فيها

### تفسير سورة التين

٧٠ - ٦٦ ..... الكلام على قوله: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ﴿٣﴾

٧٣ - ٦٩ - ٦٦ ..... أقسم الله بالأماكن الثلاثة التي أنزل فيها كتبه الثلاثة

٧٠ - ٦٦ ..... بيان البشارة بنبينا ﷺ من التوراة

٦٨ ..... الخلق محتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج

٧٠ ..... تفسير قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ...

٧١ ..... الحكمة من دخول اللام في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾ ﴿١٥﴾

٧١ ..... الكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين

٧٣ - ٧١ ..... بيان ضعف قول من فسر ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بالهرم

٧٢ ..... بيان ضعف القول بأن الاستثناء في الآية منقطع

٧٢ ..... تفسير قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

٧٢ ..... الشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب

٧٣ ..... بيان الصواب في تفسير قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

٧٤ ..... إذا عظم موضع الإنسان لأجله كان هو أحق بالتعظيم

٧٤ ..... تفسير قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ﴾ ﴿٧﴾

٧٧ - ٧٦ ..... بيان بطلان قول من قال: أن الخطاب في الآية عنى به النبي ﷺ

٧٨ - ٧٧ ..... بيان الصواب في تفسير الآية

٧٨ ..... هذه السورة فيها عجائب لا تنقضي

## تفسير سورة العلق

- الكلام على نزول أوائل السورة وبيان أنها أول ما نزل من القرآن وأنها تتضمن أصول الدين ..... ٨٣ - ٨٠
- أول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود ..... ٨١ - ٨٠
- الكلام على عموم السورة ..... ٨١
- العلم له ثلاث مراتب: علم بالجنان وباللسان وبالبنان ..... ٨٢
- لكل شيء أربع وجودات: عيني وعلمي ولفظي ورسمي ..... ٨٣ - ٨٢
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ..... ٩٧ - ٩٦ - ٨٧ - ٨٥ - ٨٢
- بيان أن نفس القرآن ثابت في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ..... ٨٤
- تفسير قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ..... ١٢٤ - ٨٥ - ٨٤
- تفسير قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ..... ٨٦ - ٨٥
- الكلام على الاسم والمسمى ..... ١٠٩ - ٨٧ - ٨٦
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ زَاهٍ أَسْتَفْتَى﴾ ..... ٨٧
- الكلام على قوله: ﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ﴾ ..... ٨٨ - ٨٧
- الكلام على قوله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ..... ٨٩
- بين النبي ﷺ أدلة الهداية العقلية والسمعية أول نزول القرآن ..... ٩١ - ٨٩
- بيان أن شكر الله على نعمه واجب مستحق ولو لم يكن وعيد ..... ٩١ - ٩٠
- الشكر قيد النعم وهو موجب للمزيد والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب ..... ٩١
- بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ صار النبي ﷺ نبياً وبقوله: ﴿فَرَأَى فَلْيَذَر﴾ صار رسولاً ..... ٩١
- خبر نزول الوحي على النبي ﷺ ..... ٩٣ - ٩١
- الكلام على حديث جابر في أن أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ ..... ٩٤ - ٩٣
- الزهري أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير ..... ٩٤
- الكلام على ماهية الأشياء ..... ٩٧
- الكلام على طريق المتكلمين الفاسدة بالاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام وخلق الإنسان ثم بحدوث الأجسام وخلق الإنسان على أن لها خالقاً ..... ١٢٤ - ٩٨ - ١٠٢
- بيان أن طريقتهم تخالف طريقة القرآن وتخالف المعقول ..... ١٠١
- الكلام على اسم الله ﴿الْأَكْرَمُ﴾ ..... ١١٠ - ١٠٢
- بيان أن لفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد ..... ١٠٣ - ١٠٢

الموضوع	الصفحة
الكلام على حديث: (لا تسموا العنب الكرم)	١٠٢ - ١٠٣
بيان تلبس الجهمية وتأويلهم لصفات الله وإلحادهم فيها	١٠٥ - ١٠٦
الرب تعالى أحكم الحاكمين وأحكم الحكماء	١٠٥
قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فيه ثلاثة أقوال	١٠٦ - ١٠٧
الحكم المعلق بشرط عدم عدمه	١١١
الكلام على قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلْ...﴾	١١٠ - ١١١
بيان أن هذا وأمثاله يتناول النبي ﷺ كما يتناول غيره	١١١
الكلام على قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	١١٠ - ١٢١
الإقرار بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس	١١٢
الأزل ما ليس له أول كما أن الأبد ما ليس له آخر	١١٣
المزيد من بيان فساد قول من يقول: معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر	١١٢ - ١٢٠
لا يطلق «الموقن» إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل	١١٦
العلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه	١١٧
الكلام على النية والتكلف فيها	١١٩ - ١٢٠
الكلام على صفات الله من الخلق والقدرة والعلم والإرادة وغير ذلك	١٢١ - ١٤١
الدلالة على ثبوت صفات الكمال لله وأنه لم يزل متصفاً بها	١٢٧ - ١٢٨
بيان قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه وهو قول السلف	١٣٠ - ١٤٠
الكلام على مسألة (التأثير)	١٣١ - ١٣٨
بيان أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبه لا معه في الزمان ولا متراخياً عنه	١٣٤
الإرادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقذور	١٣٤
مذهب أهل السنة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء	١٣٦
دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول	١٣٦
بيان أن الجعل من الله قد يكون خلقاً وقد يكون فعلاً ليس بخلق	١٣٦ - ١٣٨ - ١٣٩
الكلام على قولهم: (المحدث لا بد له من إحداث)	١٣٦ - ١٣٧
تفسير قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾	١٣٧
الاستدلال بأن الله خلق الأشياء بـ(كن) على أن القرآن غير مخلوق	١٣٧
بيان أن كلام الله صفة فعل وهو صفة ذات أيضاً	١٣٨
بيان قيام الأفعال بذاته سبحانه وأنها قسمان: متعدية كالخلق ولازمة كالتكلم والنزول	١٣٩

- الكلام على القراءة والمقروء، والتلاوة والتملو باختلاف المصدر ..... ١٣٩ - ١٤٠  
توجيه قول من قال من أهل السنة: القراءة هي المقروء، ومن قال هي غير المقروء،  
ومن لا يطلق هذا ولا ذاك ..... ١٤٠

### تفسير سورة القدر

- الأسباب في نزول السورة ..... ١٤٢  
الكلام على قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ ..... ١٤٢  
أنزل القرآن إلى بيت العزة ثم أنزله بعد ذلك مفرقاً بحسب الحوادث ..... ١٤٢

### تفسير سورة البينة

- الكلام على قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ...﴾ ..... ١٥٠ - ١٤٣ - ١٦٤  
المراد بالكتاب الكتاب الذي بين أيديهم الذي جرى عليه ما جرى عليه من النسخ  
والتبديل ..... ١٤٣  
أهل الكتاب مخلدون في نار جهنم كما يخلد سائر أنواع الكفار ..... ١٤٣  
بيان سبب التفريق بين أهل الكتاب والمشركين ..... ١٤٣ - ١٤٥  
الكلام على قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾ ..... ١٤٥ - ١٤٧  
تدل الآية على وجوب العمل لله أبلغ من دلالتها على وجوب نية العمل المعين ..... ١٤٦  
الاستدلال بالآية على أن جميع العبادات لا تصح إلا بنية ..... ١٤٦  
الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ ..... ١٤٧ - ١٤٨  
الرد على الروافض القائلين بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الشيعة فقط ..... ١٤٧ - ١٤٨  
فضل سورة البينة ..... ١٤٩  
الكلام على حديث أبي بن كعب: أن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ..... ١٤٩  
فضل أبي بن كعب رضي الله عنه ..... ١٤٩ - ١٥٠  
الكلام على قوله: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ ..... ١٥٠ - ١٦٣  
﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ..... ١٥٠  
قال ابن عطية: (ما انفك) التي هي من أخوات (كان) لا مدخل لها في هذه الآية ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣  
بيان أن الصواب في المعنى: ما كانوا مفكوكين متروكين لا يؤمرون ولا ينهون حتى  
يبعث الله إليهم رسولاً، ورد ما سوى ذلك ..... ١٥٠ - ١٦٣  
تفسير قوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ ..... ١٦٥ - ١٦٧



### تفسير سورة الزلزلة

- بيان فضل السورة ..... ١٦٨
- تفسير قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُكَ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ ..... ١٦٨
- تفسير قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ ..... ١٦٩ - ١٦٨
- بيان أنه لا تحبط حسنات المؤمن لأجل سيئاته ..... ١٦٩ - ١٦٨
- إنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج والمعتزلة ..... ١٦٩

### تفسير سورة العاديات

- في السورة قولان: أحدهما: أنها نزلت بمكة، والآخر: أنها نزلت بالمدينة ..... ١٧٠
- تفسير قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ ..... ١٧٠

### تفسير سورة القارعة

- الكلام على قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينَهُ ﴿١﴾﴾ ..... ١٧٣ - ١٧١
- وزن الأعمال على وجهين ..... ١٧٢
- لا ثقل للسيئات في الميزان ..... ١٧٣

### تفسير سورة التكاثر

- تفسير قوله: ﴿أَلَمْ نَكْمِ الْأَنْفُسَ الْتَكَاتُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ ..... ١٧٤
- تفسير قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ ..... ١٧٤
- الكلام على علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ..... ١٧٤
- الناس فيما يجده أهل الإيمان من حلاوة الإيمان على ثلاث درجات ..... ١٧٥
- الناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات ..... ١٧٦ - ١٧٥
- من لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته ..... ١٧٦
- اللذة تتبع المحبة ..... ١٧٦
- لا محبة أعظم ولا أكمل من محبة المؤمنين لربهم ..... ١٧٦
- ليس في الوجود ما يستحق أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه إلا الله تعالى ..... ١٧٦
- إنما يُحِبُّ الرسول ﷺ ويطاع ويتبع لأجل الله تعالى ..... ١٧٧
- الناس في ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل على ثلاث درجات ..... ١٧٨ - ١٧٧
- الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَأَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﴿٨﴾﴾ ..... ١٨٠ - ١٧٨
- بيان أن السؤال عنه لطلب شكره ..... ١٨٠ - ١٧٨

## الموضوع

## الصفحة

- الكلام على عموم السورة ..... ١٨٠ - ١٨١
- خبر ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ محذوف ..... ١٨٠ - ١٨١
- حذف جواب (لو) كثير في القرآن تعظيماً له وتفخيماً ..... ١٨٠
- ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب قسم محذوف سد مسد جواب (لو) ..... ١٨٠ - ١٨١
- تفسير سورة العصر
- قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ لكفتهم ..... ١٨٢
- أهمية التواصي بالحق والصبر معاً ..... ١٨٢ - ١٨٣
- ترك التواصي بأحدهما موجب للخسران ..... ١٨٣
- تفسير سورة الهمزة
- تفسير قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الذي جمع مالا وعدده ..... ١٨٤ - ١٨٥
- تفسير سورة الفيل
- قصة أصحاب الفيل ..... ١٨٦ - ١٨٨
- تفسير قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ تريمهم يجارون من سجيل ..... ١٨٦ - ١٨٨
- كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ..... ١٨٦ - ١٨٧
- قصة أصحاب الفيل من دلائل نبوته ﷺ ..... ١٨٦ - ١٨٨
- كلام لشيخ الإسلام جيد نافع في ذلك ..... ١٨٧ - ١٨٨
- تفسير سورة قريش
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ..... ١٨٩ - ١٩٠
- الرزق والنصر يقتربان كثيراً في الكتاب والسنة وكلام الناس ..... ١٩٠
- تفسير سورة الماعون
- تفسير قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ..... ١٩١ - ١٩٣
- تفسير السهو عن الصلاة ..... ١٩١ - ١٩٢
- إذا كان الويل لهؤلاء الساهين فكيف بمن لا يصلي؟ ..... ١٩٣
- تفسير قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ..... ١٩٣
- تفسير سورة الكوثر
- الكلام على قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ..... ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٩

- ١٩٤ ..... بيان أن الذبح بعد الصلاة في عيد النحر بدلالة الآية
- ٢٠٠ - ١٩٤ ..... الكلام على قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِتُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٣﴾
- ١٩٤ ..... من شئنا شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ فله من ذلك نصيب
- ١٩٤ ..... والذين أعلنوا ما جاء به الرسول ﷺ فلهم نصيب من قوله: ﴿رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿١﴾
- ١٩٥ ..... كل من شناه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره
- ١٩٦ ..... الشنآن منه ما هو في القلب ومنه ما يظهر على اللسان وهو أشده
- ١٩٦ ..... يجب أن نبتز من أظهر شنآته وأبدى عداوته ﷺ
- ١٩٦ ..... سب العدو للرسول ﷺ من أعظم أسباب انتصار المسلمين عليهم
- ١٩٨ - ١٩٦ ..... الكلام على جزاء من شئنا النبي ﷺ أو شئنا بعض من جاء به
- ١٩٧ ..... كل من شناه له نصيب من الابتزاع على قدر شنآته له
- ١٩٩ - ١٩٧ ..... بيان فضل رسول الله ﷺ وعظيم ما له من الثواب عند ربه
- ١٩٨ ..... كلام حسن لشيخ الإسلام في الاتباع
- ٢٠٠ - ١٩٨ ..... تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾
- ١٩٨ ..... نهر الكوثر أعظم أنهار الجنة وأطيبها وأعذبها وأحلاها وأعلاها
- ٢٠٠ - ١٩٩ ..... الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله
- ٢٠٠ ..... الصلاة نهاية العبادات وغاية الغايات
- ٢٠٠ ..... بيان أن في قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِتُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٣﴾ أنواع من التأكيد
- (ملاحظة: تفسير شيخ الإسلام لهذه السورة من أجل التفاسير وأعظمها)

### تفسير سورة الكافرون

- ٢٠١ ..... الكلام على فضل سورة الكافرون
- ٢٥٨ - ٢٠٨ - ٢٠١ ..... تضمنت سورتي «الكافرون» و«الإخلاص» التوحيد العملي والتوحيد القولي
- ٢٠١ ..... الكلام على عموم السورة
- ٢١٧ - ٢٠٨ - ٢٠٤ - ٢٠٢ - ٢٠١ ..... سورة «الكافرون» براءة من الشرك
- ٢٠٣ - ٢٠٢ ..... الكلام على التوحيد العملي الإرادي الذي تضمنته السورة
- ٢٠٦ - ٢٠٢ ..... الرد على الملاحدة الذين يزعمون أن الله قد رضي بدين الكفار وأهل الكتاب
- ٢٠٧ ..... الإله الذي يعبده محمد ﷺ وأمه ليس هو إله المشركين الذي يعبدونه
- الرد على من قال أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿١﴾ يتضمن ترك القتال، وأن السورة
- منسوخة ..... ٢٠٤ - ٢٠٩ - ٢١١

## الموضوع

- ٢٠٩ ..... أول آية نزلت في القتال قوله: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا...﴾
- ٢١٠ ..... بيان جواز معاهدة الكفار مطلقاً ومؤجلاً
- ٢١٠ ..... العقود اللازمة لا تكون مؤبدة كالشركة والوكالة
- ٢١١ ..... اختلاف العلماء في الجزية: ممن تؤخذ؟
- ٢٢٢ - ٢١٢ ..... كلام أهل العلم في وجه تكرير البراءة من الجانبين في السورة
- ٢١٤ ..... ليس في القرآن لفظ زائد إلا لمعنى زائد
- ٢١٦ ..... نقل مقاتل بن سليمان وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث، كنقل الكلبي
- ٢١٦ ..... الكلام على مقاتل بن سليمان والكلبي
- ٢٢٧ - ٢٢٧ ..... كانت سورة (الكافرون) تسمى المقشقة
- ٢١٧ ..... الكلام على إسناد حديث: (فإنها براءة من الشرك)
- ٢١٩ - ٢١٧ ..... بيان أن الخطاب في السورة للمشركين كلهم من مضى ومن يأتي إلى يوم القيامة ...
- ..... بيان أن السورة تضمنت البراءة من كل ما يعبد الكافرون في كل زمان ماضي وحاضر ومستقبل
- ٢٢٤ - ٢٢١ ..... كل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً
- ٢٢٥ ..... بيان العلة من كونه لم يقل: (ولا أنتم عابدون ما عبدت) كما قال في نفسه: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾
- ٢٢٨ - ٢٢٥ ..... في السورة دعاء الكفار إلى طلب الحق ومعرفته مع ما فيها من كمال البراءة منهم
- ٢٣٨ - ٢٣٧ - ٢٢٩ ..... بيان صفة الرب الذي يعبد اليهود والنصارى
- ٢٣٠ ..... الكلام على قوله: ﴿لَكُمُ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾
- ٢٣١ - ٢٣٠ ..... الكلام على كفر اليهود وبيان أنهم أشد عداوة وأغلظ كفراً
- ٢٣١ ..... بيان أن اليهود من عبدة الشيطان
- ٢٣١ ..... التعطيل شر من الشرك
- ٢٣٢ - ٢٣١ ..... ذم اتباع أهل الكتاب والتشبه بهم
- ٢٣٣ ..... بيان أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم
- ٢٣٣ ..... اختلافهم في مسمى الكافر مسمى المؤمن
- ٢٣٤ - ٢٣٣ ..... الصواب أن الرجل قد يكون عدواً لله ثم يصير ولياً لله ويكون الله يبغضه ثم يحبه
- ٢٣٨ - ٢٣٤ ..... الكلام على مجيء الخطاب بـ(ما) دون (من) في السورة

الكلام على قوله: ﴿... أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَمآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ..... ٢٣٦ - ٢٣٧

### تفسير سورة النصر

٢٣٩ ..... نزلت هذه السورة على النبي ﷺ في آخر عمره  
 ٢٣٩ ..... أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار  
 ٢٤٠ ..... سلف الأمة وأمتها على أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب  
 ٢٤٠ ..... لم يمّت ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام  
 ٢٤٠ ..... بيان أن السورة تضمنت إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته  
 ٢٤١ ..... المغفرة نهاية الخير

### تفسير سورة المسد

٢٤٢ ..... تفسير قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾  
 ٢٤٣ ..... ليس في القرآن ذم من كفر به ﷺ باسمه إلا هذا وامرأته  
 ٢٤٣ ..... الأنساب لا عبرة بها في دين الله  
 ٢٤٣ ..... تفسير قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾  
 ٢٤٣ ..... استدل بهذه الآية على جواز الأكل من مال الولد  
 ٢٤٣ ..... تفسير قوله: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾  
 ٢٤٣ ..... تفسير قوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾  
 ٢٤٤ ..... عمم القرآن الأقسام الممكنة في الزوجين وهي أربعة

### تفسير سورة الإخلاص

٢٧٥ - ٢٧٤ - ٣٦٦ - ٣٦٥ - ٢٤٦ - ٢٤٥ ... الكلام على فضل السورة وأنها تعدل ثلث القرآن  
 ٢٤٥ ..... قال الدارقطني: لم يصح في فضل سورة أكثر مما صحّ في فضلها  
 ٢٥٤ - ٢٤٧ ..... الكلام على مسألة التفاضل بين كلام الله تعالى وبيان أن بعضه أفضل من بعض  
 ٢٤٩ ..... تُخص القرآن بأنه لا يمسه مصحفه إلا ظاهر وهو قول جماهير السلف والخلف  
 ٢٤٩ ..... لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء كما دلّت عليه السنة  
 ..... القول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو المأثور عن السلف وهو الذي عليه أئمة  
 ٢٥٠ ..... الفقهاء  
 ٢٥٥ - ٢٥٠ ..... نزل القرآن على ثلاثة أقسام: الأحكام والوعد والوعيد والأسماء والصفات

الموضوع	الصفحة
هذه السورة جمعت الأسماء والصفات	٢٥٠
الكلام على فضل سورة الفاتحة	٢٥٣ - ٢٥٠
ما كان من واجبات الصلاة فإنّ تعمّد تركه يبطل الصلاة	٢٥٢
اختلاف كلام الفقهاء في أركان الصلاة وواجباتها	٢٥٣ - ٢٥٢
بيان أن الكلام له نسبتان يتفاضل باعتبارهما	٢٥٤
يتمتع معرفة ذاته سبحانه بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته	٢٥٦
المطلق بشرط الإطلاق إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان	٢٥٧
الكلام على اسمي الله ﷻ (الأحد) و(الصمد)	٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٨٠ - ٢٨٥ - ٣٠٦
	٣٧٧ - ٣٦٧ - ٣٤٩ - ٣٣١ - ٣٣٠
تضمنت السورة كل ما يجب نفيه عن الله تعالى وكل ما يجب إثباته	٢٥٨
كل ما يُمدح به الرب من النفي لا بد أن يتضمن ثبوتاً	٢٥٩ - ٢٥٨
آيات القرآن نوعان: علمية وعملية	٢٦٠
أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح	٢٦١
الكلام على الغزالي وما يذكره في بعض كتبه مما يرده عليه علماء المسلمين	٢٦٦ - ٢٦٥
رجع الغزالي في آخر عمره إلى قراءة البخاري ومسلم	٢٦٦
النوبة مرتبطة بالإلهيات أعظم من ارتباطها بغيرها	٢٦٨
لا يلزم من كون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن أنها أفضل من الفاتحة	٢٧١
عدل الشيء - بالفتح - يكون من غير جنس	٢٧٦ - ٢٧٢
الكلام على فضل سورة الفاتحة	٢٧٢ - ٢٧١
المعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة	٢٧٧
نفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال	٢٨١
لفظ (الأحد) لم يوصف به إلا الله وحده، وإنما يستعمل في غير الله في النفي	٣٠٢
(الصمد) استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين	٣٠٢
بيان أن التولد لا بد له من أصلين	٣١١ - ٣٠٥
الرد على قول النصارى أن الكلمة هي الابن	٣٢٣ - ٣١٦
الصفة لا تقوم بغير الموصوف	٣١٧
كلمات الله كثيرة لا نهاية لها	٣١٨
بيان فساد مذهب الفلاسفة القائلين بالعقول العشرة	٣٢٧ - ٣٢٤

- بيان أن العصمة في مسائل الصفات في الاعتصام بما جاء في الكتاب والسنة لا في الكلام المحدث ..... ٣٣٢ - ٣٣٨
- بيان أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يمتحن في عرصات القيامة ..... ٣٣٨ - ٣٣٩
- إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في الفتنة والبدعة ..... ٣٣٩ - ٣٤٠
- بيان أن لفظ (الجسم) و(الجوهر) ونحوهما لم يأت في الكتاب ولا السنة ولا كلام السلف ..... ٣٤١
- الكلام على لفظ الجسم في لغة العرب وفي كلام الناس ..... ٣٤٢ - ٣٤٧
- بيان ارتباط المعاني الصحيحة بالعبارات الشرعية ..... ٣٤٦
- ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ..... ٣٤٩ - ٣٥٠
- بيان أثر الألفاظ والمعاني المحدثه الفاسد في الاعتقاد ..... ٣٥٠ - ٣٥٣
- أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس ..... ٣٥٣
- بيان أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد ..... ٣٥٤ - ٣٥٦
- أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبادة تماثيلهم ..... ٣٥٧ - ٣٦٣
- قال العلماء: يجب هدم كل مسجد بُني على قبر ..... ٣٦٠ - ٣٦١
- الكلام على اتخاذ القبور مساجد وبيان أنه من البدع التي هي أصل الشرك ..... ٣٥٩ - ٣٦٣
- المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل ..... ٣٦٣
- تفسير قوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ ..... ٣٧٧ - ٣٨٥
- تفسير قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُؤًا أَحَدٌ﴾ ..... ٣٧٧ - ٣٨٥
- نفى الله تعالى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء ..... ٣٧٩

### تفسير سورة الفلق

- تفسير قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) ..... ٣٨٦
- تفسير قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقِي إِذَا وَقَبَ﴾ (٣) ..... ٣٨٧ - ٣٩٢
- تفسير قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ..... ٣٨٩ - ٣٩٢

### تفسير سورة الناس

- الكلام على معنى الوسوسة ..... ٣٩٣
- تفسير قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (١) ..... ٣٩٣ - ٣٩٧
- أمر الله في السورة بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ..... ٣٩٤ - ٣٩٧
- ليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً ..... ٣٩٤

## الموضوع

## الصفحة

٣٩٥	بيان أن النفوس لها وسوسة
٣٩٩ - ٣٩٣	تفسير قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾
٤٠٠ - ٣٩٧	الوسواس أصل كل شر لأنه مبدأ الكفر والفسوق والعصيان
٣٩٩	الوسوسة نوعان: نوع من الجن ونوع من نفوس الإنس
٤٠٢ - ٤٠٠	الكلام على حديث النفس
٤٠٦	الكلام على فضل القرآن
٤٠٨ - ٤٠٧	الفرق بين الإلهام المحمود والوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

















# مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146



161803